صفحات

من تاريخ الدولة الفاطمية

منذ قيامها في المغرب حتى سقوطها في مصر
(٢٩٧ـ٥٦٧ هـ / ٩٠٨ـ١١٧١ م)

تأليف الأستاذ الدكتور
محمد بركات البيلي
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

٢٠٠٧ م

اهداء من

احمد رزق

نسألكم الدعاء

صدقة جارية عنه وعن والديه

صفحات من تاريخ

الدولة الفاطمية

منذ قيامها في المغرب حتى سقوطها في مصر

(٢٩٧ - ٥٦٧هـ / ٩٠٨ - ١١٧١م)

تأليف

أ . د محمد بركات البيلي

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

مقدمة

قامت الدولة الفاطمية أول ما قامت في إفريقية والمغرب على يد الداعي أبي عبد الله الشيعي الذي سلم مقاليد الأمور إلى عبيد الله المهدي سنة ٢٩٦هـ ليكون أول الخلفاء الفاطميين واتخذ من المهدية حاضرة لدولته.

وقد ظلت إفريقية مقرا للخلافة الفاطمية أكثر من ستة عقود تقلد السلطة فيها أربعة من الخلفاء أولهم المهدي ثم القائم فالمنصور وأخيرا المعز لدين الله الذي قضى معظم خلافته في إفريقية حتى تمكن قائده جوهر الصقلي من الاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨هـ وبنى فيها القاهرة حاضرة جديدة فانتقل المعز لدين الله إليها سنة ٣٦٢هـ ليقضي فيها السنوات الأربع الأواخر من خلافته حتى وفاته سنة ٣٦٥هـ .

وقد قامت الخلافة الفاطمية في الأساس على دعوة مذهبية شيعية إسماعيلية يزعم خلفاؤها اتصال نسبهم بالنبي ﷺ عن طريق ابنته فاطمة الزهراء وزوجها الإمام علي بن أبي طالب وفقا لتصور خاص تعتمده الإسماعيلية التي تقول بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وقد دخلت الدعوة الإسماعيلية منذ بدايتها في دور الكتمان أو الدعوة السرية نحو قرن ونصف منذ وفاة الإمام جعفر الصادق ١٤٨هـ / ٧٦٥م وحتى تقلد المهدي الخلافة في إفريقية ٢٩٦هـ لتدخل الدعوة الإسماعيلية بذلك في دور الظهور أو العلانية وتزعم الخلافة الفاطمية أنها الخلافة الشرعية.

وقد حاول الخلفاء الفواطم استمالة المغاربة إلى التشيع الإسماعيلي لكن تمكن المالكية من نفوس المغاربة حال دون بلوغ هذه الغاية وأدرك الخلفاء

الفواطم أن نجاحهم في بلاد المغرب نجاحا ظاهريا غير كاف لاستمرارهم في بلاد المغرب التي لم تكن – لبعدها عن قلب العالم الإسلامي – مقرا مناسبا لتحقيق طموحات الفواطم في الإطاحة بالعباسيين والانفراد بالخلافة الإسلامية ومن ثم تطلع الخلفاء الفواطم إلى مصر ليتخذوها مقرا للخلافة الفاطمية للخلافة الفاطمية ووجهوا إليها حملات عديدة حتى تمكن المعز لدين الله من الاستيلاء عليها على يد قائده جوهر الصقلي. وانتقل المعز لدين الله إلى مصر التي استمرت مقرا للخلافة الفاطمية طيلة قرنين ونصف من الزمان حتى أسقطها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ .

وقد مرت الخلافة الفاطمية في مصر بأدوار قوة وضعف جعلت الدارسين يقسمونها إلى عصرين هما : العصر الفاطمي الأول ، والعصر الفاطمي الثاني أو عصر الوزراء العظام ، وقد اتسم كل عصر منهما بسمات وملامح خاصة. فالعصر الفاطمي الأول اتسم بالقوة والاستقرار السياسي بينما اتسم العصر الفاطمي الثاني بتدهور سياسي تدريجي سار بالخلافة الفاطمية نحو نهايتها ، لكن التدهور السياسي لم يصحبه تدهور مماثل في النواحي الحضارية ، بل استمرت حضارة مصر الفاطمية في ازدهار متسقة في ذلك مع مسيرة الحضارة الإسلامية التي لم يخب بريقها بما أصاب الدولة الإسلامية من وهن سياسي. في ضوء ما تقدم سوف ندرس بعض جوانب تاريخ الدولة الفاطمية وحضارتها.

أ . د محمد بركات البيلي

ميت عساس – غربية – ٢٠٠٥

القسم الأول

التاريـــخ الســـياسي

الشيعة الإسماعيلية

كان الخلاف المذهبي [1] الأول في التاريخ الإسلامي خلافا ثيوقراطيا يوظف الدين في خدمة السياسة وكان هذا الخلاف محصورا في الخلافة باعتبارها نيابة عن صاحب الشرع – النبي ﷺ – في حفظ الدين وسياسة الدنيا به [2] ، والخلافة نظام حكم مستحدث في الإسلام لم تشر إليه نصوص الإسلام المرجعية – القرآن والسنة – وإنما ارتبطت نشأته باحتياج الأمة الإسلامية إلى من يخلف النبي ﷺ في حكم أمته وحفظ شريعته ، وقد كانت الخلافة وليدة الموقف – أو بالأحرى المأزق – الذي وجد المسلمون فيه أنفسهم بعد وفاة النبي ﷺ الذي حرص على أن يترك الأمر من بعده شورى للمسلمين على الرغم من إدراكه ﷺ لخطورة اختلافهم من بعده [3] فلم

---

(١) المذهب : المعتقد الذي يذهب إليه (انظر لسان العرب) .

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٣ ، وابن خلدون : العبر ، (المقدمة).

(٣) أدرك الرسول ﷺ خطورة اختلاف المسلمين بعد وفاته فأخذ ينبههم منذ حجة الوداع إلى أنه غير مخلد فيهم قائلا : " أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا .... فإني قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنة نبيه ". (صحيح مسلم / حج ، سنن أبي داود / مناسك ، موطأ مالك / قدر).

والطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص ص ١٥٠ – ١٥١

وابن هشام : السيرة النبوية جـ٢ ص ٦٠٤

يستخلف أحداً من بعده وإنما بين للمسلمين النهج الذي يجب عليهم أن يلتزموا به وهو الاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ[١].

وقد تخطى المسلمون المأزق يوم سقيفة بني ساعدة باختيار أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ ، وكانت بيعته ﷺ بالخلافة يومئذ - كما وصفها عمر بن الخطاب ﷺ - فلتة وقى الله شرها [٢] ، لكن القضية وإن كانت قد حسمت بداية لصالح المهاجرين دون الأنصار يوم السقيفة [٣] فإنها

---

(١) جاء في مسند ابن حنبل : " إني تارك فيكم الثقلين خليفتين " كتاب الله وسنة نبيه " ، أي أن الرسول ﷺ لم يستخلف رجالاً وإنما استخلف منهجاً.

(٢) الفلتة : الأمر الذي يقع من غير إحكام وعن غير تدبير ولا تردد ، وفي حديث عمر أراد فجأة لأنها عوجل بها حتى لا يطمع فيها من ليس لها بموضع (أنظر لسان العرب). وهذا يدل على أن الرسول ﷺ ترك الأمر شورى للمسلمين دون أن يرتب لهم.

(٣) كان النزاع يوم سقيفة بني ساعدة على الخلافة بين الأنصار والمهاجرين أو بالأحرى مهاجرة قريش ، فلا شأن للقبيلة التي كانت تسكن مكة المكرمة بحديث السقيفة وإنما هو شأن مهاجرتها الذين هاجروا قبل الفتح إلى المدينة المنورة " لا هجرة بعد الفتح " ، ولنا على ذلك شواهد عديدة منها :

١ - ما جاء في الطبري في عدة مواضع : منها ما جاء على لسان عمر بن الخطاب ﷺ : " أين تريدون يا معشر المهاجرين " (ص ٢٠٥) ، وما جاء على لسان الأنصار : " فإن أنت مهاجرة قريش " (ص ٢١٨) ، ومنها ما جاء على لسان أبي بكر : " خص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه ... فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده " (ص ٢١٩ - ٢٢٠).

٢ - جاء على لسان عمر بن الخطاب ﷺ أن أبا بكر قال في خطبته يوم السقيفة : " وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش وهم أوسط العرب داراً ونسباً " أي -

لم تحسم نهائيا بين المسلمين وما لبث أن انشق على جماعتهم أحزاب انتظمتها ثلاث فرق رئيسية :

١ – الجماعة : وهم الذين عرفوا لاحقا بأهل السنة وقد قالوا إن الإمامة في قريش.

٢ – الشيعة : وهم من اختصوا عليا وبنيه من بعده بالإمامة دون سائر قريش.

٣ – الخوارج : الذين قالوا بعدم لزوم شرط النسب القرشي عامة ولا العلوي خاصة وأجازوا الإمامة لكل مسلم تتوافر فيه شروطها الأربعة الأخرى وهي العلم والعدالة والكفاءة وسلامة الأعضاء.

= أن أبا بكر اعتد بمكانة قريش بين القبائل ولو قال الرسول ﷺ : " الأئمة من قريش " لاعتد بذلك فهو من أعلم الصحابة بحديث رسول الله ﷺ .

٣ – يقصد بلفظ قريش في حديث السقيفة مهاجرة قريش من ذلك قول الطبري (ص ٢٢١) : " ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج " ووفقا لمقتضى اللغة يكون المقصود بقريش مهاجرتها لأن مقابلة اسم الأنصار لا تكون إلا باسم المهاجرين مثلما ذكر القرآن الكريم مرارا ، وفي صحيح البخاري عن أنس قال : " حالف النبي ﷺ بين الأنصار وقريش في داري التي بالمدينة " والمقصود مهاجرة قريش وليست قريشا كلها وفي هذا السياق ينبغي فهم تحديث " الأمراء من قريش " أي من = مهاجرة قريش ، وكل من الأنصار والمهاجرة جماعة إيمانية وليست عرقية وبذلك يخرج الأمر عن مقتضى الإرث بما يتفق مع ما رواه أبو بكر عن رسول الله ﷺ " نحن الأنبياء لا نورث ".

والشيعة في اللغة هم من يجتمعون على الأمر يتبع بعضهم رأي بعض ، أو هم أتباع الرجل وأنصاره [١] ولذلك قيل شيعة عثمان [٢] بمعنى أنصار عثمان وقيل شيعة معاوية [٣] بمعنى أنصار معاوية ، لكن الإسم الاصطلاحي للشيعة اختص بمن يتولى عليا وأهل بيته فهم الذين يقال لهم الشيعة.

وقد حاول البعض أن يرجع بداية التشيع إلى يوم السقيفة فوصفوا به بعض كبار الصحابة ممن كانوا يرون أحقية علي دون غيره بالخلافة مثل أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي [٤] لكن البداية الحقيقية للتشيع كمذهب له عقائد وطقوس وشعائر جاءت مع ظهور عبد الله بن سبأ الذي كان يهوديا من أهل صنعاء وكانت أمه سوداء فعرف بابن السوداء. وقد أعلن عبد الله بن سبأ دخوله في الإسلام في السنة السابعة من خلافة عثمان بن عفان وأظهر عقب ذلك غيرة مفتعلة ومفاجئة على الإسلام كان يضمر معها الكيد للإسلام من داخله وسعى خفية ليضل المسلمين وركب في سبيل ذلك موجة الاستياء من الخليفة الثالث عثمان بن عفان والتي كانت بوادرها

---

(١) لسان العرب ، مادة شيع.
(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٥ ، ص ١٨
(٣) نفس المصدر ص ٢٠
(٤) اليعقوبي : تاريخه جـ٤ ص٣٩٨

قد بدأت في الأمصار الإسلامية وأخذ ينفخ في نار الفتنة حتى تأججت " وقد فاضت الدنيا وطلعت الأحداث على يديه "[١].

دبر عبد الله بن سبأ الكيد للإسلام في اتجاهين : أولهما أن يفتن المسلمين في عقيدتهم ويغويهم ويضلهم فقال بالرجعة ، أي رجعة النبي ﷺ وزعم " العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمدا يرجع "[٢] وأول ابن سبأ قول الله عز وجل " إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى ميعاد " (القصص / ٨٥) تأويلا يناسب زعمه أن " محمدا أحق بالرجعة من عيسى "[٣].

والاتجاه الثاني هو زعزعة سلطان الإسلام السياسي عن طريق زعزعة الخلافة وهدم الأساس الذي قامت عليه وهو الشورى والبيعة فقال عبد الله بن سبأ بالوصاية زاعما أنه " كان ألف نبي ولكل نبي وصي ، وكان علي وصي محمد " ثم قال عبد الله بن سبأ " محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء " ثم قال بعد ذلك " من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ "[٤] وخاض عبد الله بن سبأ في أمر

---

(١) الطبري : تاريخه جـ٤ ص٣٩٨

(٢) النويري : نهاية الأرب ، جـ١٩ ص٤٧٦

(٣) الطبري : تاريخه ، جـ٤ ص٣٤٠

(٤) الطبري : تاريخه جـ٤ ص٣٤٠

الأمـــة الإسلامية حتى قال إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق وحرض الناس عليه.

كان عبد الله بن سبأ نشيطا دائم التنقل في الأمصار الإسلامية يبـــث فيها دعوته الهدامة " فبدأ بأهل الحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحـــد من أهـــل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر فـــاعتمر فيها " [١] وكان ابن سبأ ينزل في تلك الأمصار على من يتوقع منه مخالفـــة عثمان ، فنزل في البصرة على حكيم بن جبلة الذي أمر عثمان بتحديد إقامته في البصرة لا يخرج منها بشكاية من أهل الذمة وأهـــل القبلة فلما نزل ابـــن سبأ عليه واجتمع إليه نقيل حكيم ما ألمح إليه ابن سبأ واستعظمه لكن عبد الله بن عامر والي البصرة فطن إلى خطورة ابن سبأ فأخرجه عن البصرة فـــأتى الكوفة [٢] ففتن أهلها حتى أخرج منها فجاء إلى الشام ولقـــي فيـــه أبـــا ذر الغفاري فحرضه ضد معاوية والي الشام من قبل عثمان وقال له : " يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله ، ألا إن كل شئ لله ، كأنه يريد أن يحتجنه (يحتويه) دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين " [٣] ، واستثار ابـــن سبأ بذلك مشاعر أبي ذر الدينية حتى تشدد في القول مـــع معاويـــة فكتـــب

---

(١) الطبري : تاريخه جـ٤ ص٣٤٠

(٢) نفس المصدر جـ٤ ص٣٢٦

(٣) نفس المصدر جـ٤ ص٢٨٣

معاوية إلى عثمان بشأن أبي ذر فاستقدم عثمان أبا ذر إلى المدينة وحاول عبد الله بن سبأ استثارة صحابة آخرين مثل أبي الدرداء و عبادة بن الصامت لكنه فشل في ذلك ، بل إن عبادة بن الصامت ساق ابن السوداء إلى معاوية قائلاً له : " هذا الذي ألب عليك أبا ذر " [1] فلما وقف معاوية على نشاط ابن سبأ في الشام أمره بالرحيل عنها فخرج إلى مصر وأقام بها واتخذها مركزاً للحركة السبأية [2] التي استهدفت الإطاحة بالخليفة عثمان بن عفان " فبث دعاته وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم " [3].

كان أهل الكوفة أول من قام فيما دبر له ابن السوداء ضد الخليفة عثمان [4] وكان القائمون في ذلك الذين كان ابن السوداء يكاتبهم [5] ولكن أخطر من قاموا في هذا الأمر المصريين [6] لوجود ابن السوداء بين ظهرانيهم يقويهم ويقتهم حتى أنه استمال عمار بن ياسر الذي أوفده الخليفة

---

(١) الطبري : : تاريخه جـ٤ ص٢٨٣

(٢) نفس المصدر جـ٤ ص٣٤٠ - والنويري : المصدر السابق جـ١٩ ص٤٦٧

(٣) الطبري : المصدر السابق جـ٤ ص٣٤١

(٤) النويري : المصدر السابق جـ١٩ ص٤٦٧

(٥) الطبري : المصدر السابق جـ٤ ص٣٣١ ص٣٤٥

(٦) المقصود بالمصريين هنا العرب الذين استوطنوا مصر .

عثمان بن عفان إلى مصر لاستطلاع أحوال مصـــــر [1]. وحـــرض ابـــن السوداء المصريين على الثورة ضد الخليفة عثمان فخرجوا لذلك في هيئـــــة الحجاج وخرج معهم ابن السوداء مدبرا للأمر من وراء ســـتار [2] وكـــاتب السبأية أتباعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينـــة [3] وكـــانت القيـــادة للغافقي العكي أمير المصريين فدان له المصريون والكوفيون والبصريـــون جميعا [4] فحاصروا عثمان حتى قتلوه ، وأجبرت السبأية عليا علـــى تقلـد الخلافة [5] ثم عصوه لما أمرهم بالعودة إلى ديارهم [6].

واستمر عبد الله بن سبأ ينفخ في نار الفتنة وحرض على الوقيعة بين علي وطلحة والزبير فأشار ابن السوداء على أتباعه عشية وقعة الجمل بأنـــه " إذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر ، فإذا من أنتم معـــه لا يجد بدا من أن يمتنع ، ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأي رأيـــهم عما تكرهون فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون " [7] وظلـــت

---

(١) الطبري : المصدر السابق جـــ٤ ص٣٤١

(٢) نفس المصدر جـــ٤ ص٣٤٩

(٣) نفس المصدر جـــ٤ ص٣٤٦

(٤) نفس المصدر جـــ٤ ص٣٥١

(٥) قالت السبأية فيما ذكر الطبري (جـــ٤ ص٤٣٧) : خذها إليك واحذر أبا حسن إنا نمر الأمر إمرار الرسل.

(٦) نفس المصدر جـــ٤ ص٤٣٨

(٧) الطبري : تاريخه جـــ٤ ص٤٩٣ – والنويري : نهاية الأرب جـــ٢٠ ص٥٧

السبأية تهيج الفتنة [١] فطعنوا في علي من وراء ظـــهره وأعجلـوه عـــن المقـــام في البصرة [٢] فارتحلوا بغير إذنه فارتحل في آثـــارهم " ليقطـــع عليهم أمرا إن كانوا أرادوه " [٣].

وحاول عبد الله بن سبأ أن يفتن عليا فادعى السبأية ألوهية علي بـــن أبي طالب [٤] وجاء قوم منهم إلى علي وقالوا له : " أنت هو " فقـــال لهـــم : " ومن هو ؟ " فقالوا : " أنت الله " فغضب علي وأظهر الجـــد وأمـــر بنـــار فأوقدت وأمر مولاه قنبرا بأن يلقي بهم في النار [٥] وكاد علي أن يحرق عبد الله بن سبأ لولا تدخل السبأية فاكتفى علي بنفي ابن سبأ إلى ساباط بـــالمدائن [٦] فتآمر السبأية على قتل علي بن أبي طالب ، فقد كان عبد الرحمـــن بـــن ملجم قاتل أمير المؤمنين علي من السبأية قبل أن يكون من الخـــوارج فقـــد ذكر المقريزي أن : " ابن ملجم هو أحد أصحاب عبد الله بن وهب الســـبائي المعروف بابن سبأ وبابن السوداء وقال بقوله في علي بن أبي طالب وصـــار

---

(١) الطبري : تاريخه جـ٤ ص٥٠٧

(٢) نفس المصدر جـ٤ ص٥٤١ – والنويري : المصدر السابق جـ٢٠ ص٨٤ – ٨٥

(٣) الطبري : المصدر السابق جـ٤ ص٥٤٤

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٢ ص٢٤٥ ذكر قول السيد الحميري فيهم :

قوم غلوا في علي لا أبا لهم ... وأجشمـــوا أنفســـا في حبـــه تعبا

قالوا هو الله جل الله خالقنـــا ... من أن يكون له ابن أو يكون أبـــا

(٥) الرازي : إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص٨٦

(٦) ابن عبد ربه : المصدر السابق جـ٢ ص٢٤٩

من شيعته ثم خرج على علي بن أبي طالب مع من خرج عليه من المحكمة وقتله . (١)

وظل عبد الله بن سبأ في منفاه إلى مقتل علي بن أبي طالب فزعم ابن سبأ أن عليا لم يقتل وإنما المقتول شيطان على صورة علي وأن عليا إنما صعد إلى السماء كصعود عيسى وقال إنه سينزل إلى الأرض وينتقم من أعدائه. وقال أتباع ابن سبأ بالتوقف (*) والغيبة (**) والرجعة (***) وتناسخ الجزء الإلهي بعد علي وقالوا : " إن عليا هو الذي يجيء في السحاب وأن الرعد هو صوته والبرق سوطه (٢). ووجدت دعوة ابن سبأ أتباعا لها في الفرس الذين كانوا مهيأين للأخذ بمثل هذه الهرطقات المغالية ، فضلا عن إدراكهم لحقيقة مرامي ابن سبأ في الكيد للإسلام فاتبعوه رغبة منهم في الكيد للإسلام الذي سلبهم سلطانهم القديم ، فقد كانت آراء السبأية متأثرة بعبادة الملوك المعروفة عند قدماء الفرس (٣) كما أن التشيع صار ميدانا لكل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو ضغينة يحملها عليه في نفسه ولكل من أراد أن

---

(١) المغني الكبير جـ ٤ ص ٦٤

(*) التوقف : إنتظار ظهور الإمام.

(**) الغيبة : الفترة التي يغيب فيها الإمام.

(***) الرجعة : رجعة الإمام إلى الحياة الدنيا على الأرض.

(٢) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٨٠

(٣) فان فلوتن : المرجع السابق ص ٧٦

يلصق به بعضا من عقائد آبائه أو دياناته القديمة من يهودية أو نصرانية أو زرادشتية أو هندوسية أو كل من أراد الخروج ببلاده على دولة الإسلام.

أدى مقتل علي بن أبي طالب ثم تنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية إلى انتهاج الشيعة سياسة موارة الأمويين خوفا من بطشهم بينما عمل الأمويون من جانبهم على إضعاف الشيعة وضربهم بالخوارج مثلما فعل المغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة إذ أخرج " ثلاث آلاف نقاوة الشيعة وفرسانهم " لقتال الخوارج [١] وكانت الشيعة وقتئذ هم السبأية على نحو ما يظهر من وصف المستورد بن علفه أمير الخوارج لمعقل بن قيس الشيمي بأنه " من السبأية المفترين الكاذبين [٢] ووصف زياد بن أبيه إياهم بالترابية السبأية [٣].

تزعم الشيعة في الكوفة حجر بن عدي وكان يتصدى للمغيرة بن شعبة كلما ذم عليا فيسكت عنه المغيرة [٤] فلما جمعت لزياد بن أبيه ولاية الكوفة بعد وفاة المغيرة بلغ زياد أن حجرا يجتمع إليه شيعة علي ويظهرون

---

(١) الطبري : المصدر السابق جـ٥ ص١٨٩

(٢) نفس المصدر ص١٩٣

(٣) نفس المصدر ص٢٧٤

(٤) النويري : المصدر السابق جـ٢٠ ص٣٢٠

لعن معاوية والبزاء منه فشخص زياد إلى الكوفة وأمسك بحجر وبعض أصحابه وأرسلهم إلى دمشق فأمر معاوية بقتلهم مما أضعف شأن الشيعة [١].

واتجهت أنظار الشيعة بعد وفاة الحسن بن علي سنة ٥١هـ نحو أخيه الحسين بن علي فلما امتنع الحسين عن بيعة يزيد بن معاوية بعد وفاة أبيه معاوية عام ٦٠هـ وعلمت الشيعة بخروج الحسين إلى مكة كيلا يبايع ليزيد إجتمعوا في منزل سليمان بن صرد واتفقوا على أن يكتبوا إلى الحسين ليأتي إلى الكوفة ليبايعوه بالخلافة وتوالت عليه كتبهم حتى استجاب لهم ، وكانت شيعة الكوفة تمني الحسين بالنصرة حين كان النعمان بن بشير الأنصاري واليا عليهم لا يأخذهم بالشدة فلما صرف النعمان عن الكوفة وولى عليها عبيد الله بن زياد أخذ أهلها بالشدة فصاروا كما قيل عنهم للحسين " أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم إلب واحد عليك وأما سائر الناس بعد فإن أفئدتهم تهوي إليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك " [٢] فكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بمقتل الحسين بعد أن تقاعس شيعة الكوفة عن نصرته فقتل في يوم عاشوراء ، العاشر من المحرم سنة ٦١هـ بموضع يدعى كربلاء.

---

(١) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص١٣٤

(٢) الطبري : المصدر السابق جـ٥ ص٤٠٥

والنويري : المصدر السابق جـ٢٠ ص٤٢٦

كان مقتل الحسين بن علي في واقعة كربلاء نقطة تحول أساسية في التاريخ الشيعي فقد انتقل التشيع بعدها من مجرد رأي سياسي إلى عقيدة راسخة في نفوس الشيعة [١] يبذلون أرواحهم في سبيلها وتصاعد التشيع تصاعدا خطيرا حتى أصبح حركة سياسية مذهبية جل هدفها أن يعتلي سدة الخلافة أحد أبناء البيت العلوي.

و" تلاقت الشيعة بعد مقتل الحسين — بالتلاوم والتندم ورأت أنها أخطأت خطأ كبيرا بتقاعسهم عن نصرة الحسين بعد أن دعوه إليهم ورأوا أنه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه " [٢] وانتهت مشاوراتهم إلى تقديم سليمان بن صرد على أمرهم وأخذوا منذ عام ٦١هـ الذي قتل فيه الحسين " في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدم الحسين فكان يجيبهم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر فلم يزالوا كذلك وفي ذلك حتى مات يزيد بن معاوية " [٣].

أعلن الشيعة ثورتهم بزعامة سليمان بن صرد في ربيع الثاني عام ٦٥هـ وابتدأوا بالمضي إلى كربلاء حيث قتل الحسين فأقاموا يوما وليلة

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي جـ١ ص٣١٠
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٤ ص٦٢
(٣) الطبري : المصدر السابق جـ٥ ص٥٥٨

وصاحوا صيحة واحدة طالبين التوبة والمغفرة من الله لخذلانهم الحسين فعرفوا بالتوابين "[1]. واشتبك الشيعة بقيادة سليمان بن صرد في قتال مع جند الأمويين من أهل الشام عند عين الوردة عام ٦٥هـ وانتهت المعركة بهزيمة الشيعة ومقتل قائدهم سليمان بن صرد وكثير منهم وعاد فلهم إلى الكوفة ليتزعمهم المختار بن أبي عبيد الثقفي.

كان المختار الثقفي رجلاً انتهازياً نفعياً يظهر التشيع بينما يعمل في الحقيقة لخدمة أغراضه الخاصة يدل على ذلك تقلبه بين مختلف الأحزاب فقد بدأ أموياً ثم حارب الأمويين في جانب عبد الله بن الزبير ثم انضم إلى الشيعة في الكوفة واستغل هزيمة التوابين ليتقدم صفوفهم ويتولى زعامتهم ولعله كان سبباً في هزيمتهم حينما أسهم بدعوته في تفريق جمعهم إذ أظهر الدعوة لمحمد بن الحنفية " ومازال بالشيعة حتى تشعبت إليه طائفة تعظمه وتجيبه وتنتظر أمره ، وعظم الشيعة مع سليمان بن صرد فسليمان أثقل خلق الله على المختار "[2].

عرف أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي من الشيعة باسم الكيسانية الذين قالوا بإمامة محمد بن الحنفية ، وقد سار المختار على نهج عبد الله بن سبأ في العمل على تحقيق مآرب شخصية فمن قبل أظهر ابن سبأ دعوته

---

(١) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ص١٤٠

(٢) الطبري : المصدر السابق جـ٥ ص٥٦١

السبأية باسم علي بن أبي طالب على الرغم من معارضة علي لها وكذلك عارض محمد بن الحنفية دعوة المختار له في البداية لكنه اضطر لاحقا للاعتراف بهذه الدعوة استنجادا بالمختار من عبد الله بن الزبير الذي توعده بالقتل إن لم يبايعه [١] ، وعلى الرغم من وجود بعض الفروق بين السبأية والكيسانية [٢] فقد كانت الكيسانية فيما يبدو امتدادا للسبأية مع تخفيف بعض العقائد المغالية لتكون أقل غلوا وأكثر قبولا فخففت الكيسانية قول السبأية بالجانب الإلهي في علي بن أبي طالب بالقول بعصمة الإمام وإحاطته بالعلوم كلها وانفراده بتأويل الشريعة ووجوب طاعته وأن طاعتهم له تغني عن التمسك بقواعد الإسلام [٣].

تعرض التشيع للانقسام المذهبي منذ وقت مبكر حتى ليمكننا القول إن فاجعة كربلاء التي كانت بداية انطلاق التشيع المذهبي [٤] كانت أيضا بداية الانقسام ومثار الخلاف بين أشياع البيت العلوي الذي انقسم بعدها إلى ثلاثة أفرع رئيسية : الفرع الحسني والفرع الحسيني ثم فرع محمد بن الحنفية ، وقد اختلفت مسارات الفروع الثلاثة اختلافا ظاهرا فقد غلب على الحسينيين

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٤ ص٩٧

(٢) فان فلوتن : المرجع السابق ص٨١

(٣) نفس المرجع ، نفس الصفحة – والشهرستاني : الملل والنحل ص١٠٩

(٤) شتروتمان : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة شيعة.

الميل إلى المعارضة الظاهرة والثورات العلنية مما عرضهم لانتقام كل من الأمويين والعباسيين من بعدهم بينما انحدرت إمامة الكيسانية فرع محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم عبد الله الذي لم يعقب وزعم العباسيون أنه تنازل عن الإمامة لمحمد بن علي العباسي. أما الفرع الحسيني فقد اهتز بعنف نتيجة فاجعة كربلاء التي فقد فيها أساطينه [١] وكاد أن ينقطع نسله لولا نجاة علي الأصغر زين العابدين بن الحسين من تلك المذبحة الشنيعة التي أوقعها الأمويون بالحسين ومن معه فركن علي زين العابدين إلى الهدوء والسكينة [٢] وعكف طيلة حياته على النسك والعبادة حتى لقب زين العابدين ، وسار ولده محمد بن الباقر على نهجه في الدعة والسكينة والتفرغ لطلب العلم حتى حاز لقب الباقر لبطون العلم لكن أخاه زيد بن علي زين العابدين كان يرى الخروج على الحكم الأموي والثورة على مظالمهم فقبل البعض دعوته وعرفوا بالزيدية ورفضها البعض الآخر فأسماهم زيد بالرافضة [٣].

إنقسم الفرع الحسيني على هذا النحو إلى فرقتين : الزيدية أتباع زيد بن علي والإمامية وهم الذين قالوا بانتقال الإمامة من علي زين العابدين إلى

---

(١) محمد السعيد جمال الدين : دولة الإسماعيلية في إيران ص١٨

(٢) برنارد لويس : أصول الإسماعيلية ص٩٤

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٣ ص٩٤

ولده محمد الباقر ثم منه إلى ولده جعفر الصادق [١] لكن الإمامية ما لبثوا بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ أن انقسموا إلى عدة فرق كان أبعدها صيتا وأكثرها أهمية فرقتا : الإسماعيلية والموسوية وتعرف الإسماعيلية بالسبعية بينما تعرف الموسوية بالإثنا عشرية وهما تتفقان على الأئمة الأوائل من علي بن أبي طالب حتى جعفر الصادق لكنهما يختلفان في المنصوص عليه من أولاد الصادق بعد وفاته فقال الموسوية بإمامة موسى الكاظم بن جعفر وقال الإسماعيلية بإمامة إسماعيل بن جعفر [٢].

ولقد كانت الدولة الفاطمية دولة إسماعيلية وللإسماعيلية – كما أشرنا – مسار خاص يسوقون فيه الإمامة من علي بن أبي طالب حتى تصل إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ثم من إسماعيل إلى بنيه وحفدته من بعده حتى تصل الإمامة إلى عبيد الله المهدي أول أئمة الظهور وأول خلفاء الدولة الفاطمية. وقد وضع الإسماعيلية معايير خاصة برروا بها سوقهم الإمامة في هذا المسار الإسماعيلي ووضعوا لذلك عدة مقولات منها مقولة " النص " بمعنى أن الإمام القائم ينص على الإمام اللاحق حين نقلته أي وفاته ومنها مقولة " الإمامة المستقرة والإمامة المستودعة " بمعنى أن الإمام المستقر هو

---

(١) الشهرستاني : المصدر السابق جـ١ ص١٦٥

(٢) الأشعري : مقالات الإسلاميين ص٢٧ – والشهرستاني : المصدر السابق جـ١ ص١٦٧

صاحب الحق لكن قد يستودع له من يقوم عنه بالإمامة في الظاهر حتى يكون الوقت مناسبا ليسلم المستودع للمستقر وديعته ، وغير ذلك من مقولات يغلب الظن على أنها لم تكن معروفة عند بداية التشيع في القرن الأول الهجري وإنما ظهرت منذ أوائل القرن الرابع الهجري أو أواخر القرن الثالث الهجري على أحسن تقدير [١].

ولكي تسوق الدعاية الإسماعيلية الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق دون غيره من أبناء البيت العلوي عامة وأبناء جعفر الصادق خاصة زعمت أن الإمامة انتقلت من علي إلى الحسن فالحسين وفقا للنص عليهم من رسول الله ﷺ ، بل تذهب الدعاية الإسماعيلية في قولها إلى أبعد من ذلك فيقول الداعي الإسماعيلي عماد الدين إدريس في كتابه عيون الأخبار أن النص على " زين العابدين " كان من قبل الرسول ﷺ أيضا وأخبر به الإمام علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ ولأن النص كان يستلزم حضور المنصوص عليه فقد جعل الداعي إدريس علي زين العابدين يلقى جده علي بن أبي طالب ولما كان المعروف أن علي زين العابدين هو الأصغر الذي كان طفلا صغيرا في حجر النساء يوم فاجعة كربلاء في العاشر من المحرم ٦١ هـ / ٦٨٠ م فهو على ذلك لم يكن قد ولد قبل مقتل جده علي بن أبي

---

(١) أنظر كتابنا : التشيع في بلاد المغرب الإسلامي ص١٦ وما بعدها.

طالب في العشرين من رمضان ٤٠ هـ / ٦٦٠ م ولم يلتق به بما يهدم مقولة النص من أساسها ولما فطن الداعي إدريس لذلك قام بتحريف الثابت تاريخيا وهو أن علي المقتول يوم كربلاء هو علي الأكبر بن الحسين والناجي من القتل هو علي الأصغر فزعم الداعي إدريس بأن عليا المقتول هو علي الأصغر والناجي هو علي الأكبر ولا يبالي الداعي إدريس بتحريف الوقائع التاريخية ليحفظ مقولة النص من السقوط مع أن مقولة النص هذه لم تكن مقبولة عند غير الإمامية بل ينكرها الزيدية ويبطلونها.

تسوق الإمامية الإمامة " بالنص " إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين لكنها بعد وفاة جعفر الصادق تنقسم انقساما واسعا وخطيرا ويعترف الداعي الإسماعيلي عماد الدين إدريس بذلك فيقول : " لما توفي الإمام الصادق تاه كثير من الشيعة في أولاد الصادق واختلفت مقالاتهم في المستحق بعده أن يكون الإمام "[1]. وعلى ذلك تعددت فرق الإمامية بعد جعفر الصادق فعرفت الفرقة التي نادت بإمامة محمد بن جعفر بالمحمدية وعرفت الفرقة التي نادت بإمامة عبد الله الأفطح بن جعفر بالأفطحية وعرفت الفرقة التي نادت بإمامة موسى بن جعفر بالموسوية

---

(١) عيون الأخبار ، مج ٤ ص٣٣٥

والإثنا عشرية [١] ، أما التي نادت بإمامة إسماعيل بن جعفر فهي الفرقة الإسماعيلية أو السبعية [٢] التي أفرزت الدولة الفاطمية.

على الرغم من إجماع المصادر على أن إسماعيل بن جعفر الصادق كان قد توفي في حياة أبيه وأشهد جعفر الصادق الناس على وفاة ابنه إسماعيل مما يعني انقطاع تسلسل الأئمة الذي تعتد به الإسماعيلية فإنها صورت وفاة إسماعيل على أنها غيبة مفتعلة إفتعلها جعفر الصادق للتمويه على العباسيين ليصرف أنظارهم عن ملاحقة ابنه [٣] لكن يبدو أن هذا التبرير لم يكن كافيا فأخذت الروايات الإسماعيلية تقدم تبريرات متناقضة لإيصال الإمامة من جعفر إلى إسماعيل ومن إسماعيل إلى ابنه محمد مع أن محمدا هذا ربما لم يكن له وجود أصلا إذ يرى البعض أن إسماعيل بن جعفر توفي دون أن يعقب.

---

(١) عرفت الموسوية أتباع موسى الكاظم بالإثنا عشرية لأن عدد الأئمة عندهم إثنا عشر إماما من علي بن أبي طالب إلى محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى طفلا في أحد سراديب سامراء.

(٢) عرفت الإسماعيلية بالسبعية لأن عدد الأئمة عندهم سبعة من علي بن أبي طالب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

(٣) جعفر بن منصور اليمن : أسرار النطقاء " من المنتخب لإيفانوف " ص٨٣ – والداعي إدريس : زهر المعاني ص٤٨

وفي سبيل الخروج من هذا المأزق إدعى الكتاب المنسوب إلى عبيد الله المهدي – والذي قيل إنه أرسله إلى اليمن موضحا أسماء الأئمة المستورين – أن صاحب الحق من أولاد جعفر الصادق كان هو عبد الله بن جعفر ولم يكن يعلم ذلك إلا الأبواب والثقات تقية عليه فلما أراد الأئمة من ولد جعفر إحياء دعوة الحق خافوا نفاق المنافقين فتسموا بغير أسمائهم ... فأشاروا بالإمامة إلى عبد الله وسُمي بإسماعيل ودعوا أن المهدي اسمه محمد بن إسماعيل لأنه محمد وهو من ولد عبد الله الذي تسمى بإسماعيل ... فكان كلما قام منهم إمام تسمى بمحمد والإشارة في الدعوة إلى محمد بن إسماعيل والمراد بإسماعيل عبد الله والمراد بمحمد كل من كان في عصره إلى أن يظهر صاحب الظهور وهو محمد فتزول التقية والأمر منتظم بهذه التسمية [١] ، وعلى هذا القول فإن إسماعيل الذي تنسب إليه الإسماعيلية لم يكن في الحقيقة إلا اسما حركيا لعبد الله بن جعفر وأن الإسماعيلية عاشوا طوال تاريخهم يتوهمون وهما كبيرا أنهم أتباع إسماعيل بينما هم في الحقيقة اتباع عبد الله الذي اتخذ اسم أخيه سترا له وتقية.

إذا أخذنا بهذا القول الذي يقول أن عبد الله بن جعفر قد اتخذ من إسماعيل اسما حركيا فإنه ينبغي ملاحظة ما يأتي :

---

(١) الهمداني : في نسب الخلفاء الفاطميين ص ١٠

١ – كان عبد الله هو الشقيق الأوحد لإسماعيل – وفقا للرواية الإسماعيلية – وكانا أكبر إخوتهما سنا لكننا لا نعرف أيهما كان أسن من أخيه فالأفطحية تقول إن عبد الله كان أسن والإسماعيلية ترى أن إسماعيل كان أسن ، وكلاهما يريد إثبات أحقية صاحبه في الإمامة بعد أبيه جعفر .

٢ – يذكر بعض الكتاب أن كلا من عبد الله وإسماعيل لم يعقب [1] ، بينما يذكر البعض الآخر أن عبد الله لم يعقب إلا بنتا واحدة وأن إسماعيل أعقب محمدا لكن محمدا لم يعقب ومعنى ذلك إنقطاع نسب كل من عبد الله وإسماعيل ، فممن إذن ينحدر أئمة الإسماعيلية ؟!

٣ – يذكر كتاب إسماعيلي متقدم يسمى " الترانيب " أن الإمام الحق بعد إسماعيل إنتسب إلى ابن أخيه وهو محمد لشدة تعاظم الفترة وظهور الأضداد [2] متفقا في ذلك جزئيا مع الكتاب المنسوب إلى عبيد الله المهدي، ومعنى ذلك أن الإمام بعد إسماعيل بن جعفر لم يكن ابنه وإنما ابن أحد إخوته فهل هو ابن عبد الله الذي لم يعقب ؟ أم أن هناك عبد الله آخر ؟ ، وإذا كان المنكرون لصحة النسب العبيدي يتهمونهم بأنهم من نسل عبد الله بن ميمون القداح فهل من الممكن أن يكون عبد الله الآخر الذي اتخذ اسم إسماعيل تقية أو اتخذ إسماعيل إسمه تقية هو عبد الله بن ميمون بن القداح ؟!

---

(١) الشهرستاني : المصدر السابق جـ١ ص١٦٥

(٢) كتاب الترانيب : ضمن أخبار القرامطة ص١٣٧

لقد كان عبد الله بن ميمون القداح – وفقا للروايات الإسماعيلية – حجة وبابا لإسماعيل بن جعفر أو لولده محمد بن إسماعيل من بعده أو لكليهما واحدا تلو الآخر وقام بسترهما أو كتمهما تقية عليهما فلم يعرف بإمامتهما إلا قليل من ثقات الدعوة معرفة غير مباشرة عن طريق عبد الله بن ميمون القداح. وكان عبد الله بن ميمون القداح يغير إسم الأئمة سترا عليهم وقد ينتحل لنفسه إسم الإمام كبديل (نوبلير) لمزيد من التقية ، ولذلك كان الإمام محمد بن إسماعيل يعرف أيضا بابن عبد الله بن ميمون القداح مع تأويل الإسم تأويلا إسماعيليا فقالوا هو عبد الله لأنه عبد الله وهو ابن ميمون القداح أي ميمون النقيبة القادح زند الهداية [1]. وهكذا يختلط اسم عبد الله بن جعفر باسم عبد الله بن ميمون القداح اختلاطا يثير الشك ويعطي للمتشككين مبررا للقول بأن الأئمة الإسماعيلية لم يكونوا علويين وإنما كانوا قداحيين من نسل ميمون القداح.

ومهما يكن من أمر فقد استتر أئمة الإسماعيلية منذ محمد بن إسماعيل استتارا كاملا وتنقلوا في الأماكن المجهولة من مكان لآخر حتى افتقدهم الدعاة وخرج كبارهم يبحثون عن الإمام المتخفي حتى توصلوا إليه في سلمية دون سابق معرفة لهم بشخصه وانما عرفوه – كما زعموا –

---

(١) الداعي إدريس : عيون الأخبار سبع ٥ ص ص ١٥٨ – ١٥٩

بصفته وهيئته المدونة في كتب الإسماعيلية على نحو ما ذكر الكاتب الإسماعيلي النيسابوري في كتابه " إستتار الإمام ".

إتخذ الإمام الإسماعيلي المستتر من مدينة سلمية في بلاد الشام مقرا له بعد طول تنقل وتخفي وجعل منها مركزا سريا للدعوة الإسماعيلية ، ولكن الخلاف في حقيقة أشخاص الأئمة لم ينقطع حتى وصلت إلينا عدة قوائم متناقضة لشجرة النسب الذي ينحدر عنه عبيد الله المهدي أول خلفاء الظهور فقد قدم دعاة الإسماعيلية أربعة قوائم متباينة وقدم المقريزي قائمة خامسة لا تقل عنهم تباينا فالكتاب المنسوب إلى عبيد الله المهدي ينسب الأئمة الإسماعيلية إلى عبد الله بن جعفر الذي اتخذ لنفسه اسما حركيا هو إسماعيل وكتاب التراتيب ينسبهم إلى أخ لإسماعيل بن جعفر دون تحديد لاسمه بينما تنسبهم المصادر الإسماعيلية الأخرى كالداعي إدريس وخطاب بن الحسن إلى إسماعيل بن جعفر عن طريق عبد الله بن محمد بن إسماعيل بينما ينسبهم المقريزي إلى إسماعيل عن طريق جعفر بن محمد بن إسماعيل ولا تتفق المصادر الإسماعيلية بشأن مكان عبيد الله المهدي من شجرة نسب الأئمة الإسماعيلية فهي تارة تدخله فيها كإمام مستقر أو مستودع وتارة أخرى تخرجه منها وتجعله مجرد حجة للإمام الإسماعيلي ومن ثم كان نسب عبيد الله المهدي غير صريح ولا دقيق بل كان مشكوكا فيه لا سيما وأن الخلفاء

الفاطميين فى دور الظهور إبان قيام دولتهم لم يقدموا لأنفسهم نسبا واحدا صريحا يشفى الغليل ويقطع الشك فى صحة انتسابهم للبيت العلوى .

بدأت الدعوة الإسماعيلية كحركة سرية مستفيدة فى ذلك من تجارب العمل السرى السابق عليها ، كالدعوة العباسية فى دور سترها واتخذت الدعوة الإسماعيلية للقيام بشئونها جهازا هرميا منظما دقيقا يأتى على رأسه الإمام ويليه الحجة أو الباب الذى كان هو السبيل إلى معرفة الإمام ، وكان الحجج أو الأبواب من القداحين أى من أبناء ميمون القداح بينما كان الأئمة – كما هو مفترض – من الفاطميين ، لكن التقية والستر واستخدام الأسماء الحركية والشخوص البديلة (دوبلير) كانت كثيرا ما تؤدى إلى الخلط حتى عز أحيانا معرفة من هو فاطمى ومن هو قداحى ، ويبدو أن الحجة أو الباب فى دور الستر هو الذى أصبح فى دور الظهور داعى الدعاة الذى كان يرأس جهاز الدعوة ويعاونه اثنا عشر نقيبا بعدد جزر الدعوة الاثنى عشر التى قسم الإسماعيلية العالم الإسلامى إليها .

وكانت اليمن من أهم جزر الدعوة الإسماعيلية خاصة بعدما نجح الداعي ابن حوشب في إقامة دعوة إسماعيلية في اليمن ولذلك يعد القاضي النعمان بن حيون المغربي دعوة ابن حوشب ودولته في اليمن أصل دعوة أبي عبد الله الشيعي في المغرب فيقول :" إليها أرسل الداعي ومن اليمن نفذ إلى المغرب وعن صاحب دعوته أخذ وبآدابه تأدب "[1] .

ويتفق المؤرخون على أن ابن حوشب هو داعي اليمن من قبل الإسماعيلية لكنهم يختلفون على كامل اسمه فهو عند البعض مثل ابن الأثير يدعى رستم بن الحسين بن حوشب[2] لكن الرواية الإسماعيلية الرسمية لدى القاضي النعمان ومن ينقل عنه تدعوه أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب[3] وقد أرسل ابن حوشب إلى اليمن صحبة شيعي يمني يدعى أبو الحسن على بن الفضل الجيشاني[4] من قبل إمام الوقت الإسماعيلي [5] فخرج

---

[1] افتتاح الدعوة ص ٢ .

[2] ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١٢٥ ، والمقريزي : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤٠ .

[3] افتتاح الدعوة ص ٢ ، والداعي إدريس : عيون الأخبار سبع ٤ ص ٣٩٦ – ٣٩٧ ، وجدير بالذكر أن كاتبا مثل مصطفى غالب ذي الميول الإسماعيلية يأخذ بالتسمية التي ذكرها ابن الأثير (تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ١٥٢) .

[4] القاضي النعمان : المصدر السابق ص ٩ ، والداعي إدريس المصدر السابق سبع ٤ ص ٣٩٩ – لكن ابن الأثير (جـ ٦ ص ١٢٦) يدعوه محمد بن الفضل ، ويدعوه كذلك ابن شداد الصنهاجي صاحب كتاب (الجمع والبيان في أخبار القيروان) فيما نقله عنه المقريزي (المقفى الكبير ، جـ ٤ ص ٥٣٦) .

[5] لم يذكر القاضي النعمان اسم إمام الوقت الذي أرسل ابن حوشب إلى اليمن بينما ذكر الداعي إدريس (المصدر السابق سبع ٤ ص ٣٩٥) أن الإمام الإسماعيلي الذي اتصل به ابن حوشب هو الحسين الزكي أحمد التقي بن عبد الله الرضي بن محمد المكتوم بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، ولكن الذي أرسل ابن حوشب إلى اليمن في قول الداعي إدريس (عيون الأخبار سبع ٥ ص ٨٩) هو أبو علي الحكيم محمد بن أحمد المكنى بسعيد الخير ، وهو أخو الإمام الحسين الزكي بن أحمد ، لكن ابن خلدون (العبر جـ ٤

ابن حوشب من مكة إلى اليمن مع حجاج اليمن العائدون من موسم ٢٦٧ هـ فوصل ابن حوشب إلى اليمن ومعه على بن الفضل أول سنة ٢٦٨ هـ فاستتر بالدعوة نحو عامين ثم أظهرها سنة ٢٧٠ هـ [١]

وتزوج ابن حوشب باليمن من ابنة أحمد بن عبد الله بن خليع وهو أحد الشيعة اليمنية ، وكان قد توفى فى حبس بنى يعفر قبيل قدوم ابن حوشب إلى اليمن بقليل [٢] وقوى مركز ابن حوشب فابتنى حصنا بجبل لاعة وجيش الجيوش واستولى على صنعاء من بنى يعفر " وفرق الدعاة فى نواحى اليمن وإلى سائر البلدان ، إلى اليمامة والبحرين والسند والهند وناحية مصر والمغرب " [٣] وكان داعيته إلى السند الهيثم بن خليع ابن عم زوجته فستجاب له كثير من أهلها [٤] . أما داعيته إلى المغرب فهو أبو عبد الله الشيعى ، وكان ما حققه ابن حوشب من إنجازات مدعاة إلى أن يلقبه الإسماعيلية (منصور اليمن) [٥] .

٣٦) يذكر أن الذى أرسل ابن حوشب إلى اليمن هو محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم ، بينما يجعله ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٢٥) أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح .

[١] القاضى النعمان : افتتاح ص ١٥ .

[٢] نفس المصدر ، ص ١٦ والداعى إدريس : عيون الأخبار ، سبع ٥ ص ٣٧ .

[٣] القاضى النعمان : افتتاح ص ١٨ ، وابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ٣٧ -٣٨ .

[٤] القاضى النعمان : افتتاح ، ص ١٧ .

[٥] نفس المصدر ص ٣ ، والمقريزى : اتعاظ ، جـ ١ ص ٥٩ .

قيام الدولة الفاطمية في المغرب

كانت بلاد المغرب محط اهتمام الشيعة منذ أواخر النصف الأول من القرن الثاني الهجري لبعدها عن متناول يد الخلافة العباسية وزاد تطلعهم إليها كلما فشلت ثوراتهم في المشرق الإسلامي ، فقد كان طريق الشيعة إلى المغرب – كغيرهم من معارضي الخلافة العباسية – يمر على أشلاء تجاربهم الفاشلة في الثورة على الخلافة في الشرق ، لكن هذه التجارب الفاشلة أكسبتهم خبرات واسعة أفادوا منها كل فائدة في الميدان المغربي فنجحوا في أن يحققوا فيه ما عجزوا عن تحقيقه في المشرق الإسلامي.

ولقد كانت أذهان المغاربة مهيأة للاستماع إلى الدعوة لآل البيت منذ أن تسلل العلويون إلى بلاد المغرب بعد قيام الخلافة العباسية ونجح الأدارسة في إقامة دولة علوية في المغرب الأقصى ومن الملاحظ أن غالبية العلويين النازحين إلى بلاد المغرب قبل الدعوة الشيعية كانوا من الحسنيين ونادرا ما تجد فيهم حسينيا وذلك لأن الفرع الحسني كان هو الأميل إلى الثورات المعلنة مما عرضه لانتقام العباسيين فكان الحسنيون يفرون إلى المغرب بينما لجأ الفرع الحسيني إلى الدعة والسكون وعمل على تحقيق طموحه السياسي من خلال الستر والتقية ، ويزعم نفر من المؤرخين أن الدولة الإدريسية

كانت شيعية زيدية لكننا لا نجد ما يؤيد هذا الزعم وإنما كانــت دولــة الإدارسية سنية مالكية لكن ذلك لا يمنع القول بأن قيام دولة الأدارسة قد هيأ أذهان البربر للاستماع إلى الدعوة لآل البيت ، وهــذه الــدعوة لآل البيت هى التي تخفى وراءها دعاة الشيعة فى البداية ونادى بها أبو عبد الله الشيعى – داعية العبيديين –أول قدومه إلى المغرب ، إذا التزم فــى أول دعوته بإظهار تعظيم آل البيت دون التصريح بحقيقة دعوته الشيعية

وإذا كان دعاة الشيعة قد استطوا فى البداية جواد الــدعوة إلــى آل البيت فقد كانوا لا يتوانون عن إظهار معتقداتهم الشيعية كلمــا تهيــأت الظروف لذلك ويبدو أن نواحى قسطيلية وبلاد الجريد من إفريقية كانت منطقة التشيع الأولى فى بلاد المغرب قبل زمن العبيديين وقبــل قــدوم داعيتهم أبى عبد الله الشيعى .

ويرجع دخول التشيع إلى تلك النواحى إلى حوالى منتصف القــرن الثانى الهجرى وفقا للرواية الإسماعيلية الرسمية التي ذكر فيها القاضى النعمان بن حيون المغربى أنه " قدم إلى المغــرب فــى ســنة خمســة وأربعين ومائة رجلان من المشرق قيل إن أبا عبد الله جعفر (الصادق) بن محمد (الباقر) بعثهما وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة وينشرا فضلهم . . أمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر ثــم يفترقــان فينزل كل واحد منهما ناحية "[١]. وعبارة القاضى النعمــان لا تجــزم بإيفاد هذين الداعيين من قبل جعفر الصادق بينما يذكر ابن الأثير نقــلا عن الأمير عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس الزيــرى

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٧٠ . وقد ذكر القاضي [illegible] في [illegible] عيون الأخبار ، السبع ٤ ص ٣٢٤) هذه الرواية ، لكن النص الذي حققه ونشره مصطفى غالب فيه أخطاء عديدة في العبارة وفي أسماء الصحابة .

أن داعي اليمن ابن حوشب " أرسل إلى من بالكوفة من ولـد عبـد الله القداح هدايا عظيمة ، وكانوا أنفذوا إلى المغرب رجلين : أحدهما يعرف بالحلواني والآخر يعرف بأبي سفيان " [١] وتحتمل عبارة ابن الأثير أحد وجهين ، فقد تعني أن الداعيين أرسلهما إلى المغرب شيعة اليمن وابـن حوشب ، أو قد تعني أنه أرسلهما من كان بالكوفة مـن ولـد عبـد الله القداح ، وهذا يعني أنهما لم يرسلا من قبل جعفر الصادق في التـاريخ الذي حدده القاضي النعمان الذي يضيف أن أبا سفيان نـزل مرماجنـة بموضع يقال له تالا فابتنى مسجدا وتزوج امرأة واشترى أمـة وعبـدا وكان له من الفضل والعبادة والذكر في الناحية ما قد اشتهر به ذكره ، وكان أهل تلك النواحي يأتونه ويسمعون فضائل أهل البيت منه ، فمـن قبله تشيع من تشيع من أهل مرماجنة وهي دار شيعة وهو كان سـبب تشيعهم وكذلك أهل الأربس ، ويقال إنه كان أيضا سبب تشيع أهل نفطة وذلك أن قوما منهم كانوا يختلفون بالتمر إلى تلك الناحيـة ويشـترون القمح منها وكانوا يأتونه ويستمعون منـه ويأخـذون عنـه [٢] ونـزل الحلواني موضعا يقال له الناظور بناحية سوجمار فبنى مسجدا وتـزوج امرأة واشترى عبدا وأمة وكان في العبادة والفضل والعلم ، علما فـي موضعه ، فاشتهر ذكره وضرب الناس من القبائل إليه وتشيع كثير منهم على يده من كتامة ونفزة وسماته ، فكان بين دخولهما المغرب – وهما صاحبا الحرث – وبين ودخول صاحب البذر – وهـو أبـو عبـد الله

---

[١] الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ١٢٦ .

[٢] افتتاح الدعوة ص ٢٧. مرماجنة : مدينة إفريقية قديمة قريبة من الأربس منهـا إلـى مجانة الطواحين مرحلة كبيرة وكانت غنية بالقمح وكانت لها حصن على طريق طنـة مدينة الزاب (الإدريسي نزهة المشتاق جـ ١ - ٢٩٣ – ٢٩٤) .

الشيعي – مائة وخمس وثلاثون سنة فمات أبو سفيان بمرماجنة وعاش الحلواني بعده دهرا طويلا حتى لحقه من لحقع أبــا عبــد الله الشــيعي وخلف ابنة له يقال لها أم موسى ومات بالناظور من أرض سوجمار [١]

ويبدو أن اسمي أبي سفيان والحلواني كانا اسمان حركيان كما هــو معتاد في مثل هذه التحركات الشيعية ، وقد كانت النواحي التي نزل فيها الداعيان أبو سفيان والحلواني مختارة بدقة وعناية بين بلاد الجريــد [٢] والزاب [٣] فهي من ناحية بعيدة عن متناول أيدي ولاة إفريقية في أرض يشق على الجند الوصول إليها وعلى مشارف المفازة التي يمكن الفرار إليها والاحتماء بها إذا تعرض الدعاة للخطر [٤] ، ومن ناحية أخرى تقع على هامش أرض كتامة التي كانت فيما بعد مقصد أبي عبد الله الشيعي

---

[١] الناظور : ذكر الإدريسي (نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٦٢) أنه حصن ، ويفهــم من صياغة عبارته أنه من إقليم الزاب أو مجاورا له في منطقة ملينة بمواضــع أســواق تنسب أحيانا إلى أيام انعقادها مثل سوق الأحد على مقربة من بجاية وسوق الخميس الذي يعقد في حصن على أعلى جبل قريب من الناظور وسوق الاثنين في حصن أيضا ومن ثم قرأ البعض سوجمار التي ذكرها القاضي النعمان على أنها سوق جمار لاسيما وأنها كتبت عند ابن خلدون سوق جمار وكانت عند المقريزي في الاتعاظ سوق حماد وكتبهــا ابــن الأثير سوق حمار .

[٢] بلاد الجريد : هي نواحي قسطيلية التي تضم عدة مدن منها تــوزر والحمــة ونفطــة وسميت بلاد الجريد لكثرة النخل فيها ويراها البكري (جـ ٢ ص ٨٠٧) أكثــر بــلاد إفريقية تمرا .

[٣] الزاب : يقول عنه ابن عبد المنعم الحميري (الروض المعطار ص ٢٨١) : " على أطراف الصحراء في سمت البلاد الجريدية من عمل إفريقية وهو مثلها في حر هوائهــا وكثرة نخلها وهو مدن كثيرة . . . المسيلة وتفاوس وطبنة وبسكرة وتهودة وغيرها " .

[٤] ابن عبد المنعم الحميري : المصدر السابق ، ص ٥٧٨ ، ولعل ياقوت قد اختلط عليه حين ذكر أن أهلها شراة أباضية ووهبية متمردون .

، وقد كثر التشيع في هذه النواحي خصوصا في نفطة التي كانت تسمى الكوفة الصغرى [١] وإليها ينتسب كثير من الشيعة الذين أخلصوا في خدمة العبيديين مثل محمد بن عمران النفطي الذي ولاه عبيد الله المهدي – أول خلفاء الدولة الفاطمية – قضاء مدينة ميلة [٢] .

ولعل هذا يدل على وجود خطة إسماعيلية محكمة للتسلل إلى بلاد المغرب فكان من الطبيعي أن تعتبر الرواية الإسماعيلية الداعيين أبي سفيان والحلواني خطوة على طريق الدعوة الإسماعيلية في إفريقية وتعدهما صاحبي الحرث اللذين مهدا لصاحب البذر وهو الداعي أبي عبد الله الشيعي الذي مهد للمهدي أول خلفاء الفاطميين في المغرب وتتحقق بذلك المراحل الثلاث في الجهود الإسماعيلية لإقامة الدولة الفاطمية : الحرث والبذر والحصد [٣] .

لكن بعض الدارسين يرى أن أبا سفيان والحلواني لم يدعوا إلى دعوة إسماعيلية [٤] وإنما كانا يدعوان إلى الإمام الرضا من آل محمد ويبشران بقرب ظهور المهدي المنتظر [٥] ومن ثم عرف المغاربة – فيما يبدو – فكرة المهدي المنتظر التي لاكتها الألسنة في المشرق ثم انتقلت إلى المغرب وجرت على ألسنة بعض فقهاء المغاربة مثل قاضي إفريقية وفقيهها عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري الذي تولى على

---

[١] ابن عبد المنعم الحميري : المصدر السابق ص ٥٧٨ .

[٢] ميلة : هي من غرر مدن الزاب ، مدينة أزلية بها آثار للأول ، حسنة كثيرة الأشجار (البكري جـ ٢ ص ٧٢٩ ، وابن عبد المنعم الحميري ص ٥٦٩) .

[٣] أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ص ٤٦ .

[٤] محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص ٦٣٤ .

[٥] سهيل زكار : الفكر الإسماعيلي ، ص ٣٧ .

قضاء إفريقية من قبل أبي جعفر المنصور وتوفي سنة ١٦١ هـ في ولاية يزيد بن حاتم المهلبي [١] وقد يكون صحيحا أن دعوة أبي سفيان والحلواني لم تكن إسماعيلية إذا كانا قد توجها إلى المغرب في حياة جعفر الصادق قبل أن تكون لابنه إسماعيل دعوة تنسب إليه وسواء كانت دعوة أبي سفيان والحلواني إسماعيلية أو إلى الرضا من آل محمد فقد حرثا الأرض المغربية ومهداها لصاحب البذر وهو أبو عبد الله الشيعي .

* أبو عبد الله الشيعي :

هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الكوفي المشهور بأبي عبد الله الشيعي ، كان عراقيا كوفيا وإن اشتهر في بلاد المغرب باسم الصنعاني لقدومه إليها من صنعاء ، وعرف بعدة ألقاب تدل على شهرته وتنوع نشاطه من ناحية ومن ناحية أخرى تدل على أحد أساليب الدعوة الإسماعيلية في التخفي حيث كان الدعاة يتخذون لأنفسهم أكثر من لقب ومن ثم كان أبو عبد الله الشيعي يلقب بالمحتسب لاشتغاله بالحسبة في البصرة [٢] ويلقب بالمعلم لأنه كان يعلم مذهب الإمامية [٣] ويلقب

---

[١] المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ص ١٥٤ .

[٢] ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٣.

[٣] نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٣٨ ،

قيل إنه كان يعلم مذهب الإمامية لأنه كان في الأصل اثنا عشريا ثم تحول للإسماعيلية على نحو ما فعل ابن حوشب ويبدو أن الإسماعيلية كانوا يتعقبون رجال الاثنا عشرية ويفتنونهم عن مذهبهم ويستقطبونهم للتحول إلى المذهب الإسماعيلي .

أيضا بالأهوازى لأنه ولد فى الأهواز وبالمشرقى صاحب البغلة الشهباء أو البلقاء [١] . وكان أبو عبد الله الشيعى فى أول تشيعه إماميـا اثنـا عشريا لكنه تحول إلى الإسماعيلية بعد أن أصبحت الاثنا عشرية بدون إمام بعد تخفى محمد بن الحسن العسكرى فى سرداب سامراء عام ٢٥٥ هـ – ٨٦٩ م ، وأصبح أبو عبد الله الشيعى مـن ذوى المكانـة فـى الدعوة الإسماعيلية فأرسله الإمام الإسماعيلى [٢] إلى أبى القاسم الحسن بن فرح بن حوشب المعروف بمنصور اليمن ليتعلم منه كيفية النجـاح فى الدعوة وقيل له امتثل سيرته وانظر إلى مخارج أعمالـه وأفعالـه واحتذها وامتثلها واعمل عليها [٣] فقضى أبو عبد الله الشيعى فى كنـف ابن حوشب باليمن قرابة عام حتى وعى التجربة وتأهل عمليا لمباشـرة الدعوة فخرج مع حجيج اليمن إلى مكة يصحبه رجل يمنى يدعى عبـد الله بن أبى الملاحف ، فقد كان من أسـاليب الـدعوة الإسـماعيلية أن يصحب الداعى الأصلى داعيا احتياطيا أو بديلا حتى إذا ألم به حـدث

---

[١] موسى لقبال : المرجع السابق ص ٢٣٢ .

[٢] لم يذكر القاضى النعمان فى افتتاح الدعوة ولا جعفر الحاجب فى سيرته اسـم الإمـام الإسماعيلى الذى أرسل أبا عبد الله الشيعى إلى اليمن بينما يختلف فيه كتـاب إسـماعيلية آخرون فيرى خطاب بن الحسن أنه الإمام على بن أحمد (غاية المواليد ص ٣٦) ويفهم من الداعى إدريس (عيون الأخبار سبع ٤ ص ٢-٤) أنه الحسين بن أحمد ويذكر فى موضع آخر المستكفى (سبع ٥ ص ٨٩) أن الحسين بن أحمد المستكفى حين موته فـى سلمية أخاه محمد بن أحمد لابنه [illegible] وأن محمد بن أحمد المكنى بسعيد الخير هو الذى أنفذ ابن حوشب إلى اليمن وبالتالى يكون هو الذى أنفذ أبا عبد الله الشيعى إلى اليمن . لكن ابن خلدون يرى أنه محمد الحبيب (العبر جـ ٤ ص ٣٢)

[٣] القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ص ٣٩ .

يكون معه من يخلفه إلى أن يأتى أمر الإمام [١] وقد استمر عبد الله بـن أبى الملاحف بصحبة أبى عبد الله الشيعى حتى وصل معه إلـى بـلاد كتامة بالمغرب ثم أعيد إلى اليمن وقيل فى سبب ذلك، أن أم عبد الله بن أبى الملاحف " فقدت عقلها لما فقدته وخولطت فيه فرق لها أبو القاسـم وبعث إلى أبى عبد الله رجلا يقال له ابراهيم بن إسحاق الزبيدى مـن أهل اليمن ليكون معه مكان ابن أبى الملاحف " [٢] وقد عرف إبـراهيم الزبيدى هذا بالهوارى لأن أبا عبد الله الشيعى سئل عنه أول قدومه إليه فقال هوارى فلزمه الاسم وعرف أيضا بالسيد الصغير لأنه يساعد السيد الكبير أبا عبد الله الشيعى [٣] .

وإذا كان يذكر القاضى النعمان لم يذكر صراحة اسم من وجه أبـا عبد الله الشيعى إلى المغرب وإنما يذكر أنه قيل له " اذهب حيث شـئت فادع ، وقيل، بل حد له المغرب وأرسل إلى بلـد كتامـة وهـذا أثبـت الأمرين " [٤] وينقل الداعى إدريس عبارة القاضى النعمان بغير تـدقيق فينص على أن الإمام هو الذى وجه أبا عبد الله الشيعى إلـى المغـرب فيذكر أنه " حد له الإمام المغرب وأرسله إلى بلد كتامة " [٥] ولا يـذكر اسم الإمام الذى يشير إليه لكنه يذكر لاحقا أن الذى أرسله ابن حوشـب إلى اليمن هو أبو على الحكيم محمد بن أحمد الملقب سعيد الخير ولـم

---

[١] القاضى النعمان : افتتاح ص ٣١ . والداعى إدريس : عيون الأخبار سبع ٥ ص .

[٢] القاضى النعمان : افتتاح ص ٣٢ ، والداعى إدريس :عيون الأخبار سبع ٥ ص ٤٥ .

[٣] القاضى النعمان : افتتاح ص ٣٢ .

[٤] نفس المصدر : ص ٣١ .

[٥] عيون الأخبار ، سبع ٤ ص ٤٠٢. ولعل المحقق هو الذى تصرف فى النص ليكون له هذا المعنى .

يكن إماما بل وصيا على الإمام المهدى بعد وفاة أبيه الإمام الحسين بن أحمد [١] ومن ثم يكون سعيد الخير هو المشار إليه بأنه جد لأبى عبد الله الشيعى وأرسله إلى بلد كتامة . لكن ابن الأثير يذهب إلى أن ابن حوشب هو الذى أرسل أبا عبد الله الشيعى إلى المغرب قائلا له : " إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك فخرج أبو عبد الله إلى مكة " [٢] ، بينما ذهب صاحب كتاب الاستبصار إلى أن الذى وجه أبا عبد الله الشيعى هو الإمام محمد بن إسماعيل [٣] وفى هذا تجاوز بعيد لأن محمد بن إسماعيل يسبق وقت تسيير أبى عبد الله الشيعى إلى المغرب بزمن طويل ، وحقيقة الأمر أن ابن حوشب هو الذى وجه أبا عبد الله الشيعى إلى المغرب والرواية الإسماعيلية تشير إلى ذلك وإن لم تصرح به .

اتصل أبو عبد الله الشيعى فى مكة بحجيج المغرب والتقى بمنى بجماعة من كتامة وكان فيهم على زعم الرواية الإسماعيلية رجل ممن تأثروا بدعوة أبى سفيان والحلوانى مما يدل على أن الكتاميين كانوا مستهدفين من قبل الداعى الإسماعيلى وأن عينه كانت عليهم دون سواهم فاتصل بهم فى منى وبادلهم الحديث فأعجبوا به وبحديثه فلما آن أوان الرحيل اصطحبوه فى رحلته التى أعلن أنها إلى مصر وزاد تعلقهم به فى الطريق حتى إذا وصل الركب إلى مصر سألوه عما يدعوه إلى المقام بها فأعلن أنه يطلب فيها أن

---

[١] عيون الأخبار ، سبع ٥ ص ٨٩ .

[٢] الكامل ، جـ ٦ ص ١٢٧ . ويأخذ مصطفى غالب (تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ١٥٦) وهو إسماعيلى بقول ابن الأثير دون تصريح بذلك

[٣] الاستبصار : ص ٢٠٣ .

يكون معلما فألحوا عليه أن يصحبهم إلى بلدهـم ويمـارس فيـها مهنتـه فاستجاب لهم بعد تظاهر بالممانعة وسار معهم عبر طريق طرابلـس إلـى قسطيلية ومنها إلى سوجمار ثم إلى بلاد كتامة وعبر إلى الناحية الأخرى من الجبل البعيدة عن سلطة الأغالبة وكان عبوره من ممر جبلي أطلق عليه اسم فج الأخيار معلنا للكتاميين بذلك أنهم هم الأخيار المنسوب إليهم هـذا الفـج ليلهب حماسهم ويستميل إليه أفئدتهم ، ثم نزل بموضع يسميه القاضي النعمان ايكجان وأقام في حماية بني سكتان من كتامة واتسعت إقامته في ايكجان فـي بدايتها بالهدوء التام الذي مكنه من الاشتغال بالدعوة الشيعية في سرية وستر لكن بعض شيوخ القبائل خافوا منه على زعامتهم فتحالفوا ضده فانتقل إلـى موضع يسمى تازروت عند بني غشـمان واتخـذ منـها مركـزا للدعـوة الإسماعيلية ودار هجرة لأتباعه في بلاد المغرب [١].

يزعم بعض الباحثين أن مرحلة ايكجان كانت تشبه الدور المكي من الدعوة المحمدية وأن مرحلة تازروت كانت تشبه الدور المدني منها [٢] بينما يرى البعض الآخر أن مرحلة ايكجان كانت تمثل دور الستر بينمـا كـانت مرحلة تازروت تمثل دور الظهور [٣] وقد كشف أبو عبد الله الشـيعي فـي

---

(١) القاضي النعمان : المصدر السابق ص٧٩

(٢) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ص٦٥٦

(٣) موسى لقبال : المرجع السابق ص٢٥٦

تازروت فضلا عن هويته الشيعية ومذهبه الإسماعيلي بعد أن تهيأت له القدرة على مواجهة أعدائه ومخالفيه.

نظم أبو عبد الله الشيعي الدعوة الإسماعيلية في بلاد كتامة تنظيما دقيقا فابتدأ فيها بالسرية وتدرج بإظهار عقائده حتى لا يصطدم بها المغاربة واستخدم العبارات الطنانة التي تستميل القلوب وتستهويها مثل تسمية الفج الذي مر منه بفج الأخيار قائلا للكتاميين إن الأخيار قوم اشتق اسمهم من الكتمان فهم كتامة [1] وتسمية تازروت بدار الهجرة تشبيها لها بهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وتشبيها لأتباعه من أهلها بالأنصار والوافدين عليه فيها بالمهاجرين إشارة إلى أنه سينتصر مثلما انتصر الرسول ﷺ ، ولقب أتباعه بالمؤمنين ونظمهم وفقا للنظام الدعاي الإسماعيلي فجعل قبائل كتامة سبعة أقسام وجعل لكل قسم منها (سبع) عسكرا من القادرين على الحرب ، إذ كانت جماعة المؤمنين بالدعوة الإسماعيلية تنقسم إلى قسمين : من لا يقدرون على الحرب وهم ضعفاء المؤمنين ، والأقوياء القادرون على الحرب وهم الذين يتكون منهم عسكر كل سبع ، وهم ينقسمون إلى ثلاث مراتب : أولهم الأولياء الذين أسكنهم الداعي الشيعي حول مقره في تازروت يعلوهم الدعاة ثم المشايخ وهم مقدموا العسكر في كل سبع ، وروعي في اختيارهم

---

(١) المقريزي : المقفى الكبير ص٢٧

والقاضي النعمان : المصدر السابق ص٤٨

الإخلاص للدعوة الإسماعيلية قبل اعتبار السن وكانوا يرأسهم شيخ الشيوخ وكان يتولى هذه المرتبة هارون بن يونس المسالتي [1] ومراعاة منه لميل البربر إلى المساواة جعل أبو عبد الله الشيعي من جميع أتباعه إخوانا متساوين ، فكل مستجيب للدعوة الإسماعيلية هو أخ بين الإخوان وما الداعي أبو عبد الله نفسه إلا بمثابة الأخ الأكبر لهم ، وكان الخطاب بينهم بكلمة يا أخانا والتحية بينهم عند اللقاء بالمعانقة [2].

كان من الطبيعي أن يعمل أبو عبد الله الشيعي على نشر دعوته في كتامة أولا وأن يضمن طاعتها له ليتخذ منها قوة لبسط سلطانه على إفريقية وغيرها من نواحي المغرب ، ويمكن تسمية جهوده في كتامة بمرحلة العمل الداخلي التي شملت مرحلتي الدعوة السرية في ايكجان ومرحلة الظهور في تازروت وقد أسفرت هذه المرحلة عن انصياع معظم الكتاميين لأبي عبد الله الشيعي ودخولهم في طاعته ولم يغفل الداعي الإسماعيلي عن مراقبتهم ومحاسبتهم ومعاقبة المذنبين منهم فاستقامت أحوالهم وخضعت له كتامة [3] فأصبح مهيأ للمرحلة التالية خارج أرض كتامة وهي الاستيلاء على إفريقية من يد الأغالبة.

---

(١) القاضي النعمان : المصدر السابق ص١٢٤

(٢) موسى لقبال : المرجع السابق ص٢٤٣

(٣) القاضي النعمان : المصدر السابق ص١٢٠ – ١٢٢

كان الأغالبة حكام إفريقية يشكلون العقبة الرئيسية في طريق أبـــي عبد الله الشيعي وقد فطنوا بعد غفلة لخطورة أبي عبد الله الشيعي فأعد الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد جيشا بقيادة ابنه محمد المعروف بأبي حوال تمكــن من هزيمة أبي عبد الله الشيعي عند بلدة ملوسة فانسحب الداعي الشيعي إلــى تازروت ومنها إلى ايكجان الأكثر حصانة واتخذ منها قاعدة له مرة أخـــرى فدخل أبو حوال تازروت وخربها وهدم قصر أبي عبد الله الشيعي الذي بنـــاه بها [1] فصارت إيكجان دار هجرة ثانية بعد خراب تازروت واهتم الداعـــي الشيعي بامتصاص الآثار النفسية لهزيمـــة ملوسة وجلـــس بنفســـه لأتباعـــه يحدثهم ويشرح لهم حتى أعاد الثقة إلى أنفسهم [2].

تتبع أبو عبد الله الشيعي أخبار الأغالبة إنتظـــارا لفرصــــة مواتيـــة للانقضاض عليهم حتى جاءهم الخبر بموت الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمـــد وولاية ابنه أبي العباس عبد الله الذي حاول التقرب من العامة واســـترضاء رعيته باتخاذ مظهر الزهد ومشاورة العلماء مما أقلق الداعي الشـــيعي فـــي كتامة ، لكن الداعي الشيعي لم يطل قلقه إذ سرعان ما جاءه الخبر بمقتل أبي العباس عبد الله على يد ابنه زيادة الله الثالث الذي كان آخر أمراء الأغالبة.

---

(١) القاضي النعمان : المصدر السابق ص ص١٣٨ – ١٤٠
والمقريزي : اتعاظ الحنفا جـــ١ ص٥٨

(٢) القاضي النعمان : المصدر السابق ص١٤٦

إبتدأ زيادة الله الثالث إمارته بداية سيئة ليس فقط لوصوله إليها على جسد أبيه المقتول لكنه أيضا قتل أخاه أبا حوال قائد الجيش الأغلبي مما أضعف الأغالبة في مواجهة الشيعة حتى قال المقريزي عن مقتل أبي حوال : " قتل فانتشرت جنود أبي عبد الله في البلاد "[1] ، ولم يستطع زيادة الله الثالث استنفار أهل إفريقية ضد الداعي الشيعي لعدم ثقتهم في آخر أمراء الأغالبة لعبثه واستهتاره وفساده واضطر زيادة الله الثالث أن يتحول عن حاضرته في رقادة إلى مدينة تونس ليبتعد عن الخطر الشيعي ، لكن أبا عبد الله الشيعي لم يمهله فهزم جيشا أغلبيا بقيادة إبراهيم بن حبشي عند كبونة مما أنعش آمال الداعي الشيعي ورفع من الروح المعنوية لأتباعه ثم كانت الجولة الحاسمة بين أبي عبد الله الشيعي وجيشه من كتامة وزيادة الله الثالث آخر أمراء الغالبة عند الأربس عام ٢٩٦هـ فانهزم الجيش الأغلبي هزيمة ساحقة وأسقط في يد زيادة الله الثالث ففر من إفريقية تاركا إياها لتسقط في يد الداعي الشيعي الذي استولى على رقادة والقيروان ، ولم يجد أهل القيروان وشيوخها بدا من الانصياع للداعي الشيعي ومداراته وسألوه الأمان فأمنهم وأمرهم بالعودة إلى قيروانهم بينما دخل هو رقادة.

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٥٩

أقدم أبو عبد الله الشيعي على عدة إجراءات إدارية ومذهبية [1] أرسى بها دعائم الدولة الشيعية الناشئة في إفريقية من ناحية ومن ناحية أخرى أرسل إلى الإمام الإسماعيلي في سلمية يخبره بما تحقق على يديه من نصر ويسأله القدوم إلى إفريقية ، وكان الإمام الإسماعيلي وقتذاك يعيش مستترا في سلمية ببلاد الشام مخالطا قوما من الهاشميين من ولد العباس مظهرا لهم أنه عباسي الميول والهوى [2] وملاطفا لعمال سلمية من قبل الدولة العباسية بالهدايا والولائم كسبا لودهم وإبعادا لشكوكهم.

۞ رحلة المهدي إلى المغرب :

لا تتفق المصادر الإسماعيلية على شخص ولا اسم الإمام الإسماعيلي الذي كان مستترا في سلمية وقت نجاح الداعي أبو عبد الله الشيعي في إفريقية وأرسل إليه الداعي يطلب منه القدوم إلى إفريقية لكن بعض هذه المصادر تميل إلى القول بأن الإمام الإسماعيلي الذي خرج من سلمية فرارا

---

(١) كان من هذه الإجراءات الإدارية إعلان العفو العام والأمان التام لأهل القيروان ورقادة ولمن بقي بإفريقية من الأغالبة إلا من ثار منهم عليه ، وأصدر عملة خاصة سحبت العملة السودية وأحل تدريجيا العناصر الشيعية محل العناصر السنية في الإدارة وولى على القضاء قاضيا شيعيا هو محمد بن عمر المروزي ، وعين خطباء الجوامع من الشيعة وأمر في الخطبة بالصلاة على محمد ﷺ وعلى آله وعلى علي أمير المؤمنين وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء والأذان بحي على خير العمل وأسقط من أذان الفجر "الصلاة خير من النوم" وغير ذلك.

(٢) سيرة جعفر الحاجب ص١٠٨.

من العباسيين ليس هو الذى وصل إلى المغرب وتختلف في ذلك كتب الظاهر لديهم عن كتب الباطن ، بل يختلف قول الكاتب الواحد منهم فى كتبه الباطنية عن كتبه الظاهرية ، ففى كتب الباطن نجد –على سبيل المثال – كاتبا كالداعى الإسماعيلى خطاب بن الحسن يذكر أن الإمام الذى خرج من سلمية يريد المغرب هو على بن الحسين حتى إذا كان فى طريقه أظهر الغيبة واستخلف حجته سعيد الملقب بالمهدى فثبت الدعوة حتى إذا حضرته النقلة سلم الوديعة إلى مستقرها وتسلمها محمد بن على القائم بأمر الله [١] ويذكر الداعى إدريس فى كتابه الباطنى زهر المعانى أن الإمام صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب والمهدى فى كنفه فأظهر النقلة فى سفره وأوصى إلى أخيه سعيد الخير واستكفله واستودعه ولده القائم فكفله سعيد الخير وتسمى بالإمامة سترا على ولى الله وإخفاء لمقامه على أهل دعوته حتى يكون أوان ظهوره [٢] لكن الداعى إدريس نفسه يذكر فى كتابه الظاهرى عيون الأخبار أن الإمام الحسين بن أحمد خرج عن سلمية حين قرب القرامطة وكثرت ملاحقة العباسيين له وتوفى بعسكر مكرم بعد أن استكفل لابنه المهدى أخاه محمد بن أحمد الملقب بسعيد الخير وتوفى سعيد الخير بسلمية وصار الأمر للمهدى فتأججت فى الآفاق دعوته [٣] ثم يذكر [٤] أن الحسين بن أحمد انتقل من عسكر مكرم إلى سلمية بولده المهدى فنشأ بها ثم توفى الحسين بن أحمد حين بلغ ابنه ٨ سنوات فاستكفل له عمه سعيد الخير ،

---

[١] غاية المواليد ، ص ٣٦ .

[٢] زهر المعانى ، ص ٧١ .

[٣] عيون الأخبار ، سبع ٤ ، ص ص ٤٠٣ – ٤٠٤ .

[٤] نفس المصدر ، سبع ٥ ، ص ص ٨٩ – ٩٠ .

وقد أراد سعيد الخير أن يجعل الإمامة في ولد نفسه ويزويها عن المهدى فكان كل ولد يشير إليه بالإمامة يموت حتى لم يعد له ولد [١] فتزوج المهدى من ابنته فولدت له القائم بأمر الله [٢] وتفى الإمام [٣] بعد زواج المهدى بأيام يسيرة وأقام المهدى بسلمية حتى خرج منها إلى المغرب ومعه ولده القائم بأمر الله . أما القاضى النعمان فلم يزد عن قول إنه " لما انتهت الإمامة إلى المهدى وقبض الإمام قبله الذى كان عهد فيها إليه . .. فخرج بنفسه وبالإمام ابنه القائم من بعده " [٤] .

ويمكن تقسيم رحلة المهدى من سلمية إلى المغرب إلى مرحلتين هما :

المرحلة الأولى : من سلمية إلى مصر :

ذكر الداعى إدريس أن الإمام خرج من سلمية سنة ٢٨٦ هـ وهوتاريخ يبدو أن صوابه ٢٨٩ هـ في ضوء السبب الذى ذكره لخروج الإمام عن سلمية كل من الداعى إدريس نفسه [٥] وجعفر الحاجب [٦] والداعى النيسابورى [٧] وهو أن ذيوع خبر المهدى واشتهاره يرجع إلى ثورة القرامطة فى الشام فيما بين سنتى ٢٨٩ – ٢٩١ هـ ، وقد كان على رأسها يحيى بن ذكرويه الذى لقب

---

[١] الداعى إدريس : المصدر السابق ، سبع ٤ ص ٤٠٣ .

[٢] نفس المصدر ، سبع ٥ ، ص ٨٩ .

[٣] نفس المصدر ، نفس الصفحة . وقد نعت الداعى إدريس سعيد الخير بالإمام باعتباره إمام مستودع فيما يبدو حسب تصنيف الإسماعيلية الأئمة عندهم إلى مستقر ومستودع .

[٤] افتتاح الدعوة ، ص ١٥٨ .

[٥] عيون الأخبار ، سبع ٥ ، ص ٩٠ .

[٦] سيرة جعفر الحاجب ص ١٠٩ .

[٧] استتار الإمام ، ص ٩٦.

بالشيخ [١] لكنه قتل على باب دمشق فخلفه أخوه الحسين بن ذكرويه المعروف بصاحب الشامة وهو الذى سار إلى سلمية ودخلها سنة ٢٩٠ هـ [٢] ويبدو أنه القرمطى الذى يدعوه الداعى الإسماعيلى إدريس أبا مهزول [٣] .

ويذكر ابن الأثير [٤] والمقريزى [٥] أن أبا عبد الله الشيعى لما استقام أمره بالمغرب أنفذ رجالا من كتامة يشق بهم إلى عبيد الله المهدى ليخبروه بما فتح الله عليه وأنهم ينتظرونه ، وشاع خبر عبيد الله عند الناس أيام المكتفى بالله العباسى فطلب فخاف عبيد الله على نفسه فخرج هاربا من سلمية ومعه ابنه أبو القاسم الذى ولى بعده وتلقب بالقائم ، وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب ، وكان أتباع المهدى وابنه القائم ستة من الأتباع هم : فيروز داعى الدعاة وباب الأبواب ، وبركان حاضن القائم الذى أسموه طيبا ، وأبو يعقوب القهرمان وجعفر بن على الحاجب وابن خالته محمد بن عزيزة وأبو العباس المخطوم وهو أخو أبى عبد الله الشيعى [٦] .

---

(١) الطبرى : تاريخه ، جـ ١٠ ص ٩٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ص ٩٩ .

(٣) افتتاح الدعوة ، سبع ٥ ص ٩٠ .

(٤) الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ص ١٢٩ .

(٥) المقفى الكبير ، ص ٨١ .

(٦) أعرض القاضى النعمان عن ذكر اسم فيروز ربما إقلالا لشأنه لمخالفته المهدى ، ولم يزد عن قول إن فيروز كان من أكابر الدعاة فغير وبدل وضل وأضل ورفع أبا على داعى مصر إلى مرتبة باب الأبواب التى كانت لفيروز قبل الغضب عليه .

واتخذ عبيد الله المهدى وصحبه هيئة التجار فى ارتحالهم تخفيا وسترا عن عيون العباسيين وجواسيسهم ، وكان خط سير المهدى ورفقته من سلمية إلى دمشق إلى طبرية فالرملة التى أعاد المهدى منها محمد بن عزيزة إلى سلمية وأمره أن يجمع الغوغاء بها ويتظاهر أمامهم بسب المهدى وأن يحملهم على هدم دوره وأن يقلب العلو على البركة التى تحته حتى يندثر أثرها وأن يقطع النخلة التى على باب سلمية ، ويبدو أن المهدى كان يخفى فى هذه المواضع ما يحرص على إخفائه عن أعدائه ثم سار من الرملة إلى مصر [١] .

كان المهدى بالرملة فى رجب ٢٨٩ هـ [٢] وخرج منها إلى مصر فى توقيت غير متفق عليه ، ففى رحلته فترة تخفى طويلة تزيد على عام ونصف العام مكثها – أو مكث بعضها – فى الرملة على قول النيسابورى ، أو قضاها بأكملها فى مصر [٣] على ما يفهم من رواية

---

[١] الداعى إدريس : المصدر السابق ، سبع ٥ ص ٩٤ .

[٢] سيرة جعفر الحاجب ، ص ٢٠ .

[٣] لعل فى الأحداث التى وقعت للمهدى بمصر ما يرجح أنه مكث المدة المشار إليها بمصر فقد تخفى بمصر بمنزل مصرى يدعى ابن عياش وسلم جعفر الحاجب لعيون العباسيين تمويها عليهم فضربوه وأخلوا سبيله فرده المهدى سرا إلى سلمية ليحضر له منها بعض ما كان يخفيه ثم أظهر المهدى المسير إلى المغرب فخالفه فيروز إلى اليمن واستهوى على بن الفضل وحارب ابن حوشب وعلى حد قول القاضى النعمان (افتتاح ص ١٦٠) " اتصل ما كان من ذلك بالإمام فكره دخول اليمن على هذه الحال فأقام بمصر مستترا فى زى التجار " مما يدل على طول المدة التى مكثها المهدى بمصر .

ابن عذاري الذي يذكر أن المهدي وصل إلى مصر في زي التجار سنة ٢٨٩هـ [1] وأنه كان في سجلماسة في سنة ٢٩٢هـ وجاءه فيها كتاب من أبي عبد الله الشيعي بانتصاره في كتامة [2] واتهم عيسى النوشري والي العباسيين على مصر حينذاك بأنه تغاضى عن الإمساك بالمهدي نظير رشوة رشاه بها لكن المقريزي يبرئ النوشري من هذه الفرية ويذكر أن الأوامر جاءت إلى النوشري بالقبض على المهدي بعد خروجه من مصر وأنه لم يعرف حقيقته لتنكره في هيئة التجار [3] ويبدو أن اضطراب أحوال مصر حينذاك إبان سقوط الدولة الطولونية واستعادة العباسيين لسلطانهم عليها مكن المهدي من التخفي في دار أحد المصريين [4] فلما تولى النوشري وأخذ في البحث عنه خرج المهدي عن مصر ، ويبدو أن انشقاقا حدث في ركب المهدي إبان خروجه من مصر فقد تمرد داعي الدعاة فيروز على الإمام الإسماعيلي ورفض أن يصحبه إلى المغرب مفضلا التوجه إلى اليمن [5].

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ١ ص٢٠٦

(٢) نفس المصدر جـ١ ص١٣٩

(٣) المقريزي : المقفى الكبير ص٨٣

(٤) سيرة جعفر الحاجب ص١١٥

(٥) نفس المصدر ص ص ١١٤ - ١١٥ - والداعي إدريس : عيون الأخبار سبع ٥ ص٩٥

المرحلة الثانية : من مصر إلى سجلماسة :

خرج المهدي من مصر حوالي منتصف سنة ٢٩٢هـ في زي التجار فوصل إلى طرابلس ضمن قافلة من التجار العراقيين [١] بعد أن تعرضوا لحادثة سلب على أيدي بعض قطاع الطريق عند موضع يدعى الطاحونة وكان أكثر أسف المهدي على كتب فيها علم آبائه على حد زعم الرواية الإسماعيلية [٢] لكن قد يبدو غريبا أن يهتم قطاع الطريق بمثل هذه الكتب فيسلبونها ويعنون بها حتى يتسنى للقائم بن المهدي استردادها في أولى حملاته على مصر.

أرسل المهدي من طرابلس أبا العباس المخطوم أخا الداعي أبو عبد الله الشيعي مع بعض الكتاميين إلى القيروان بدعوى جمع الأخبار عن أبي عبد الله الشيعي ، لكن يبدو ان المهدي أراد التمويه على عيون العباسيين فأرسل جماعة إلى القيروان لينشغلوا بها بينما تسلل هو ومن معه على الطريق المباشر من طرابلس إلى قسطيلية ليصل منها إلى بلاد كتامة لكن أبا العباس المخطوم وقع في أيدي الأغالبة [٣] مما جعل المهدي يبتعد عن مناطق نفوذهم فتوجه إلى سجلماسة التي كان يحكمها بنو مدرار ، ووصل إليها في

---

(١) النيسابوري : المصدر السابق ص١٠٦

(٢) القاضي النعمان : المصدر السابق ص١٦١ – وسيرة جعفر الحاجب ص١١٥

(٣) المقريزي : المقفى الكبير ص٨٥

ذي الحجة سنة ٢٩٢هـ ، ويبدو أن الداعي أبو عبد الله الشيعي علم فوراً بوصوله إليها فأرسل إليه يخبره بانتصاره على الأغالبة في كتوبة [١].

مكث عبيد الله المهدي في سجلماسة نحو ثلاث سنوات حتى سنة ٢٩٦هـ ، فاستأجر فيها داراً حسنة من رجل يدعى أبو عيشة [٢] وأقام فيها إقامة طيبة مستتراً فيها في هيئة التجار وكانت علاقته في البداية طيبة باليسع بن مدرار أمير سجلماسة حتى كشف أمره فحبسه في داره وظل المهدي يتابع خفية أخبار عبد الله الشيعي الذي توجه إلى سجلماسة بعد قضائه على دولة الأغالبة فقبض على أمير سجلماسة وقضى على دولة بني مدرار وأخرج المهدي من حبسه وسلم إليه مقاليد الأمور وعاد به إلى إفريقية فدخل عبيد الله المهدي رقادة بصحبة أبو عبد الله الشيعي وبايع الكتاميون وأهل إفريقية عبيد الله المهدي على الطاعة وسلموا إليه بالخلافة ليكون أول خلفاء الفاطميين في المغرب.

---

(١) القاضي النعمان : المصدر السابق ص٢٠٢

(٢) سيرة جعفر الحاجب ص١١٩

الخلافة الفاطمية في إفريقية

✿ عبيد الله المهدي :

سلم أبو عبد الله الشيعي السلطة لعبيد الله المهدي عن رضا وطواعية لكن الحوادث صارت نحو صدام مؤكد بينهما فمن ناحية كانت السلطة في إفريقية أثناء تغيب أبي عبد الله الشيعي عنها في خروجه إلى سجلماسة بيد أخيه أبي العباس المخطوم الذي عظم عليه أن يسلم أخوه مقاليد السلطة للمهدي فأخذ يحرضه ضد المهدي حتى أثر فيه [1] ومن ناحية أخرى لاحظ عبيد الله المهدي تعظيم الكتاميين لأبي عبد الله الشيعي ومكانته العظيمة في نفوسهم فخشي من نفوذه على سلطانه وحاول أن يحد منه [2] وأحس أبو عبد الله الشيعي بتخوف الخليفة عبيد الله المهدي منه وعدم تقديره للجهود التي بذلها في تمهيد الدولة حتى سلمها له فتوجس منه خيفة وندم على استقدامه إياه وتسليمه الأمر إليه في حين رأى المهدي ضرورة التخلص من الداعي أبي عبد الله الشيعي كي يأمن خطره واستعان على قتله برجل طموح من الكتاميين هو غزوية بن يوسف الذي رأى في قتل أبي عبد الله الشيعي فرصة

---

(١) القاضي النعمان : المصدر السابق ص٣٠٧

والداعي إدريس : المصدر السابق سبع ٥ ص١١٧

(٢) ابن عذاري : المصدر السابق جـ١ ص ص١٦١ – ١٦٢

سانحة للارتقاء في الدولة والتقرب من الخليفة فكمن لأبي عبد الله الشيعي وقتله في سنة ٢٩٨هـ.

وكما أن مقتل أبي مسلم الخرساني أثار في وجه العباسيين كثيرا من ثورات الفرس فقد أثار مقتل أبي عبد الله الشيعي كثيرا من ثورات الكتاميين إلا أن المهدي واجه تلك الثورات في حزم وقوة وتمكن من إخمادها ، فقد تجمع بعض الكتاميين الغاضبين لمقتل أبي عبد الله الشيعي وأظهروا الثورة على المهدي والتشكك في نسبه سنة ٢٩٩هـ ، وقدموا على أنفسهم حدثا يدعى المارطي زعموا أنه المهدي المنتظر واستولى المارطي على إقليم الزاب كله ولم يتمكن المهدي من القضاء على ثورته إلا بعد أن وجه إليه جيشا كبيرا بقيادة أبي القاسم محمد القائم ولي عهده فتمكن من هزيمة المارطي وإخماد ثورته بعد جهد جهيد [1] ، وفي نفس العام – ٢٩٩هـ – ثار أهل تاهرت على الشيعة ثم ثار في العام التالي أهل طرابلس ولم يخمد ثورتهم إلا خروج أبي القاسم محمد القائم ولي العهد لمحاربتهم [2] ونظرا لهذه الثورات فقد اضطر المهدي إلى مهادنة المالكية وأهل القيروان المعارضين للشيعة من ناحية ومن ناحية أخرى عمل المهدي على اتخاذ عصبية خاصة لنفسه من كتامة تدين له وحده بالولاء مثل عروبة

(١) ابن عذاري : المصدر السابق جـ١ ص١٧٦

(٢) القاضي النعمان : المصدر السابق ص٢٢٥

بن يوسف وأخيه حباسة بن يوسف ولم يقتصر المهدي على هؤلاء الكتاميين وحدهم خشية انقلابهم عليه وإنما اتخذ لنفسه صنائع من قبائل أخرى مثل مصالة بن حبوس الصنهاجي الذي وجهه المهدي على رأس جيش كبير لغزو المغربين الأوسط والأقصى ونجح مصالة بن حبوس في مهمته نجاحا كبيرا فغزا دولة الأدارسة وبسط نفوذ الفاطميين حتى المغرب الأقصى.

✪ بنـــاء المهـــدية :

كانت حاضرة الأغالبة مدينة رقادة التي بناها إبراهيم بن أحمد الأغلبي عام ٢٦٨هـ / ٨٧٤م ، لكن المهدي وجدها غير مناسبة لأغراضه ومتطلباته فهي لا تبعد عن القيروان مركز المعارضة المالكية في إفريقية بأكثر من أربعة أميال [١] كما أنها تقع في سهل فسيح يجعلها عرضة للغزو من كل جانب [٢] فلا تتوافر لها أدنى شروط الحصانة الطبيعية ، ومن ثم قرر عبيد الله المهدي عام ٣٠٠هـ / ٩١٢م أن يقيم مدينة جديدة لتكون حاضرة لدولته ، ليس فقط على عادة مؤسسي الدول في بلاد المغرب وإنما أيضا لتكون مركزا للدعوة الشيعية في بلاد المغرب وحصنا حصينا يحتمي به الفاطميون وقت الحاجة من غضبة أهل المغرب التي ظهرت بوادرها في

---

(١) الاستبصار ص١١٦

(٢) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص٦٠٤

ثورة كتامة عقب مقتل الداعي أبي عبد الله الشيعي ، وقد أشار البكري إلـى ذلك بقوله : " كان سبب بنيان عبيد الله المهدي للمهدية قيام أبــي عبـد الله الشيعي وجماعة من كتامة عليه وما حاولوه من خلعه " . ويدل اختيار المهدي لموقع مدينته على بعض توجهاته فقد اختار المهدي لمدينته موقعا على ساحل إفريقية بين سوسة وتونس على لسان يمتد داخل البحـر كهيئـة كف علـى زند " [١] يسميه الجغرافيون جزيرة الخلفاء [٢] بينما يسميه ابن حماد جزيـرة الفار [٣] لا تزيد مساحته على ثلاثة أرباع كم* [٤] وهذا الموقع لا يدل فقـط على مخاوف المهدي من المعارضة المالكية الداخلية كما أشرنا آنفا وإنما يدل أيضا على تطلعات المهدي البحرية والتجارية فقد رأى أن الانفتاح على عالم البحر المتوسط يسهل له نقل الدعوة الإسماعيلية إلى شرق العالم الإسـلامي ويمكنه من مناهضة البيزنطيين والتصدي لهم ليظهر الفاطميون فـي صـورة المدافعين عن العالم الإسلامي أملا في زعامته بدلا من العباسيين فضلا عـن أن موقع مدينته يجعل منها شريانا تجاريا هاما يحقق الفاطميون من خلالـه

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٥ ص٢٣٠

(٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة.

(٣) أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ص٤١

(٤) يذكر مؤنس أن طول هذا اللسان ١٥٠٠م وعرضه ٢٠٠م (تاريخ المغرب جـ١ ص٤٨١) بينما يذكر كرزويل أن طوله ميل واحد وعرضه ٤٠٠م.

* Creswell: The Muslim Architecture of Egypt , p 2.

ثروات طائلة ، وقد كان جمع المال والثروة يشغل حيزا مهما من اهتمامات الفاطميين الذين اتخذوا المال وسيلة لتحقيق كثير من أغراضهم الدعائية والسياسية.

أطلق عبيد الله المهدي على المدينة التي أنشأها اسم المهدية نسبة إلى لقبه الذي تلقب به وإلى ألقاب أئمة الإسماعيلية الذين كانوا جميعا أئمة مهديين لدى شيعتهم الإسماعيلية [١] ، وقد شرع عبيد الله المهدي في بناء المهدية عام ٣٠٠هـ [٢] واستغرق بناؤها ثماني سنوات ، فعلى قول البكري : " كان ابتداءه بالنظر فيها سنة ثلاث مائة وكمل سورها سنة خمس وانتقل إليها سنة ثمان " ويبدو أن المهدي انتقل إلى المهدية قبل أن يكتمل بناؤها بعد أن سقط على رقادة والقيروان وابل غزير من المطر هدم الكثير من دورهما [٣] فأخذ المهدي في استكمال بنيان مدينته وهو يقيم بها حتى إذا أكمل بناءها ورأى شدة حصانتها وعظيم منعتها قال عبارته المعروفة : " اليوم أمنت على الفاطميات " [٤].

---

(١) حسن إبراهيم حسن : عبيد الله المهدي ص٢٠٨

(٢) ابن عذاري : المصدر السابق جـ١ ص١١٩

وياقوت : المصدر السابق جـ٥ ص٢٣٠

(٣) ابن عذاري : المصدر السابق جـ١ ص١٨٤

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ٦ ص١٥١ – وياقوت : المصدر السابق جـ٥ ص٢٣١

وزيادة في تأمين المهدية وتحصينها لم يكتف المهدي بإحاطتها بسور حجري متين بلغ طوله أكثر من ميلين وكان عرضه يمشي عليه فارسان ويوصد باباه بمصاريع ثقيلة من الحديد وإنما زود المهدية أيضا بوفرة من مخازن الغلال ومخزون هائل من المياه يساعدها على مقاومة الحصار لفترة طويلة فبلغت مواجلها نحو ٣٦٠ ماجلا كانت تأتيها المياه بواسطة قناة من قرية ميانش القريبة من المهدية [١].

ك - انتقال المهدي إلى مدينة المهدية الحصينة بعيدا عن القيروان أخطر معاقل المعارضة السنية إيذانا بانتهاء مهادنة المعارضة السنية والتشدد في فرض المذهب الشيعي على أهل إفريقية والمغرب فلم تقتصر سياسة التشييع على القيروان ورقادة والمهدية بل امتدت إلى كثير من النواحي فكتب إلى أهل المغرب جميعا يدعوهم إلى الدخول في طاعته والتدين بإمامته [٢] وأخذ في اضطهاد أهل السنة من جديد ليرغمهم على الدخول في التشيع وامتحن قاضي القيروان الشيعي إسحاق بن أبي المنهال فقهاء المالكية وضيق عليهم [٣] فسخط أهل إفريقية على المهدي ودولته حتى أنهم ساندوا ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد التي بدأت بوادرها قبيل وفاة عبيد الله المهدي عام

---

(١) عبد الحميد حسين : المهدية حاضرة الفاطميين الأولى بـبلاد المغرب المؤرخ المصري عدد ١٢ / ١٩٩٤ ص ص ٥٣ - ٩٦

(٢) ابن عذاري : المصدر السابق جـ١ ص١٧٨

(٣) أنظر تراجم فقهاء المالكية المعاصرين لذلك في رياض النفوس للمالكي وترتيب المدارك للقاضي عياض ومعالم الإيمان للدباغ وغيرها.

٣٣٢هـ -٩٣٤م على الرغم من اختلافهم في المذهب مع أبـــي يزيـــد الذي كان إباضيا نكاريا مخالفا لأهل السنة

الاستيلاء على صقلية والتوسع البحرى :

تعد جزيرة صقلية واحدة من أهم جزر البحر المتوسط إن لم تكــن أهمها على الإطلاق ، فهي جزيرة مثلثة الشكل تقع عند مشـــط القـــدم الإيطالية لا يفصلها عن سواحل إيطاليا الجنوبية في كلابريا Clabria (قلورية) إلا مضيق (مجاز) الفارو الذى لا يزيد اتساعه عن ميلين ، وتبلغ المسافة بينها وبين أقرب نقطة على ساحل إفريقيـــة – وهـــي إقليبية – نحو ١٤٠ ميلا فقط أو يومين بالريح الطيبـــة حســـب تقـــدير المصادر العربية [١] وبذلك فهي بمثابة جسر يربط بين وسط أوربا عبر إيطاليا من ناحية وبين ولاية إفريقية العربية الإســـلامية مـــن ناحيـــة أخرى [٢] وقد دخلت صقلية حوليات التاريخ الإسلامي منذ سنة ٣٥ هـ التي خرج فيها قسطنطين بن هرقل في أسطول كبير لمهاجمة السواحل الإسلامية إبان انشغال المسلمين بالفتنة الكبرى لكنه تعرض لعواصـــف شديدة أغرقت مراكبه فنجا بنفسه إلى صقلية فقتله أهلها [٣] .

وقد فسر العرب اسم صقلية على عدة أوجه ، فقيل إنها سميت باسم

---

[١] ياقوت الحموى : معجم البلدان ، صقلية .

[٢] سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، جـ ٢ ص ١٩٨ .

[٣] الطبرى : تاريخه ، جـ ٤ ص ٢٩٠ ، وابن الأثير : الكامل ، جـــ ٣ ص ١٠٢ ، والبكرى : المسالك والممالك جـ ١ ص ٤٥١ ، ويشـــير ابـــن الاثيـــر إلـــى أن مقتـــل قسطنطين بصقلية قد يكون عقب ذات الصوارى لولا أن الطبرى يذكر أن مراكبه غرقت بينما مراكبه في ذات الصوارى انهزمت لاحقا وأنهم انطلقوا في السنة التي وقعت فيهـــا ذات الصوارى فهى عند البعض سنة ٣١ هـ وعند البعض الآخر بعد ذلك .

رجل يدعى سيقلو وهو أخو إيطال الذى سميت به إيطاليا ، وكانت تعرف قبل ذلك " ترى قريا " [١] وقيل إن معنى صقلية باللسان القديم " تين وزيتون " [٢] .

وقد أدرك المسلمون خطورة صقلية على فتوحاتهم بالمغرب إذ كان الروم يتخذونها قاعدة لأعمال القرصنة ضد السواحل الإسلامية لاسيما إفريقية لقربها منها فضلا عما بها من خيرات بعد الاستيلاء عليها تدعيما للفتوح الإسلامية وإضعافا للروم [٣] ولذلك حرص المسلمون على بناء أسطول إسلامي فى إفريقية منذ أن بنى حسان بن النعمان الغساني مدينة تونس ، اتخذ فيها دارا للصناعة فأصبح للمسلمين في المغرب منذ ولاية موسى بن نصير أسطول يشن الحملات على جزر الحوض الغربي للبحر المتوسط ومنها جزيرة صقلية التي شن المسلمون عليها حملات متعاقبة فى عصر الولاة بالمغرب ثم تمكن الأغالبة بعد قيام دولتهم فى إفريقية بحملة كبيرة قادها القاضي أسد بن الفرات [٤] الذى نزل بجنده عند مازر Mazara واستولى عليها ثم حاصر سرقوسة فطال حصارها بعد أن خف الروم إلى نجدتها بإرسال أسطول من القسطنطينية من ناحية ، ومن ناحية أخرى أضر ما حل بالجزيرة

---

[١] لعلها " ترى كريا " بمعنى ثلاث كور فيتسق ذلك مع بقية عبارة البكرى " وإنما ذلك لثلاثة مواضع مشرفة فيها ... " (البكرى : المسالك والممالك جـ ١ ص ٤٨٣) .

[٢] ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، صقلية ، استشهد على المعنى الذى يذهب إليه بشعر لأبى الحسن بن رشيق القيروانى فى مدح بلرم منه :

وعظم الله معنى ذكرها قسما   قل إذا شئت أهل العلم أو فقس

وذكر أنه يشير إلى قول الله تعالى : ﴿ والتين والزيتون ﴾ .

[٣] عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٩٦ .

[٤] ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٨٦ .

عامئذ من قحط ووباء بالجيش الإسلامي ، ومات في الوباء كثير من جند المسلمين كان على رأسهم قائدهم أسد بن الفرات نفسه ٢١٣ هـ – ٨٢٨ م [١] لكن الأغالبة ثابروا على فتح صقلية ولم يكتفوا بالسيطرة عليها بل مدوا فتوحهم إلى قلورية وجنوب إيطاليا ، وقاد الجيوش الأغلبية أمراء من البيت الأغلبي مثل أبي العباس عبد الله بن إبراهيم الذي حقق في صقلية انتصارات باهرة ثم استدعاه أبوه إبراهيم بن أحمد وتنازل له عن الإمارة وعبر إلى صقلية مجاهدا بنفسه عام ٢٨٩ هـ فمات محاصرا لكسنته Casenza في قلورية (كلابريا) بجنوب إيطاليا وأعيد جثمانه إلى إفريقية ليدفن بالقيروان [٢] ثم تولى على صقلية زيادة الله الثالث لنحو ستة أشهر ثم استدعاه أبوه أبو العباس عبد الله منها [٣] واستعمل عليها محمد بن السرقوسي ، فلما وثب زيادة الله على أبيه وتولى الإمارة في رقادة كآخر أمراء الأغالبة عزل محمد بن السرقوسي عن صقلية واستعمل عليها بدلا منه أحمد بن أبي الحسين بن رباح سنة ٢٩٥ هـ – ٩٠٨ م ، وظل ابن رباح على صقلية نحو سنة حتى أسقط أبو عبد الله الشيعي دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ – ٩٠٩ م فوثب أهل صقلية على أحمد بن رباح وولوا على أنفسهم علي بن أبي الفوارس في رجب من نفس العام وبعثوا بأحمد بن أبي الحسين بن

---

[١] نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٨٧ ، والمالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ص ٢٧٣ .

[٢] سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ص ٢٢٤ – ٢٨٤ .

[٣] اختلف في سبب استدعائه فذكر ابن الأثير (الكامل ، جـ ٦ ص ١٠٣) أن أبا العباس عرف عن ولده زيادة الله والي صقلية اعتكافه على اللهو وإدمانه شرب الخمر فعزله ، بينما ذكر ابن عذاري (البيان المغرب ، جـ ١ ص ١٣٤) أنه وشي به إليه أن يريد الانتزاء عليه " .

رباح إلى أبي عبد الله الشيعي بإفريقية وسألوه أن يبقى عليهم على بن أبي الفوارس فأجابهم إلى ذلك وكتب إليه أن يغزو برا وبحرا [١] ، وكتب لهم بالأمان كغيرهم من البلدان التي استولى عليها من الأغالبة [٢]

ولما تسلم عبيد الله المهدى مقاليد الأمور من أبي عبد الله الشيعي وبدأت به الخلافة الفاطمية في إفريقية لم تقتصر نظرته إلى صقلية على أنها بعض من إرث الأغالبة بل أدرك أهميتها كقاعدة للجهاد البحرى في البحر المتوسط [٣] وكان للإسماعيلية أحاديث يزعمون فيها أن أخذ رومية يكون على يد المهدى الفاطمي [٤] كما حرص الفاطميون على الهيمنة على صقلية لأسباب سياسية وأخرى اقتصادية ، فمن الناحية السياسية لم تكن صقلية مجرد قاعدة بحرية للتوسع في البحر المتوسط وإنما كانت أيضا معقلا للدفاع عن سواحل إفريقية الفاطمية ضد الغارات البيزنطية من ناحية وغارات أمويي الأندلس من ناحية أخرى ، أما من الناحية الاقتصادية فقد وجد الفاطميون في صقلية مستودعا زراعيا ومعدنيا هائلا يدعم قدراتهم الاقتصادية [٥] .

كانت صقلية إبان سقوط دولة الأغالبة وقيام الدولة الفاطمية تشهد تنامي شعورا بلديا ينم عن اعتزاز الصقليين بأنفسهم ورغبتهم في أن يتولى أمورهم رجل منهم ، فتولى عليهم محمد بن السرقوسي ، فلما عزله زيادة الله الثالث آخر الأغالبة انتهزوا فرصة سقوط الأغالبة

---

[١] أماري : المكتبة الصقلية ، ص ٢٤٩ .

[٢] افتتاح الدعوة ، ص ٢٥٧ .

[٣] عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٠٦ .

[٤] شمس الغيوب من حنادس القلوب مخطوط باريس رقم ٢٦٦٩ ، Abel, Rome dans la tradition es chatalogique de l . Isam . Arabic . t v jan . 1958 Fasc . 1 . 1 , sqq

[٥] حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٨ .

وأخرجوا أحمد بن رباح الذى كان زيادة الله قد ولاه عليهم وولوا على أنفسهم عليا بن أبى الفوارس وكتبوا بشعيتهم إلى أبى عبد الله الشيعى وطلبوا بقاء ابن أبى الفوارس على ولايتهم فأجابهم أبو عبد الله الشيعى إلى ذلك لكن عبيد الله المهدى الذى كان يرمى إلى تقوية قبضته على صقلية تصدى لهذا الشعور البلدى المتنامى فى صقلية فولى عليها رجلا شديدا حازما هو الحسن بن أحمد بن أبى خنزير فوصل إليها فى عيد الأضحى سنة ٢٩٧ هـ - ٩١٠ م واستعمل أخاه على بن أحمد بن أبى خنزير على جرجنت – وهى المدنية الثانية بعد بلرم الحاضرة – وأقر إسحاق بن أبى المنهال على قضاء صقلية ، وقد تعسف الحسن بن أبى خنزير بأهل صقلية فثاروا عليه وطردوه هو وأخيه من صقلية وانتهبوا دورهما [١] وكتبوا إلى المهدية بظلم واليه واعتذروا عما فعلوه به فقبل عذرهم وولى عليهم على بن عمر البلوى سنة ٢٩٩ هـ - ٩١٢ م [٢]

كان على بن عمر شيخا لينا غير مناسب للولاية فى ثغر له مثل أهمية صقلية فلم يرض أهلها بسيرته فعزلوه عنهم [٣] وقدموا على أنفسهم رجلا منهم هو أحمد بن قرهب الذى استوثق منهم لنفسه ، وأنهم لا يخذلونه [٤] ويبدو أنه كان يضمر الخروج على الفاطميين وقطع دعوتهم من صقلية ، فدعا أهل صقلية إلى طاعة المقتدر بالله العباسى فأجابوه إلى ذلك فخطب له بصقلية وقطع خطبة المهدى ، وبارك

---

[١] ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ص ١٦٨ ، والداعى إدريس ، المصدر السابق ، سبع ٥ ، ص ١١٦ .

[٢] ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ص ١٣٤ ، وابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ٤٤ .

[٣] ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ١٤٩ .

[٤] ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٦٨ .

المقتدر بالله العباسي خطوة ابن قرهب وبعث إليه بألوية وخلع سود [١] وأراد ابن قرهب أن يدعم مكانته في صقلية فارتدى زى المجاهد وأخرج أسطولا إلى قلورية أغار على بعض النواحي وحصل على بعض الغنائم [٢] وانتهز انشغال الفاطميين بتوجيه حملة إلى مصر سنة ٣٠١ هـ فأرسل أسطوله بقيادة ابنه محمد لمهاجمة السواحل الفاطمية وأحرق الأسطول الفاطمي في مرسى لمطة وقتل قائده الحسن بن أبي خنزير – والي صقلية الأسبق – وأسر نحو ٦٠٠ من رجاله ولما أرسل عبيد الله المهدي جيشا لنجدة أسطوله هزمه جند ابن قرهب وغنموا ما كان معه [٣] وسار الأسطول الصقلي إلى صفاقس فخربها ثم سار إلى طرابلس فوجد بها القائم بن المهدي بكامل جيشه فتراجع عن مواجهته وعاد إلى صقلية [٤] ويبدو أن ابن قرهب سير أسطوله إلى إفريقية مجددا فهزمه الأسطول الفاطمي هذه المرة هزيمة اضطربت لها أمور ابن قرهب في صقلية وأدبر أمره فأساء السيرة في أهل صقلية فتمردوا عليه وكاتبوا عبيد الله المهدي في خلعه [٥] فداراهم ابن قرهب وذكرهم بأيمانهم له فلم يلين ذلك منهم حتى صارت بسببه فتنة بصقلية بين طائفة كانت معه وطائفة كانت عليه فأراد ابن قرهب جواز البحر إلى الأندلس واكترى مراكب وشحن فيها متاعا كثيرا فحال أهل صقلية بينه وبين ما

---

[١] نفس المصدر ، نفس الصفحة ، وابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ١٤٢ .

[٢] ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ص ١٤٢ .

[٣] ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٧٩ . مرسى لمطة فيما يبدو عند قصر لمطة بينه وبين المستير ٧ أميال على مقربة من المهدية

[٤] ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٢ .

[٥] نفس المصدر : نفس الصفحة .

أراد وانتهبوا ما كان له في تلك المراكب وأسروا ابن قرهب وابنه وقاضيه المعروف بابن الخامي وقيدوا أجمعين وبعثوا إلى عبيد الله ، وكتب أهل صقلية أن يوجه إليهم عاملا وقاضيا " [١] .

اشترط أهل صقلية على عبيد الله المهدي أن يكتفي بإرسال العامل والقاضي دون حامية من الجند ، ومعنى ذلك أنهم لا يقبلون إلا بالتبعية الاسمية للدولة الفاطمية مما أغضب عبيد الله المهدي غضبا شديدا فأخرج إليهم في سنة ٣٠٤ هـ - ٩١٦ م أسطولا كبيرا بقيادة أبي سعيد موسى بن أحمد المعروف بالضيف فهزم أهل صقلية ، وتوالت الإمدادات من عبيد الله المهدي فيئس أهل صقلية من جدوى المقاومة وطلبوا الأمان فأمنهم إلا من أشعلوا الثورة أخذهم وأرسلهم إلى عبيد الله المهدي بإفريقية لكنهم غرقوا في البحر ، وهدم سور بلرم حاضرة صقلية وجرد أهلها من السلاح [٢] ثم وصله من المهدي كتابا بالعفو عن عامة أهل صقلية [٣] وانتهت بذلك مهمته في الجزيرة فولى عليها سالم بن راشد وترك معه حامية من كتامة وعاد إلى القيروان [٤] .

من اللافت للنظر أن ولاية سالم بن راشد على صقلية قد طالت لنحو عشرين عاما إلى ما بعد وفاة المهدي مما يجعلنا نتساءل عن العوامل التي أكسبت هذا الوالي ثقة المهدي على نحو غير مسبوق ، وقد اتخذت صقلية في عهد هذا الوالي قاعدة لغزو إيطاليا ، ففي سنة ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م غزا مسعود الفتى جنوب إيطاليا بأسطول من عشرين من

---

[١] ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٧٤ .

[٢] نفس المصدر ، نفس الصفحة .

[٣] ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ١٤٢ .

[٤] ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٧٩ .

الشواني فاجتاح مدينة سنت أغاثي St . Agathe على مقربة من ريو وسبى كثيرا من أهلها ثم عاد إلى المهدية [١] وبعد عامين خـرج أبـو أحمد جعفر بن عبيد الحاجب في أسطول كبير إلى صقلية فشتى بها ثم غزا بها في العام التالي ٣١٣ هـ فافتتح أماكن كثيرة من جنوب إيطاليا وقتل بها وأسر خلقا كثيرا [٢] وسار في نفس العام سالم بن راشد والـي صقلية على رأس جيشها فغزوا عدة واحي في انكبردة وقلوريـة مـن جنوب إيطاليا [٣] .

وعهد عبيد الله المهدي بأمر الجهاد البحري إلى صـابر الفتـي عامـل القيروان الذي وصف بأنه مولى ابن قرهب مما يدل على أنه كان أصلا من أهل صقلية وله خبرة كبيرة بها فشن سلسلة من الحملات السنوية كان أولها في سنة ٣١٥هـ - ٩٢٧ م التي خرج فيها على رأس أسطول من ٤٤ مركبا فغزا عدة نواحي من جنوب إيطاليا [٤] وأقام صابر الفتي بصقلية وخرج منها في العام التالي ٣١٦هـ-٩٢٨م فغزا جنوب إيطاليا واضطر أهـل سالرنو ونابولي إلى مصالحته على أداء فدية كبيرة [٥] ثم غزا الفتي صابر غـزوة ثالثة في العام التالي ٣١٧هـ-٩٢٩م غزوة تفقدية في أربعة مراكب فـالتقى في البحر بالبردغوس فانهزم البردغوس وعاد صـابر بسبي كثيـر ثـم انصرف إلى المهدية [٦] وهكذا خضعت صقلية لعبيد الله المهـدي وامتـد نفوذه إلى جنوب إيطاليا حتى وفاته سنة ٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م .

---

[١] نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٨٨ .

[٢] نفس المصدر ، جـ ١ ص ص ١٨٩-١٩٠ .

[٣] ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ١٨٢ .

[٤] ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٩٢ .

[٥] نفس المصدر : جـ ١ ص ١٩٣ .

[٦] نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٩٤ .

القائم بأمر الله الفاطمى :

عهد عبد الله المهدى بولاية العهد من بعده لابنه أبى القاسم محمد [1] فبويع بالخلافة وتلقب بالقائم بأمر الله بعد وفاة أبيه [2] وكان أبـوه قـد أحسن إعداده لتولى الحكم من بعده وأكسبه خبرات كثيرة ، فكان يقـود الحملات ويقضى على الثورات ، ولذلك أظهر القائم كفاءة كبيرة فـى التصدى للثورات التى اندلعت فى إفريقية والمغرب عقب وفاة المهدى ، ويبدو أن هذه الثورات كانت ردود أفعال لسياسة التشيع المتشددة التـى انتهجها المهدى فى سنواته الأخيرة ثم سار عليها القائم بأمر الله فى أول خلافته .

وزاد من لهيب تلك الثورات سخط أهالى إفريقية بسبب السياسـة المالية للفاطميين التـي قامـت علـى كثـرة الضـرائب والمغـارم ليجمع الفاطميون أموالا كثيرة تمكـنهم مـن الإنفـاق علـى الجهـود التي يبذلونها لتحقق طموحاتهم الكبيـرة فـى السـيطرة علـى بـلاد المغرب ثم التوجه منها شرقا للإطاحة بالخلافـة العباسـية والسـيطرة علـى العـالم الإسـلامى . وسـخط أيضـا أهـل إفريقيـة بسـبب المعاملة السيئة التي عامل بهـا الفـاطميون الشـيعة فقهـاء المالكيـة الذين كانت لهم شعبية جارفـة فـي بـلاد المغـرب جعلـت أهلهـا يتذمرون لكل محنة تنزل بهؤلاء الفقهاء على أيـدى الشـيعة . كـان من أوائل الثورات التي اندلعت فى وجـه القـائم بـأمر الله الفـاطمى ثورة محمد بن طالوت القرشى فى طرابلس ، ولكن أهل طرابلس منعوا

---

[1] القاضى النعمان : افتتاح ص ٣٢٤ .

[2] ذكر الداعى إدريس (سبع ٥ ص ١٥٥) أن القائم كتم وفاة أبيه مائة يوم .

طالوت هذا من دخول مدينتهم بعد أن تبين لهم كذب ادعائه أنه ابن المهدي من ناحية وخوفا من بطش القائم وعقابه من ناحية أخرى ، وقد كانت ثورة ابن طالوت إرهاصة لأخطر ثورة واجهها القائم بأمر الله وهي ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار.

وكان أبو يزيد صاحب الحمار أول أمره معلما للصبيان بناحية تقيوس ويعتنق مذهب الإباضية النكارية وفي نفسه ميل إلى الثورة ، فأخذ يحث الناس إلى الثورة على العبيديين وأقنع أهل تقيوس بقتل عاملها من قبل العبيديين في سنة ٣١٦هـ ، فقبض عليه عبيد الله المهدي وسجنه في توزر فظل في سجنه حتى تمكن أحد أتباعه ويدعى أبو عمار كنار الأعمى في جماعة من أعوانه من اقتحام سجن توزر وإخراج أبي يزيد منه فتوجه بهم أبو يزيد إلى جبل أوراس وانضم إليه كل ساخط على العبيديين الشيعة واستفحل أمره بعد أن تحالف معه أهل السنة خاصة أهل القيروان المالكية لما عانوه من تشدد الشيعة واضطهادهم.

تمكن أبو يزيد مخلد بن كيداد من دخول القيروان في صفر عام ٣٣٣هـ بسبب ميلهم إليه فأحسن السيرة فيهم في البداية وسكت عن الدعوة لمذهبه وترحم على الشيخين أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأزال المظالم والمغارم وأباح قراءة مذهب مالك مما جعل مشيخة القيروان تدعو أهلها إلى الانضمام إلى أبي يزيد في مجاهدة العبيديين الشيعة فتمكن أبو يزيد مخلد بن كيداد بفضل تأييد أهل السنة المتحمسين من إحراز النصر تلو الآخر على

واشتد حصار أبي يزيد للمهدية وقطع عنها كل الميرة والمؤن وزاد بها الغلاء والجوع مع كثرة أحرائها ومواجلها التي أعدت لمثل هذا الحصار الطويل ، لكن المهدية تمكنت من الصمود وعجز أبو يزيد عن اقتحامها بعد أن تخلى أهل القيروان عن نصرته فحاول أن يسترضيهم وأن يستميلهم إليه من جديد فلم يستجيبوا له خاصة بعد أن وعدهم المنصور بالله إسماعيل خليفة الفاطميين الجديد بحسن المعاملة وحلف على ألا يتعرض لمذهبهم ونفى عنهم دعاة الشيعة وسمح لهم بإقامة صلاة التراويح وأطلق سراح المحبوسين منهم .

كان تخلي أهل القيروان عن نصرة أبي يزيد سببا في هزيمته واسترد المنصور بالله سلطة الفاطميين على القيروان فتغير ميزان القوى في إفريقية لصالح الفاطميين وتمكن المنصور بالله إسماعيل ثالث خلفاء الفاطميين في إفريقية من هزيمة صاحب الحمار في المحرم سنة ٣٣٥ هـ – ٩٤٦ م ثم قام بمطاردته من ناحية أخرى حتى تم أسره في المحرم سنة ٣٣٦ هـ – ٩٤٧ م ومات أبو يزيد في الأسر من جراح أصابته [١] لتنتهي بذلك أخطر ثورة واجهت الفاطميين في المغرب .

---

[١] المقريزي : المقفى ، ترجمة المنصور بالله .

لكن ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمـــار تركـت بــلاد المغرب في حالة سيئة من الخراب والدمار ، فحل الغلاء والوباء واسـتدعى الأمر أن يستمر المنصور بالله إسماعيل على نهج الاعتدال وتسكين النفـوس وتهدئتها من ناحية ومن ناحية أخرى تخفيف الأعباء المالية عن أهل إفريقيـة حتى توطدت أقدام العبيديين في بلاد المغرب من جديد.

ثم نكص المنصور بالله إسماعيل عن سياسة الاعتدال مع أهل الســنة وانتهج سياسة التشيع المتشددة من جديد ، ورغم الصعوبات التي واجهته فإن كفاءة المنصور مكنته من إعادة تنظيم الدولة وتعميرها ومواجهة توابع ثـورة صاحب الحمار مثل ثورة فضل بن أبي يزيد الذي أراد الانتقام لأبيه فتســلل إلى جبل أوراس وجمع حوله أنصار أبيه واستولى على قسـنطينية وقفصــة فخرج المنصور لملاحقته وأنزل به الهزيمة لكن فضل بن أبي يزيد راغ منه إلى عمل بسكرة ثم حاصر باغاية حتى أوقع به رجل يدعى باطيط بن يعلـي فقتله وبعث برأسه إلى المنصور في ذي القعدة ٣٣٦هـ / ٩٤٨م بعد مقتــل أبي يزيد بأقل من عام [١].

وانتقل المنصور بالله إسماعيل في ربيع الأول ٣٣٧هـ / ٩٤٨م إلى حاضرة جديدة بناها على مقربة من القيروان ، على مسافة نصف ميل فقــط منها ، ليسهل عليه مراقبة المدينة التي كانت معقل المعارضة الســنية فـي إفريقية ، وظل المنصور بالله إسماعيل طيلة السنوات التالية حتى وفاته يوطد

---

(١) المقريزي : المقفى ، ترجمة المنصور بالله.

أركان دولته ويقضي على الثوار والمعارضين ويمهد السبل وينشر الأمـــن وأخرج أسطولا عظيما بقيادة مولاه فرج الصقلبي في المحرم سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م فانضم إليه عامله على صقلية فغزا قلورية وأحرز نصرا عظيمـــا ، وفي ربيع الثاني من نفس العام وفد إليه رسول من القسطنطينية مـــن قبل إمبراطور بيزنطة يطلب الموادعة فأجابه المنصور إلى ذلك وفي شوال مـــن نفس العام ٣٤١هـ توفي المنصور بالله إسماعيل وقيل في سبب موته أنـــه تعرض لعاصفة مطيرة بجلولاء وبرد شديد تجمدت منه أوصاله فاعتل ومات عن عمر ناهز أربعين سنة بعد أن حكم سبع سنوات ليخلفه ابنه وولي عـــهده أبو تميم معد الذي تلقب بالمعز لدين الله.

۞ المعز لدين الله الفاطمي :

تولى الخلافة المعز لدين الله أبو تميم معد بعد وفاة أبيه المنصور بـــالله ليكون رابع الخلفاء الفاطميين في إفريقية ، وكان من أكثر الخلفاء الفـــاطميين كفاءة ومقدرة فأكمل جهود أبيه المنصور في توطيد أركان الدولـــة وإقـــرار الأمن وتوطيد سلطانها في بلاد المغرب.

وأدرك المعز لدين الله منذ توليه الخلافة مـــدى الأخطـــار المحدقـــة بالدولة الفاطمية في المغرب فكتم وفاة والده المنصور عدة أشهر ولم يعلـــن عنها إلا في ذي الحجة عام ٣٤١هـ كي يجمع في يده مقاليد الأمور ومـــا إن أعلن عن وفاة والده وتقلد الخلافة من بعده حتى خرج في غارة وقائية علـــى جبـــل أوراس وبـــاغت زعمـــاءه فدانـــوا له بالطاعـــة وأمـــن جانبـــهم وبدأ المعز خلافته – كعادة أسلافه – بالاعتـــدال ومـــداراة الأهالي واستقام

أسره في إفريقية والمغرب بمساعدة قائديه الكبيرين جوهر الصقلي وزيري بن مناد الصنهاجي .

وكان جوهر بن عبد الله الصقلي قائدا كبيرا ولد في سنة ٣١٢ هـ أهداه خفيف الصقلبي إلى المنصور بالله إسماعيل فأهداه إلى ابنه المعز لدين الله فرباه حتى بلغ في خدمته مبلغ الرجال وتدرج في بلاط المعز بعد خلافته حتى وصل إلى مرتبة الوزارة في سنة ٣٤٧ هـ/ ٩٥٨م ، وأخرجه المعز لدين الله الفاطمي في تلك السنة على رأس جيش كبير لتأكيد سلطانه على بلاد المغرب وإخضاع من شغبوا أو خلعوا طاعة الفاطميين أثناء انشغالهم بثورة صاحب الحمار ، فقتل جوهر الصقلي يعلى بن محمد الزناتي صاحب المغرب الأوسط ، وخرب مدينة إفكان وهدمها ثم مضى في طريقه حتى انتهى إلى مدينة فاس فلم يقدر عليها فرحل عنها إلى سجلماسة ففر منها صاحبها الملقب بالشاكر لله ثم أسر وجيء به إلى جوهر وبعد استيلائه على سجلماسة عاد جوهر إلى فاس وحاصرها حصارا شديدا حتى دخلها عنوة وأسر صاحبها أحمد بن بكر الجذامي وحمله مع الشاكر لله وغيرهما من الأسرى وسلمهم بعد عودته للمعز لدين الله الفاطمي ، وأنجز جوهر مهمته على أحسن وجه وأعاد الخطبة للفاطميين على جميع منابر المغرب ، غير أن الزناتيين فيما بعد انتهزوا فرصة خروج المعز إلى مصر وخلعوا طاعة الفاطميين فتصدى لهم زيري بن مناد الصنهاجي وأعادهم إلى الطاعة لكن الزناتيين تمكنوا من قتل زيري بن مناد فانتقم له ابنه يوسف بن زيري المعروف ببلكين ، وكان بلكين هذا هو الذي تولى المغرب نيابة عن المعز بعد رحيله عن أفريقية إلى مصر .

۞ استيلاء الفاطميين على مصر :

إذا كان الفاطميون قد اتجهوا إلى بلاد المغرب الإسلامي وابتدأوا فيها دولتهم لبعدها عن بغداد مركز الخلافة العباسية في العراق ، ولضعف قبضة العباسيين على هذه النواحي نظرا لاهتمام العباسيين بالمشرق الإسلامي على حساب المغرب ، فضلا عن إدراك الفاطميين استعداد البربر للتمرد على الحكومة المركزية والالتفاف حول من يقيم لها كيانا مستقلا عن حكومة الخلافة التي لم تحقق لهم طموحاتهم السياسية ، فقد كان الفاطميون يتطلعون إلى الاستيلاء على مصر منذ خلافة عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين في بلاد المغرب لأن بلاد المغرب باعتبارها من أطراف العالم الإسلامي قد تصلح لبدء الدولة الفاطمية لكنها لم تكن تصلح لتحقيق طموح الفاطميين في زعامة العالم الإسلامي والتصدي للخلافة العباسية ، إذ لا يصلح لذلك سوى بلد في قلب العالم الإسلامي مثل مصر التي تتمتع بموقع استراتيجي هام من النواحي العسكرية والسياسية فهي في قلب العالم الإسلامي تطل على البحرين الأحمر والمتوسط فيمكنها الاتصال والتواصل مع بقية بلدان العالم الإسلامي ولم يكن قد بقي من قلب العالم الإسلامي موضع لم يتخذ مقرا لخلافة إسلامية من قبل إلا مصر ، فالحجاز قد حظي بشرف أن كان مقرا للخلافة الراشدة ، وبلاد الشام كانت مقرا للخلافة الفاطمية ، وبلاد العراق مقرا للخلافة العباسية ، وقد كانت قلوب كل بلد من هذه البلدان معلقة بالخلافة التي قامت فيها وحققت لها مجدها وسؤددها وازدهارها ومن ثم لم يبق أمام الفاطميين في هذا الصدد سوى مصر التي زاد من أهميتها امتياز موقعها وما تتمتع به من ثروات اقتصادية وبشرية كانت موضع التقدير حتى

أن عمرو بن العاص فاتح مصر كان يرى أنها تعدل دولة الخلافة بأكملها وفضلاً عن ذلك كان لها منذ العصر الإخشيدي نفوذ في الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) وقد روّج الفاطميون مقولة أن الخلافة الحقة هي التي تحكم الحرمين الشريفين ليظهروا عجز العباسيين وأحقيتهم بزعامة العالم الإسلامي من دونهم، وزاد من اهتمام الفاطميين بالاستيلاء على مصر ورغبتهم في الانتقال إليها ما كانوا يشعرون به في بلاد المغرب من قلق مستمر وعدم استقرار بسبب عدم تقبل المغاربة لهم وثوراتهم المستمرة ضدهم حتى أن أحداً من الخلفاء الفاطميين الأربعة الذين حكموا في إفريقية لم يسلم من نشوب إحدى الثورات في وجهه ، ولذلك كان الفاطميون ينشدون في مصر الدعة والسكينة والأمن والاستقرار الذي يفتقدونه في بلاد المغرب ومن ثم فقد لوحظ أن كثيراً من حملات الفاطميين التي وجهوها للاستيلاء على مصر كانت في أعقاب ثورات أشعلها ضدهم المغاربة.

ويرى بعض الدارسين أن المهدي وابنه القائم اهتما بالاستيلاء على مصر لحنينهما إلى المشرق الذي ينتميان إليه فكانت قلوبهما معلقة به وتوجهاتهما دائما إليه بينما كان المنصور وابنه المعز أكثر اهتماما بإفريقية ومشاكلها الاقتصادية والاجتماعية لنشوئهما فيها فاهتم المنصور بمعالجة آثار ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد بينما اهتم المعز بتوطيد السيادة الفاطمية على المغرب الأقصى ولم يوجه أنظاره إلى مصر إلا في نهاية أواخر خلافته [1]. لكننا لا ينبغي أن نغفل عن أن اهتمام المنصور وابنه المعز

(1) Dachraoui, F. le Califat fatimide au Maghreb 296 – 362 I. 909 – 973 Tunis, 1981 pp 250 - 260

بشئون إفريقية كان لازما لإعادة ترتيب أوضاعها لتكون قاعدة انطلاق نحو مصر. وأن المعز لم يكد يتم ذلك حتى تطلع إلى مصـــر ووجـه حملاتـه إليهـا مثل أجداده. ويرى البعض الآخر أن قوة الفاطميين لم تكن قد نمـت في هذا الوقت المبكر وأنها كانت لا تزال محصـــورة فـــي قبيلـــة كتامـــة البربرية فضلا عن المقاطعة السلبية التي قوبلوا بها من أهل القيروان السـنة وعلمائهم المالكية ولذلك فإنهم لم يكونوا يملكون القوة العســـكرية اللازمـــة للقيـــام بمثل هذه المغامرة التي تفوق قدراتهم [١] لكننا نرى أن هذا التفســـير يصلح لتفسير أسباب فشل الحملات الفاطمية لا لتفسير أسباب توجيهها.

على أي حال كان اهتمام الفاطميين بالاستيلاء على مصر منذ بـــدء دولتهم بإفريقية ، بل يمكن أن نزعم أن اهتمامهم بها سابق على قيام الدولـــة الفاطمية في المغرب ، ففي زعمنا أن اختيار بلاد المغرب دون غيرها مـــن الأطراف الإسلامية لتبدأ فيها الدولة الفاطمية كان بهدف الاستيلاء منها علـــى مصر لإمكانية التوجه من المغرب إلى مصر التي كـــانوا يـــرون فيـــها المقـــر المرتقب للخلافة الفاطمية القادرة على منافسة الخلافة العباسية، لقـــد كانت إفريقية – في رأينا – بالنسبة للفاطميين مدخلا إلى مصر مثلما كـــانت خراسان بالنسبة للعباسيين مدخلا إلى العراق وهذا يفســـر إتجـــاه عبيـــد الله المهدي إلى المغرب أثناء رحلته على الرغم من أن داعي دعاتـــه حينـــذاك المسمى فيروز كان يوجهه إلى اليمن ، لقد كان أمام عبيـــد الله المـــهدي أن يختار بين الذهاب إلى اليمن حيث يوجد ابن حوشب الملقب بمنصور اليمـــن أو الذهاب إلى المغرب حيث يوجد أبو عبد الله الشيعي وكـــلا مـــن اليمـــن

---

(١) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية ، ص ٥٩.

والمغرب بعد بالنسبة للعباسيين من الأطراف ولكن عبيد الله المهدي فضل الطرف المغربي على الطرف اليمني لأن إفريقية تؤدي في يسر إلى مصر مثلما أدت خراسان في يسر إلى العراق.

لم يتوان الفاطميون عن توجيه حملاتهم للاستيلاء على مصر منذ بدء دولتهم حتى أن أول خلفائهم عبيد الله المهدي أرسل إليها أول حملاته بعد نحو أربعة أعوام فقط من تسلمه مقاليد الحكم في إفريقية ولقد شكلت الحملات الفاطمية على مصر منذ ابتدائها حتى الاستيلاء على مصر موجتين كبيرتين تشتمل كل موجة منهما على عدة حملات ، وتفصل بينهما فترة توقف اضطراري طالت لأكثر من ربع قرن بسبب انشغال الفاطميين بشئون المغرب ، ومع أن الموجة الأولى من هذه الحملات كانت أطول زمنيا من الثانية فقد كانت أقل فعالية منها إذ أن الموجة الثانية هي التي حققت أمل الفاطميين المنشود في الاستيلاء على مصر .

بدأت الموجة الأولى من الحملات الفاطمية على مصر أول خلافة المهدي بحملة في سنة ٣٠١ هـ ومع أن أخبار هذه الحملة لا تخلو من خلط فإننا نستطيع القول أن عبيد الله المهدي أرسل الحملة في البداية بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي الذي خرج إلى مصر على رأس جيش وأسطول كبيرين ، خرج بهما من طرابلس متوجها إلى مصر في ٢٥ جمادي الآخرة سنة ٣٠١ هـ فاستولى حباسة في سرعة على سرت وأجدابية ثم دخل برقة في ٧ رجب من نفس العام فأرسل عبيد الله المهدي ابنه القائم ليتولى قيادة الحملة بدلا من حباسة ليكون له شرف الاستيلاء على مصر ، ولذلك كتب القائم إلى حباسة ألا يبرح برقة حتى يصل إليه لكن حباسة سبقه

إلى الإسكندرية واستولى عليها في ٨ صفر سنة ٣٠٢ هـ ولحق به القاسم في الإسكندرية وأصبحت له القيادة العليا في تلك الحملة فقسم الجيش الفاطمي إلى جناحين توجه أكبرهما بقيادة حباسة نحو الداخل للاستيلاء على الفسطاط بينما توجه أصغرهما بقيادة القائم نحو الفيوم للإفادة من خيراتها من ناحية وليضع القوات العباسية في مصر بين فكي الكماشة من ناحية أخرى.

واستطاع أبو منصور تكين أمير مصر حينذاك أن يهزم حباسة بن يوسف في مواجهة استمرت نحو أسبوع فقتل من جند حباسة عدة آلاف، وانسحب حباسة إلى المغرب على الرغم من أن القائم أرسل إليه من الفيوم يأمره بعدم الانسحاب فلم يأبه له حباسة، وارتبك الجيش الفاطمي في الوقت الذي وصل فيه إلى مصر مؤنس الخادم القائد العباسي على رأس مدد إلى مصر في رمضان سنة ٣٠٢ هـ فلم يجد القائم بدا من الانسحاب إلى إفريقية وألقيت تبعة الهزيمة على حباسة فقتله المهدي مما أدى إلى غضب أخيه عروبة بن يوسف وقومه من كتامة فثاروا على المهدي ثورة عارمة امتدت لحوالي عام ونصف قبل أن يتمكن المهدي من إخمادها.

وظل عبيد الله المهدي متحفزا للاستيلاء على مصر وأراد التمهيد لذلك بإثارة الاضطراب في مصر لتضعف مقاومتها فقام جواسيس المهدي في مصر بإثارة الوقيعة بين أهل مصر وأميرها حينذاك ذكا الأعور ثم وجه المهدي ابنه القائم على رأس حملة فاطمية ثانية إلى مصر وتمكنت طلائعها بقيادة سليمان بن كافي من الاستيلاء على الإسكندرية في صفر سنة ٣٠٧ هـ، وانتهج القائم في هذه الحملة الثانية خطة مشابهة لخطته في

الحملة السابقة فوجه إلى الفيوم سليمان بن كافي بينما بقي هو لإدارة العمليات من الإسكندرية:

كانت أحوال مصر حينذاك مضطربة إذ كانت تعاني من أزمة اقتصادية زاد من شدتها استيلاء سليمان بن كافي على محاصيل الفيوم فغلت الأسعار في الفسطاط والعسكر ووقع الوباء في الناس حتى هاجر كثير منهم إلى الشام وزادت الأمور سوءا لوفاة ذكا الأعور في ربيع الأول سنة ٣٠٧ هـ حتى ظلت مصر بدون والي عباسي نحو خمسة أشهر حتى قدم إليها مرة أخرى أبو منصور تكين في شعبان من نفس العام فبادر إلى تجهيز الاستحكامات في الجيزة لمقاومة الحملة واستطاع أسطول عباسي صغير وصل من طرسوس بقيادة ثمل الخادم أن يحطم بمعاونة من الريح الأسطول الفاطمي الكبير عند رشيد في شوال سنة ٣٠٧ هـ فانخفضت معنويات الجيش الفاطمي وتحرج موقف القائم في الإسكندرية بعد أن انقطعت عنه الإمدادات من إفريقية التي كانت هي الأخرى تعاني من شدة اقتصادية فانتقل القائم إلى الفيوم بينما اكتملت القوات العباسية في مصر بوصول مؤنس الخادم في المحرم سنة ٣٠٨ هـ فشن هجوما شاملا برا ونهرا على القائم في الفيوم ، ولم يجد القائم بوسعه التصدي لهذا الهجوم الشامل فانسحب غربا ورحل إلى برقة وعاد مهزوما إلى إفريقية في رجب سنة ٣٠٩ هـ.

وظلت نفس القائم معلقة بمصر ، فلم يكد يتولى الخلافة بعد أبيه المهدي سنة ٣٢٢ هـ حتى استأنف إرسال الحملات إلى مصر ، فبعد عام واحد من توليه الخلافة أرسل حملة بقيادة مولاه زيدان الخادم وبالغ في

تجهيزها والنفقة عليها لكن محمد بن طغج الإخشيد الذي وصل إلى مصر أميرا عليها في رمضان سنة ٣٢٣ هـ بادر بتوجيه أخيه الحسن بن طغج في جيش من خمسة عشر ألفا للتصدي لحملة زيدان فهزمها وأسر كثيرا من جندها وانسحب زيدان إلى إفريقية ، فوجه القائم حملة أخرى في العام التالي سنة ٣٢٤ هـ ليفيد من اضطراب الأحوال في مصر بعد أن ثار فيها معارضو الأمير محمد بن طغج بزعامة حبشي بن أحمد قائد المغاربة وبجكم الأعور قائد المشارقة وكتب حبشي بن أحمد إلى القائم في إرسال جيش إلى مصر يعاونهم في الاستيلاء عليها فأرسل القائم الفاطمي جيشا بقيادة يعيش الكتامي لكن موقف الجيش الفاطمي ضعف بسبب وفاة حبشي بن أحمد فجأة ومع ذلك تلقى بجكم الأعور زعيم المشارقة الحملة الفاطمية وسار على مقدمتها حتى دخل الإسكندرية ثم تقدمت الحملة نحو داخل البلاد فتصدى لها الحسن بن طغج على مقربة من بلدة تروجة وهزمها في جمادى الأولى سنة ٣٢٤ هـ وقتل قائدها يعيش الكتامي بينما هرب بجكم الأعور إلى برقة.

كانت حملة يعيش الكتامي سنة ٣٢٤ هـ نهاية للموجة الأولى الكبيرة من الحملات الفاطمية على مصر ، ويرجع فشل هذه الموجة الأولى إلى عدة عوامل ، فقد كانت الخلافة العباسية لا تزال قادرة على توجيه النجدات العسكرية إلى مصر لمساعدة ولاتها على التصدي للحملات الفاطمية وكان المصريون لا يزالون آملين في تحسن أحوالهم تحت الحكم العباسي غير متأثرين بالدعاية الفاطمية ومن ناحية أخرى كانت ظروف الفاطميين في المغرب لا تساعدهم على النجاح فقد كانت الثورات تندلع ضدهم هناك مما

وزع جهودهم بين الحملات وإخماد الثورات ولم تلبث ثورة أبي يزيد صاحب الحمار أن شغلت الفاطميين تماما عن توجيه الحملات إلى مصر فتوقفت لتنتهي الموجة الأولى من الحملات الفاطمية على مصر كما سبق أن ذكرنا.

لم يظهر المنصور بن القائم بعد توليه الخلافة اهتماما بالاستيلاء على مصر لانشغاله بإخماد ثورة صاحب الحمار ثم إصلاح ما أفسدته وأحدثته من اضطراب وخراب ، واستمر ابنه المعز لدين الله على هذا النهج في أول خلافته ورأى أن استئناف الحملات على مصر لا يكون إلا بعد إصلاح أحوال المغرب وتوطيد سلطانه عليها ، ولذلك يذكر ابن خلكان أن المعز أمر قائده جوهر الصقلي أن " يتجهز للخروج إلى مصر فخرج أولا إلى جهة المغرب لإصلاح أموره "[١] وما إن وطد المعز لدين الله الفاطمي سلطانه على المغرب حتى استأنف جهود أسلافه للاستيلاء على مصر وشن عليها الموجة الثانية من الحملات الفاطمية ، وكانت هذه الموجة الثانية أقصر زمنا لكنها كانت أكثر توفيقا من الموجة الأولى فقد تكللت بالنجاح وحققت أمل الفاطميين في الاستيلاء على مصر.

وإذا كان المعز لدين الله الفاطمي قد استأنف جهود أسلافه الأوائل في توجيه الحملات إلى مصر فقد اتخذ من الترتيب ما هو لازم لتحقيق النجاح وتحقيق أمل الفاطميين في الاستيلاء على مصر ، فقد كان المعز الفاطمي يستطلع أحوال مصر ويتعرف على أخبارها أولا بأول فبث فيها الدعاة والجواسيس الذين يمدونه بأخبارها ، وجاءته الكتب من بعض وجوه أهل

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ص ٢٢٦ .

مصر تدعوه للاستيلاء عليها [١] " وكان له بمصر شيعة فكانوا يقولـــون : إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز الدنيا كلها ويعنون بالحجر الأسود كافور الإخشيدي ، وكان كافـــور يومئـــذ أمير مصـــر نيابـــة عـــن ابـــن الاخشيد " [٢] ، ويذكر المقريزي على لسان المعز نفسه أنه كانت ترد إليــــه كتب من المشرق والمغرب يرد عليها بنفسه [٣] ويفهم مـــن روايـــة أخـــرى للمقريزي أن جواسيس المعز قد تسللوا إلى داخل القصر الاخشيدي إذ يروى أن أم الأمراء زوجة المعز وجهت صبيـــة ربتـــها لتبـــاع فـــي مصـــر فاشتـــرتها ابنة الإخشيد محمد بن طغج فلما عاد الوكيل الذي باعـــها إلـــى المغرب أخبر المعز بذلك [٤] ، ولا يعقل أن يهتم المعز ببيع جارية وأن تعنى زوجته بتربيتها لتباع في مصر دون غيرها من البلدان إلا إذا كـــان لـــهذه الجارية في مصر مهمة خاصة هي التجسس على القصر الإخشيدي.

ولم يكتف المعز بما يصل إليه من معلومات عـــن طريـــق دعاتـــه وأتباعه وجواسيسه فأراد أن يختبر دفاعات مصر بواسطة حملة استطلاعية أرسلها في سنة ٣٥٥ هـ فتصدى كافور الاخشيدي لتلك الحملة عند الواحات وأجبرها على التراجع لكن كافور أدرك الخطر المحدق به من جهة الغـــرب فتودد إلى المعز الفاطمي " فكان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميلـــه إليه " [٥] بل قيل إنه لما أحس بوجود أم المعز بمصر حين مرت بها للحـــج

(١) نفس المصدر جـ١ ، ترجمة جوهر الصقلي .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ، ص ١٣٧ .

(٤) نفس المصدر ، ج١ ، ص ١٤٣ .

(٥) أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٦ .

خفية " حضر إليها وخدمها وحمل إليها هدايا وبعث في خدمتها أجنادا فلمــا رجعت من حجها منعت ولدها من غزو بلاده " (١) .

لم يكن توقف المعز لدين الله مؤقتــا عن إرسال الحمـــــلات إلـــى مصر استجابة لطلب أمه كما ذكر أبو المحاسن ولكنه كان يعد العدة لحملـــة كبيرة وأخيرة يحقق بها الآمال الفاطمية في الاستيلاء على مصر فأخذ فـــي تجهيز الطريق إلى مصر بما يفي بمتطلبات حملة كبيرة فأمــر فـــي سـنة ٣٥٥ هـــ أي في نفس العام الذي صد فيه كافور الحملة عند الواحــات – بالبدء في حفر الآبار على طول الطريق وأن يبني في كل مرحلة قصــرا (٢) ولم يكن هذا القصر بالمفهوم المغربي إلا ثكنة عسكرية قريبة الشبه بالقلعة ، أي أن المعز كان يعد لحرب لا يفكر فيها التراجع إلى إفريقية مــرة أخـــرى وإنما يصمم فيها على الدفاع من مرحلة إلى أخرى إذا لـــزم الأمـــر ، وأراد المعز أن يؤمن ظهره في المغرب قبل الشروع في الحملة الفاصلة فـــأخرج قائده جوهر الصقلي في سنة ٣٥٧ هـــ / ٩٦٧ – ٩٦٨ م " لإصلاح المغـــرب في عسكر عظيم واحتشد كتامة الذين ينهض بهم إلى المشرق وجبـــى مـــن البربر خمسمائة ألف فدوخ المغرب " (٣) .

بينما كان المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة ويهيئ بــــلاد المغـــرب لإرسال حملة فاصلة إلى مصر جاءته الأخبار بوفاة كافور الإخشيدي ســـنة ٣٥٧ هـــ وعلم بسوء أحوال مصر من بعده فاتخذ قراره بإرسال الحملة إلـــى

---

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق ج٤ ، ص ٣٦ .
(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص ١٢٨ .
(٣) المقريزي : المقفى الكبير (تراجم من الفترة العبيدية) ص ٢٦٩ .

مصر في أول سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م. وتوفرت لهذه الحملة عوامل النجاح سواء من جهة الفاطميين أو من جهة مصر نفسها، ففي مصر أدت وفاة كافور الإخشيدي ٣٥٧ هـ إلى دفع الدولة الإخشيدية نحو الهاوية في سرعة بالغة نتيجة عدة عوامل سياسية واقتصادية ، فقد اضطربت الأحوال السياسية وعمت الفوضى بعد أن تولى إمرة الإخشيديين ولد صغير لا يتعدى عمره الحادية عشرة عاما هو أبو الفوارس أحمد حفيد الإخشيد ، وصار هذا الأمير الصغير ألعوبة في أيدي أهل البلاط ورجال الدولة الذين استبدوا بالحكم من دونه خاصة الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات الذي هيمن على مقاليد الأمور في الدولة وجانبت الحكمة كثيرا من تصرفاته فصادر أموال كثير من علية القوم كان منهم يعقوب بن كلس الذي هرب إلى الفاطميين في إفريقية فدلهم على كثير من عورات مصر وحرضهم على غزوها ، وزاد من الفوضى السياسية في مصر بعد وفاة كافور كثرة قلاقل الجند واضطراب أحوالهم لعدم انتظام أرزاقهم ، وعجز الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات عن سد مطالبهم فثاروا عليه ونهبوا داره ودور أصحابه حتى اضطر إلى التخفي منهم مدة خوفا من بطشهم [1] .

أما الأحوال الاقتصادية فقد كانت أسوأ ما تكون في السنوات الأخيرة من عمر الدولة الإخشيدية خاصة بعد وفاة كافور الذي كان وجوده في الحكم يخفف بعضا من حدة الأزمات بما له من قدرة وقوة لكن وفاته فتحت باب الفوضى على مصراعيه فكثرت الفتن والحروب التي راح ضحيتها خلق

---

(١) المقريزي : المصدر السابق ترجمة جعفر بن الفرات ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ترجمة جعفر بن الفرات.

كثير وانتهبت الأسواق واشتعلت الحرائق وأفرط الغلاء حتى أسماه ابن سعيد الأندلسي - من فرط شدته - " الغلاء العظيم " [1].

يصف المقريزي أوضاع مصر حينذاك فيقول " وكان في عامة أرض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء أمر لم يعهد من قبل مثله بحيث إنه أحصي من مات في أيام يسيرة فكانوا ستمائة ألف إنسان ، وكانوا يلقون الغرباء في النيل وبلغ الفروج دينارا والبيضة درهما وبيع الأردب من القمح بثمانين دينارا مع كثرة الفتن وتغلب كل أحد من العمال وغيرهم على ما يليه واختلاف أهل الدولة بمصر من الإخشيدية والكافورية ، وكثرة تحاسدهم وعظم الخوف من هجوم القرامطة على مصر وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام فاختلت من أجل هذا وشبهه الأحوال بديار مصر ، واتضعت أمور الناس ، وتغيرت نياتهم ، وساءت معاملاتهم وفسدت أكثر أوضاعهم ، وشمل الخراب عامة أرض مصر لموت أهلها وقلة أموالها ، وتعذر وجود الأقوات ، وكثرة الخوف وكان بمصر جماعة من دعاة المعز فاستمالوا من القواد ووجوه الرعية ، وأنفذ إليهم المعز بنودا ففرقوها فيمن استجاب لهم وأمرهم أن ينشروها إذا قاربت عساكره مصر " [2] .

هكذا ساءت أحوال مصر في الوقت الذي عجزت فيه الخلافة العباسية عن التدخل لإقالة الإخشيديين من عثرتهم أو استرداد مصر من يدهم كما فعلت من قبل حين ضعفت الدولة الطولونية ، لتحول دون وقوعها في

---

[١] ابن سعيد الأندلسي : العيون الدعج في حلى دولة بني طغج وانظر كتابنا : الأزمات الاقتصادية في مصر الإسلامية ، ص ٤٥ .

[٢] المقريزي : المقفى ، ترجمة جوهر الصقلي

أيدي الفاطميين فقد كانت الخلافة العباسية أسيرة نفوذ بني بويه الشيعة الزيدية الذين يناهضون العباسيين وليس أدل على عجز الخلافة العباسية من قول الخليفة العباسي المطيع لله لعز الدولة بختيار البويهي حينما طلب منه الأخير مالا بدعوى مجاهدة الروم " ما يلزمني نفقة ولا شيء مما تنظر فيه الأئمة وإنما لكم من هذا الإسم الذي تخطبون على منابركم تسكنون به رعاياكم فإن أحببت أن أعتزل إعتزلت عن هذا المقدار أيضا وتركتكم والأمر كله "[١] ، ومن ثم كان على الإخشيديين الضعفاء مواجهة الفاطميين وحدهم فباتت مصر مهيأة لاستيلاء الفاطميين عليها لا سيما وأن أكثر أهل مصر كانوا قد كتبوا إلى المعز ببلاد المغرب يستحثونه على المسير إلى مصر وأخذها لعجز ولاة الأمور فيها عن القيام بأمرها [٢] .

ولما كان المعز لدين الله الفاطمي قد اتخذ الإجراءات والترتيب التي تكفل نجاح الحملة التي قرر إرسالها إلى مصر فقد توفرت لديه المعلومات اللازمة وجهز الطريق لسير الحملة تجهيزا جيدا - كما ذكرنا - وأعد لها جيشا قويا وافر العدد والعدة قوامه من كتامة وأصدق البربر ما يزيد على مائة ألف في تقدير المؤرخين ، وأجزل لهؤلاء الجند العطاء كل حسب منزلته ما بين ألف إلى عشرين دينارا ، واختار لقيادة هذه الحملة الفاصلة أشهر قواده وأكثرهم كفاءة ، جوهر الصقلي ، الذي أظهر في حملاته لإخضاع المغربين الأوسط والأقصى كفاءة لا تبارى ، وأمده بالمال الوفير

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٢) المقريزي : المصدر السابق ، ترجمة جعفر بن فلاح .

اللازم للإنفاق على الحملة ولاستمالة المصريين [١] فقد خرجت الحملة إلـى مصر في وقت ملائم في ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ / فبراير سنـة ٩٦٩ م وهو آخر الشتاء لتقطع الحملة طريقها إلى مصر في فصل الربيع فلا يكـابد الجند برد الشتاء ولا حر الصيف وأحاط المعز خروج الحملة بتظاهرة دعائية لرفع معنويات جنودها فخرج لوداعها بنفسه وبنيه ودبجت العبارات الطنانـة وأنشد الشعراء قصائد عصماء في تمجيد المعز والحملة.

وسار جوهر في الطريق الممهد ولكنه وصل إلى مصر في الثـامن عشر من شعبان من نفس العام [٢]، أي أنه قطع في سيره إلى مصر نحـو أربعة أشهر وهي مدة طويلة، إن دلت على شيء فإنما تدل على بطء تحرك الجيش الفاطمي لضخامته من ناحية ولحرص جوهر من ناحية أخرى علـى عدم إجهاد جنده بالتحرك السريع حتى يصلوا إلى مصر موفـوري القـوى فيمكنهم التصدي لأي مقاومة إخشيدية محتملة، لكن المقاومـة الإخشـيدية كانت أضعف من أن تذكر وأوفد المصريون وفداً من وجـوه النـاس فيـهم الشريف أبو جعفر مسلم الحسيني والشريف أبو إسماعيل إبراهيـم الرسـي الحسني والقاضي أبو الطاهر محمد الذهلي فضلاً عن أبي الطيب العباس بـن أحمد العباسي فالتقوا بجوهر الصقلي عند تروجة – وهي قرية على مقربـة من الإسكندرية – ففاوضوه على تسليم مصر له على أن يؤمنهم فأجابهم إلـى

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ترجمة جوهر الصقلي، وابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١، ترجمة جوهر الصقلي.

(٢) يختلف تاريخ خروج الحملة من المنصورية عند المقريزي من كتاب لآخر ففي اتعاظ الحنفا يذكر أنه في الرابع عشر من ربيع الأول، أما في المقفى (ترجمة جوهر) فيؤخر الخروج إلى الرابع والعشرين من نفس الشهر.

طلبهم وكتب لهم أمانا تعهد فيه بأن يطلق للمصريين حرية العقيدة وإصلاح أحوال البلد ونشر العدل وحماية مصر من المغيرين عليها [١].

وتوهم بعض الجند من الإخشيدية والكافورية أنهم يستطيعون مقاومة الجيش الفاطمي ويبدو أنهم كانوا لا يعرفون ضخامة هذا الجيش ولا يدركون أنهم لا طاقة لهم به فلم يذعنوا للصلح وعهد الأمان الذي حصل عليه الشريف أبو جعفر الحسيني وصحبه من جوهر الصقلي، وظنوا أنهم إذا حرسوا الجسور منعوا جوهر الصقلي وجيشه من العبور إلى الفسطاط [٢] لكن جوهر الصقلي وضع خطة محكمة لقتالهم فاستصدر فتوى من القاضي الذهلي تحل قتالهم باعتبار أنهم يمنعون سيره قدما لمجاهدة الروم البيزنطيين، وبذلك فقد هؤلاء الجند الإخشيدية والكافورية تعاطف المصريين ومساندتهم فلم نقرأ عن خروج العامة للمشاركة في قتال الفاطميين كما كان يحدث في الحملات الأول، وعبر بعض جند جوهر النيل عند مخاضة منية شلقان بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي فاستولوا على المراكب الواردة من تنيس ودمياط والوجه البحري فامتنع وصول المؤن إلى الفسطاط وضاق أهلها بالإخشيديين بينما أرسل جوهر جيشا بقيادة عبد العزيز بن هيج الكلابي فاستولى على الفيوم فضج المصريون وتخلوا تماما عن الجند الإخشيدية والكافورية فانهزموا عند أول لقاء لهم بجند جوهر وفر بعضهم إلى المشرق واستأمن بعضهم الآخر، وطلب المصريون من الشريف أبي جعفر مسلم الحسيني أن يسأل جوهر إعادة الأمان الذي سبق أن منحهم إياه

---

(١) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: صلة كتاب أوتيخا ص ١٣٢ - ١٣٣.

فاستجاب لهم جوهر ليستميل المصريين الذين يتطلع الفاطميون لأن يتخذوهم عدة لهم ويتخذوا من بلدهم مقرا لخلافتهم، وفي السابع عشر من شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ / ٦ يوليه ٩٦٩ م خرج وجوه الناس وأعيانهم لاستقبال جوهر الصقلي الذي دخل الفسطاط على رأس جيشه تدق طبوليه وترفرف أعلامه وبنوده ونزل بالموضع الذي ابتنى فيه بعد ذلك مدينة القاهرة ، وبذلك حقق الفاطميون أملهم في الاستيلاء على مصر بعد طول انتظار وجهود مضنية استغرقت أكثر من نصف قرن من سنة ٣٠١ هـ حتى سنة ٣٥٨ هـ .

الخـلافـة الفـاطميـة في مصـر

لم يكن استيلاء الفاطميين على مصر مجرد قيام دولة فيها بدلا من دولة أخرى بل كان استيلاؤهم عليها ثم اتخاذها حاضرة لخلافتهم قمة ما وصلت إليه الوضعية السياسية لمصر الإسلامية التي ارتفعت من ولاية تابعة للخلافة الراشدة فالأموية فالعباسية إلى إمارة مستقلة في العصرين الطولوني والإخشيدي مع تبعيه إسمية للخلافة العباسية ثم أصبحت في العصر الفاطمي خلافة تضاهي الخلافة العباسية وتتفوق عليها أحيانا وتسعى إلى الإطاحة بها وأن تحل محلها في زعامة العالم الإسلامي.

لقد كان استيلاء الفاطميين على مصر تغييرا هاما سياسيا ودينيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ، وخطت مصر تحت الحكم الفاطمي أول خطوة نحو زعامة العالم الإسلامي التي تستحقها بما توافر لها من عوامل استراتيجية واقتصادية وبشرية ، فلا شك أن مصر بموقعها في قلب العالم الإسلامي وإشرافها حينذاك على الحرمين الشريفين وبما لها من موارد متنوعة وبمن بها من سكان متميزين كما وكيفا واعتدال معتقدهم واستقرار أحوالهم وميلهم إلى الدعة والبعد عن الشطط والغلو ، كل ذلك يجعلها أصلح البلدان لزعامة العالم الإسلامي ، وكان الفاطميون على وعي بذلك فجعلوا الاستيلاء على مصر واحدا من أهم طموحاتهم ليتخذوا منها مقرا لخلافتهم.

۞ ولاية جوهر الصقلي على مصر :

تولى جوهر الصقلي مقاليد الأمور في مصر نيابة عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي نحو أربع سنوات (٣٥٨ – ٣٦٢ هـ) قام فيها بأعمال

تحضيرية هامة للتمهيد لانتقال المعز إلى مصر ، ولتتخذها قاعدة للخلافة الفاطمية ، ويمكن إيجاز ما قام به جوهر من أعمال فيما يلي :

١- **بناء القاهرة** :- كان أول عمل قام به جوهر الصقلي بعد استيلائه على مصر هو تخطيط مدينة ملوكية جديدة هي مدينة القاهرة [1] إختار موقعها في نفس المنطقة التي أقيمت فيها حواضر مصر الإسلامية منذ فتحها وحتى العصر الإخشيدي بدءا بالفسطاط ومرورا بالعسكر ووصولا إلى قطائع أحمد بن طولون ، فلقد اختط عمرو بن العاص - فاتح مصر - فسطاطه عند رأس الدلتا بالقرب من بابليون وأطلال مدينة منف القديمة وكان اختيارا حكيما لموقع حاضرة تتوسط بين الوادي والدلتا وتعد ذات موقع مثالي من وجهة النظر الاستراتيجية ، وجاءت العسكر التي اختطها صالح بن على العباسي إلى الشرق من الفسطاط ثم جاءت قطائع أحمد بن طولون إلى الشرق من العسكر وإلى الشمال الشرقي من الفسطاط ومن الواضح أن تشرق العسكر والقطائع كان لتوكيد الصلة بين مصر والعباسيين فلما اختط جوهر مدينة القاهرة جاءت في نفس الاتجاه ولكن ليس لتوكيد الصلة بالعباسيين وإنما للانطلاق منها إلى الشام وإلى مواجهة العباسيين والقضاء عليهم.

كان أول ما بدأ به جوهر من خطط هو اختطاط القصر أي إنشاء مقر الحكم الفاطمي ، ثم أدار السور حول المدينة وجعلها حارات

---

(١) المقريزي : المقفى ، ترجمة جوهر الصقلي وابن خلكان : المصدر السابق ط١ ترجمة جوهر الصقلي.

للواصليين صحبته وصحبة الخليفة المعز ولم يختط الجامع إلا في سنة ٣٥٩ هـ.

وقيل إن جوهر الصقلي أطلق على المدينة الجديدة أول الأمر اسم المنصورية نسبة إلى المنصور أبي الخليفة المعز وهو نفس الاسم الذي كانت تحمله آخر حواضر الفاطميين في إفريقية ومنها انتقل المعز إلى مصر. وقيل إن اسم المنصورية ظل قائما حتى قدم المعز إلى مصر فأطلق على المدينة اسم القاهرة لكن هذا القول لا يسلم من الشك والمؤكد أن جوهر هو الذي أطلق اسم القاهرة على المدينة التي اختطها.

ولقد اختلف المؤرخون في سبب تسمية المدينة باسم القاهرة فقيل أن جوهرا أحضر المنجمين وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس على سبيل التيمن، وتصادف أن غرابا حرك الأجراس فظن العمال أن المنجمين حركوها فابتدأوا العمل فصاح المنجمون " القاهر في الطالع " وكان المريخ - وهو قاهر الفلك - فسموها القاهرة أملا في أن يتحول هذا الطالع غير السعيد إلى نتيجة مظفرة [1].

لكننا نجد مثل هذه الأساطير تنسج عادة مصاحبة لإنشاء المدن الكبرى مثل روما والقسطنطينية وغيرها، ومنشأ تلك الأساطير فيما يبدو رغبة كل أهل مدينة في تمجيد مدينتهم والتغني بفضائلها ورفعها فوق سائر المدن من ناحية ومن ناحية أخرى ميل عقلية العصور القديمة والوسطى إلى الأساطير لتفسير الأحداث الهامة الغامضة التي يجهلون كيفية حدوثها.

---

(١) ستانلي لين بول : سيرة القاهرة ، ص ١١٦ .

وقيل إن بقصور القاهرة قبة تسمى القاهرة فسميت المدينة على اسمها [١]. والأرجح أن اسم المدينة مأخوذ من قول المعز لو خرج جوهر هذا وحده بسوطه لفتح مصر وليدخلن في خرابات ابن طولون ، ويبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا " [٢] .

أما الجامع الأزهر الذي شرع جوهر في بنائه سنة ٣٥٩هـ واستغرق بناؤه نحو عامين فقد كان يسمى أولا جامع القاهرة ثم أطلق عليه اسم الجامع الأزهر وقد فسر ذلك على أكثر من وجه فقيل إنه كان محوطا بالقصور الزاهرة فسمي بذلك الاسم تعبيرا عن هذه الصورة المشرقة الزاهرة وقيل بل سمي بالأزهر تيمنا وتفاؤلا بأن العلوم ستزدهر فيه أما الأرجح فإنه سمي بذلك نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ والتي يرفع الفاطميون نسبهم إليها وإلى زوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

٢ – **أعمال جوهر الإدارية** :- احتوى كتاب الأمان الذي كتبه جوهر للمصريين على بعض الخطوات المرتقبة مثل تأمين البلاد وضبط أحوالها وقد كان أول ما إهتم به جوهر إداريا هو أن قطع الخطبة للخليفة العباسي وخطب للمعز لدين الله الفاطمي بدلا منه وأزال السواد العباسي وأحل البياض الفاطمي ، وقد حدث ذلك منذ يوم الجمعة التالي لدخول جوهر الصقلي إلى مصر ، فلقد صلى جوهر يوم ذاك في الجامع العتيق وخطب للناس هبة الله بن أحمد خليفة عبد السميع بن عمر العباسي بيبياض

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٤٢ .
(٢) المقريزي : المقفى ترجمة جوهر الصقلي.

حتى بلغ الدعاء فدعا للمعز لدين الله الفاطمي ، وبهذا تم الإعلان رسميا عن إعلان التبعية للفاطميين وبداية مصر الفاطمية [١].

وفيما عدا ذلك لم يقم جوهر الصقلي بالتغييرات الإدارية دفعة واحدة حتى لا تضطرب أحوال البلاد وإنما قام بها تدريجيا فجعل في البداية أبا الفضل جعفر بن الفرات على الشئون المالية والقاضي أبا الطاهر الذهلي على القضاء وأبقى على الخطبة في الجامع العتيق عبد السميع بن عمر العباسي ويبدو أن خطيب الجامع العتيق عبد السميع بن عمر العباسي هذا لم يكن راضيا عن قطع خطبة العباسيين ولا متحمسا للخطبة للفاطميين ولذلك خطب بدلا منه يوم قطع الخطبة للعباسيين خليفته هبة الله بن أحمد ، ومع ذلك ظل عبد السميع العباسي محتفظا بمنصبه في الخطبة بالجامع العتيق لكن يبدو أن جوهرا كان يمارس عليه ضغوطا ليتقبل الخطبة للفاطميين لأن خطبته لهم - وهو العباسي - يخدم الدعاية الفاطمية ، لكن عبد السميع لم يرضخ لضغوط جوهر رضوخا كاملا وحاول التحايل عليها فخطب يوم الجمعة الذي أذن فيها لأول مرة في مصر بحي على خير العمل في جامع ابن طولون بحضور جوهر وهو يرتدي قلنسوة وشي وطيلسان وشي وقرأ سورة المنافقون ونسي أن يركع أو تناسى ذلك ولم يقرأ البسملة في كل سورة ولا قرأها في الخطبة فأجبره جوهر على فعل ذلك في الجمعة التالية ، بل إن عبد السميع دعا في الخطبة لجوهر دون الخليفة الفاطمي فأنكر عليه جوهر ذلك ومنعه من الدعاء له [٢] وأخذ جوهر يجري بعض التغييرات

---

[١] المقريزي : المصدر السابق ، ترجمة جوهر الصقلي .

[٢] المقريزي : اتعاظ الحنفا جـ١ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

فولى الخطبة في الجامع العتيق رجلا هاشميا وقبض الأحباس من القاضي أبي طاهر وردها إلى عزه وهكذا كانت التغييرات الإدارية تدريجية حتى لا تضطرب الأحوال.

٣- **إجراءات جوهر الدينية** :- تعهد جوهر للمصريين في كتاب الأمان بعدم التدخل في معتقدهم وضمن لهم الحرية الدينية فجاء في نص كتابه " إقامتكم على مذاهبكم وأن تتركوا على ما أنتم عليه من أداء الفروض في الاشتغال بالعلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم وأن يجري فرض الأذان والصلاة وقيام شهر رمضان وفطرة الزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله به ونصه نبيه ﷺ في سنته وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه " [١]
لكن جوهرا لم يلتزم بما تعهد به للمصريين لا سيما وأن عبارته بها من التعميم ما يحتمل التأويل ويمكن لكل فريق من أهل السنة والشيعة أن يفسرها على الوجه الذي يراه مناسبا لمعتقده.

ابتدأ جوهر تغييراته الدينية لتحويل مصر من بلد سني إلى شيعي بإفطاره من صوم رمضان سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م على عدد بغير رؤية وصلى صلاة العيد بمصلى القاهرة قبل أهل مصر بيوم ، فقد أفطر المصريون وصلوا صلاة العيد في اليوم التالي بعد أن غمت عليهم رؤية هلال شوال ، وكان القاضي أبو طاهر الذهلي قد التمس الهلال على رسمه من فوق سطح الجامع العتيق فلم يره ، ولما علم جوهر بما قام به القاضي

---

(١) المقريزي : المقفى ، ترجمة جوهر الصقلي ، واتعاظ الحنفا ، ج١ ص ١٥١ .

من طلب الهلال أنكره وعتب عليه وتهدده [٣] فأشار شهود القاضي عليه ألا يطلب الهلال ثانيا لأن الصوم والفطر على عهد الفاطمية قد أصبح عددا بـلا رؤية [٢] . ومع أن الرواية تشير فقط إلى ما حدث عند بـدء الفطـر فإننـا نتصور أن مشكلة مماثلة قد حدثت عند بدء صوم نفس الشهر الذي كانت لـه نهايتان جاءت كل منهما بعد صوم امتد ثلاثين يوما ، وقد جـاءت النهايـة الأولى عددا لدى الإسماعيلية الشيعة وتلتها النهايـة الثانيـة رؤيـة لـدى المصريين السنة ومعنى هذا أن الشهر كانت له أيضا بدايتان لأن اختـلاف النهاية مع ثبات المدة يلزم أن تكون البداية أيضا مختلفة ، لكن الرواية التـي وصلتنـا أشـارت إلى مشكلة النهايـة ولم تشـر إلى مشكـلة البـداية التي كان وقوعها حتميا.

توالت الإجراءات الدينية التي اقدم عليها جوهر الصقلي ، ففي يـوم الجمعة ٨ ذو القعدة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م زاد في الخطبة الصلاة علـى علـي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين وعلى الأئمة الراشدين أباء أمير المؤمنين الهاديين [٣] ، وفي يوم الجمعـة ٨ مـن جمـادي الأول ٣٥٩هـ / ٩٧٠م حدث تغيير خطير إذ أمر جوهر بأن يؤذن المؤذنون بحي على خير العمل ، وهو أمر اضطرب له أهل السنة حتى أن صاحب الخطبـة والصلاة عبد السميع العباسي قرأ سورة الجمعـة " إذا جـاءك المنـافقون " تعريضا بالفاطميين ، وبلغ من اضطرابه أن نسي أن يركع وسجد بلا ركـوع

---

(١) المقريزي : المقفى ، ترجمة جوهر الصقلي ، واتعاظ الحنفا ، ج١ ص١٦٥ .
(٢) الكندي : الولاة والقضاة ، ص٥٨١ .
(٣) المقريزي : المقفى ، ترجمة جوهر الصقلي.

في الركعة الثانية ، مما أغضب علي بن الوليد قاضي عسكر جوهر واعتبر الصلاة باطلة يجب إعادتها ظهرا أربع ركعات [1] ، ثم أمر جوهر بالجهر بالبسملة في الصلاة ، والقنوت في الركعة الثانية من صلاة الجمعة وكانوا لا يفعلون ذلك بمصر على حد قول المقريزي.

ومع أن جوهرا كان قد تعهد في كتاب الأمان بأن يجري في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ إلا أنه أخلف عهده بعد أقل من عام مضى على استيلائه على مصر فقد أمر في المواريث بالرد على ذوي الأرحام وألا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم ولا يرث مع الولد ذكرا كان أو أنثى إلا الزوج والزوجة والأبوين والجدة ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد " مخالفا بذلك أحكام أهل السنة فلما خاطبه القاضي أبو الطاهر الذهلي في بنت وأخ وأنه قد كان حكم قديما للبنت بالنصف والأخ بالباقي فقال له جوهر " يا قاضي هذه عداوة لفاطمة عليها السلام " [2].

٤- **الإجراءات الاقتصادية** :- دخل الفاطميون مصر سنة ٣٥٨هـ والأزمة الاقتصادية التي أودت بالدولة الإخشيدية على أشدها ، ورغم تحسن الأحوال نسبيا إلا أن الأزمة الاقتصادية كانت من الشدة حيث استغرقت إزالة آثارها بضع سنين حتى سنة ٣٦١هـ بذل فيها جوهر الصقلي جهودا كبيرة لعلاج تلك الأزمة وتخفيف حدتها فقام بتوزيع الإعانات المالية على محدودي الدخل من المستورين والفقراء وخفف الضرائب

---

[1] المقريزي : المصدر السابق ، ترجمة جوهر الصقلي .

[2] نفس المصدر نفس الترجمة.

ونادى برفع البراطيل ، وولى الحسبة محتسبا حازما هو سليمان بن عزة الذي وجد أن الغلاء يتزايد في سنة ٣٥٩هـ رغم وفاء النيل في هذه السنة فأدرك أن هناك تلاعبا في الأسعار فضبط الساحل وجمع الطحانين في موضع واحد وأشرف على بيع القمح إشرافا كاملا وراقب الطحانين مراقبة دقيقة وعاقب المخالفين منهم حتى أنه ضرب منهم أحد عشر رجلا وطيف بهم [١].

نجح جوهر الصقلي في التخفيف من حدة الأزمة الاقتصادية بعد جهد جهيد ويبدو أنه أدرك ضرورة إجراء إصلاحات أساسية في الاقتصاد المصري فاهتم بالزراعة باعتبارها عصب هذا الاقتصاد واعتنى بإصلاح الجسور والقناطر وكانت نتيجة ذلك أن زاد الخراج [٢].

وكان جوهر قد وعد في كتاب الأمان بتجويد السكة وتحسين عيارها وقطع الغش منها ، ولذلك فقد بادر جوهر إلى إصلاح النقد وضرب في مصر السكة الحمراء أي الدينار الأحمر والمقصود به الدينار المعزي الذي كان عالي العيار وجعله الأساس في التعامل النقدي بينما ضيق على الدنانير العباسية كالدينار الراضي الذي عليه اسم الراضي بالله العباسي وكانت قيمته خمسة عشر درهما بينما كانت قيمة الدينار المعزي خمسة وعشرون درهما ونصف ، وكان هناك دينارا آخر يسمى الدينار الأبيض يجري به التعامل اليومي بين الناس وقيمته عشرة دراهم فأراد جوهر منع التعامل به فلم يرض الناس بذلك فخفض جوهر قيمته إلى

---

(١) محمد بركات البيلي : الأزمات الاقتصادية في مصر الإسلامية ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج١ ص ١٩١.

ستة دراهم فتدهورت قيمته وأفلس خلق كثير [1]. ثم أمر جوهر بوقف التعامل نهائيا بالدينار الأبيض لكن الناس لم يرضوا بذلك مما دعا جوهر إلى إعادة النظر في تقييم الدنانير فجعل قيمة الدينار الأبيض ثمانية دراهم. ويبدو أن هذه الإجراءات النقدية أغضبت الصيارفة فشغب طائفة منهم فعزرهم المحتسب فزاد غضبهم وصاحوا " معاوية خال علي بن أبي طالب " مما أغضب جوهرا أشد الغضب حتى أنه هم بإحراق رحبة الصيارفة لولا خوفه على الجامع [2].

٥- الاستيلاء على بلاد الشام :- إذا كانت مصر قد فتحها عمرو بن العاص لتأمين الفتوح الإسلامية في بلاد الشام فقد أصبحت بلاد الشام منذ قدم الدولة الطولونية في مصر مطلبا استراتيجيا لكل من الطولونيين والإخشيديين ثم الفاطميين وتشابهت العوامل التي دفعتهم جميعا إلى الاستيلاء على بلاد الشام ومنها :-

(أ) الضرورات العسكرية والاستراتيجية باعتبار الشام مفتاح مصر من جهة الشرق ولابد من الاستيلاء عليها لمواجهة الدولة العباسية. وكان الفاطميون يرون في العباسيين خصمهم اللدود الذي لابد من الخلاص منه لينفردوا بالخلافة في العالم الإسلامي وبزعامته. وكان استيلاء الفاطميين على بلاد الشام استكمالا للاستيلاء على أملاك الإخشيديين الذين كانت لهم مصر والشام معا ، كما كان الاستيلاء على بلاد الشام تأمينا للوجود الفاطمي

---

[١] المقريزي : المقفى ، ترجمة جوهر الصقلي.

[٢] المقريزي : اتعاظ ، ج١ ص١٧٢ ، ص١٨٣ .

في مصر بالقضاء على بقايا الإخشيديين في الشام الذين قد يحاولون استعادة مصر من الفاطميين.

(ب) كان على الفاطميين أن يتصدوا للقرامطة الذين تمردوا على الخليفة الفاطمي وهاجموا بلاد الشام ودخلوا دمشق سنة ٣٥٧هـ دون الرجوع إلى الخليفة الفاطمي بعد أن كان القرامطة أتباعا له ويرجعون إليه في شئونهم فكان من الضروري أن يدعم الفاطميون هيبتهم وزعامتهم للشيعة الإسماعيلية التي كان القرامطة يعدون فرعا منهم.

(ج) التصدي للبيزنطيين الذين كانوا قد انتهزوا ضعف الدولة العباسية وشنوا عدة هجمات على بلاد الشام بعد اعتلاء الأسرة المقدونية عرش بيزنطة خاصة الإمبراطور نقفور فوقاس والإمبراطور حنا زمسكس، وقد عقد الفاطميون العزم على التصدي للخطر البيزنطي الذي تهدد بلاد الشام ليكسبوا محبة العالم الإسلامي ويحرزوا الزعامة فيه باعتبارهم حماة الإسلام، فضلا عن أن الفاطميين خافوا أن يستولي البيزنطيون على الشام فينقلب الميزان العسكري لصالحهم مما يهدد العالم الإسلامي كله بما فيه الدولة الفاطمية.

(د) الأهمية الاقتصادية لبلاد الشام كمصدر للأخشاب اللازمة لصناعة السفن التي اهتم الفاطميون ببنائها لإنشاء أسطول كبير يمكنهم من السيطرة على شرق البحر المتوسط فضلا عن أن استيلائهم على الموانئ الشامية لا يساعد فقط على تزايد قدراتهم البحرية وإنما يؤدي أيضا إلى إحكام قبضتهم على التجارة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وتجارة الشرق.

لتلك الأسباب قـام جوهر الصقلي بعد استيلائه على مصر بإرسال حملة إلى بلاد الشام بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي سنة ٣٥٩هـ فتمكن جعفر بن فلاح من هزيمة الحسن بن عبيد الله الإخشيدي واستولى علـى دمشـق وخطب فيها للمعز لدين الله الفاطمي ، لكن استيلاء الفاطميين على دمشق فتح باب الصراع على مصراعيه بينهم وبين القرامطة بعد أن رفض الفـاطميون أن يدفعوا للقرامطة إتاوة كان يدفعها لهم الإخشيديون خاصة وأن الحسن بـن أحمـد أمير القرامطـة الملقب بالأعصم كان قد خـالف سنـة أسـلافه وخلع الطاعة والولاء للفاطميين.

لقد كان الفاطميون والقرامطة على وفاق منذ أيام الخليفـة المـهدي الذي كان القرامطة يأتمرون بأمره ويعينونه في نشاط دعوته بالعراق وببلاد المشرق حتى ان الحملة الفاطمية الأولى التي وجهها المهدي إلى مصر سـنة ٣٠١هـ / ٩١٢م كانت بالتنسيق مع القرامطة الذيـن قام زعيمهم حينـذاك أبو سعيد الجنابي بحملة على البصرة لصرف أنظار العباسيين عن مصـر ، لكن هذا الوفاق ما لبث أن تحول إلى عداء ووقف الحسن بن أحمد الأعصـم في وجه الفاطميين حفاظا على نفوذه في بلاد الشام بعد أن طمع الفـاطميون في الاستيلاء عليها ورفضوا أن يدفعوا له الإتاوة التـي كـان يدفعـها لـه الإخشيديون. وهناك من يرجع بداية العداء بين القرامطة والفاطميين إلى مـا قبل استيلاء الفاطميين على الشام ويعزو ذلك إلى سببين :-

أولهما إجبار الفاطميين للقرامطة على رد الحجر الأسود إلى مكانـه بالكعبة سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م ، وإن كان امتثـال القرامطـة لـهذا الأمـر الفاطمي يدل - في رأينا - على طاعتهم للفاطميين حتى أن أحمد بـن أبـي

سعيد الجنابي رفض قبول عرض الخليفة العباسي المطيع لله بـرد الحجـر الأسود مقابل خمسون ألف دينار.

ثانيهما اعتبار القرامطة وجود الفاطميين في قلب العالم الإسلامي في مصـر والشام خطرا عليهم يهدد نفوذهم فكانوا يفضلون البقاء في ظل خلافـة عباسية ضعيفة تخالفهم مذهبا على تلاشي نفوذهم في وجود خلافة فاطميـة قوية وإن وافقتهم في المذهب.

أجرى القرامطة بعد استيلاء الفاطميين على مصـر وتطلعهم إلـى الشام تغييرات في قيادتهم تتناسب مع سياستهم الجديدة في معاداة الفـاطميين فتخلصوا من سابور بن أبي طاهر القرمطي -الذي كان يوجه جهوده ضـد العباسيين وقتلوه بعد شهر واحد من استيلاء جوهـر علـى مصـر ، وأدى الخلاص من سابور إلى التقارب بين القرامطة والعباسيين في الوقت الـذي ساءت فيه العلاقة بين القرامطة والفاطميين بعد أن رفض الخليفة المعز لدين الله أن يدفع للحسن بن أحمد الأعصم الإتاوة التي كان يدفعها الإخشـيديون ، بل سعى المعز الفاطمي في خلع الأعصم من زعامة القرامطة وإعادتها إلـى أسرة أبي طاهر فخلع الأعصم طاعة المعز الفاطمي وخطب للمطيع العباسي وقام بمهاجمة الفاطميين في الشام.

لم يكن القرامطة وحدهم أعداء الفاطميين على الساحة الشـامية بـل كانت هناك أطراف أخرى شيعية وسنية ، فالحمدانيون الشيعة كانوا يخشـون استيلاء الفاطميين على بلاد الشام مما يمثل لهم تـهديدا قويـا خاصـة وأن الحمدانيين الشيعة كانوا يدركون أطماع الفاطميين في الانفراد بزعامة العـالم الإسلامي ، ولذلك ساعد الحمدانيون القرامطـة وقـاموا بتحريضـهم ضـد

الفاطميين وقد فضل القرامطة مصالحهم السياسية على ميولهم المذهبية فتحالفوا مع العباسيين ودعوا للخليفة العباسي على المنابر واتخذوا شعار السواد ليستميلوا أهل الشام – وأغلبهم سنة – ضد الفاطميين.

في ضوء ذلك كله وقع الصدام بين جعفر بن فلاح قائد الجيش الفاطمي في الشام والحسن بن أحمد الأعصم قائد القرامطة، وانهزم جعفر بن فلاح شر هزيمة وقتل في سنة ٣٦٠هـ / ٩٧١م نتيجة الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها، فقد استهان بالقرامطة ولم يحسن الاستعداد لقتالهم، وتجاهل أن يكتب إلى جوهر الصقلي في مصر ليستمده، فقد شمخت نفسه عن التبعية لجوهر فتخطاه وكتب رأسا إلى المعز لدين الله الفاطمي بالمنصورية في إفريقية، لكن المعز رد إليه كتبه دون أن يفضها وأفهمه أن يطيع جوهر الصقلي وألا يخطاه لأنه تابع له فغضب جعفر بن فلاح وشمخ بنفسه ولم يكاتب جوهرا بشيء من أمره حتى أوقع به القرامطة.

وكان من الأخطاء التي وقع فيها جعفر بن فلاح غدره بعدد من أمراء النواحي في بلاد الشام وإساءته معاملة أهل دمشق فتخلى الجميع عنه حين هاجمه الحسن بن أحمد الأعصم أمير القرامطة، وانجلى الموقف عن هزيمة نكراء لجعفر بن فلاح والفاطميين واستيلاء الحسن بن الأعصم القرمطي على دمشق، ثم اتجه جنوبا للاستيلاء على جنوب الشام وفلسطين وتمكن من ذلك وتطلع إلى أكثر منه، إلى الاستيلاء على مصر نفسها.

زحف الحسن بن أحمد الأعصم القرمطي نحو مصر مشكلا تهديدا خطيرا للفاطميين في مصر بعد أقل من ثلاثة أعوام من استيلائهم عليها فاستولى الأعصم على القلزم وتقدم حتى وصل إلى عين شمس ومنها إلى

القاهرة حيث استعد جوهر الصقلي لملاقاته استعدادا جيدا فقد حصن القاهرة بأن حفر خندقا حول المناطق التي يخشى مهاجمة المدينة من ناحيتها خاصة جهة الشرق ويذكر المقريزي أن جوهر الصقلي " ضبط الداخل والخارج ، وقبض على أربعة من الجند المصريين ، وضرب أعناقهم وصلبهم وبعث فأخرج ابن الفرات من داره وأسكنه القاهرة " (١) أي أن جوهرا أخذ احتياطاته كيلا يقوم الطابور الخامس من المناهضين للفاطميين بطعنه من الخلف حين لقاء القرامطة ، والواقع أن المصريين لم يتعاطفوا مع الغازي القرمطي الذي كانت تسبقه سمعته السيئة ومن ثم لم يكن من المتوقع أن ينحاز المصريون إلى القرامطة ضد جوهر الصقلي.

استمرت المعركة بين الحسن الأعصم القرمطي وجوهر الصقلي الفاطمي ثلاثة أيام انتهت بهزيمة القرامطة شر هزيمة فاضطروا إلى التقهقر والعودة إلى قواعدهم في الأحساء ، وتمكن الفاطميون من استعادة معظم فلسطين بعد ثلاثة أيام فقط من انسحاب القرامطة عن مصر . وهكذا تمكن جوهر الصقلي من الحفاظ على مصر حتى وصل إليها المعز لدين الله الفاطمي في سنة ٣٦٢هـ فسلم إليه جوهر مقاليد الأمور وتولى المعز بنفسه مهمة التصدي للقرامطة.

تأخر انتقال المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر فلم ينتقل إليها إلا بعد أربع سنوات من استيلاء جوهر الصقلي عليها على الرغم من شدة شوق الفاطميين للانتقال إلى مصر ، ويبدو أن تأخره هذا لم يكن فقط بسبب انشغاله في ترتيب أوضاع المغرب وضمان ولائها بعد رحيله عنها وإنما

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج١ ص١٨٢ .

أيضا لأنه لم يرغب في القدوم إلى مصر إبان الأزمة الاقتصادية فيها كيلا يتشاءم المصريون بقدومه إليهم ويقترن قدومه في أذهانهم بتلك الأزمة التي عانوا منها طويلا ، فمن المعروف أن الدعاية الفاطمية كانت رفيعة المستوى وعلى وعي بالنواحي النفسية لمن تخاطبهم وكانت التقارير تصل إلى المعز من مصر بصفة منتظمة لتخبره بأحوالها ومن ثم تريث في قدومه إليها بل إنه تمهل في رحلته بعد أن خرج من المنصورية في سنة ٣٦١هـ فوصل إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ فاستغرقت الرحلة قرابة عام ، ولم يكن بطء سيره راجعا فقط إلى كثرة متاعه وأحماله وحمله جثث آبائه الخلفاء الثلاثة الأول معه إلى مصر وإنما يرجع أيضا إلى رغبته في التأكد من انتهاء الأزمة الاقتصادية وتلاشي آثارها تماما قبل وصوله كي يتيمن به المصريون ولا يتطيروا منه [1].

وعلى أي حال بوصول المعز الفاطمي إلى مصر وتسلمه مقاليد الأمور فيها يبدأ في مصر الإسلامية عصر جديد هو عصر الخلافة الفاطمية التي امتدت لأكثر من قرنين من الزمان حتى سقوطها في سنة ٥٦٧هـ ويمكن تقسيم تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر لعصرين متباينين :

أولهما العصر الفاطمي الأول وكان الخلفاء الفاطميون فيه أقوياء يمسكون على زمام الأمور بيد قوية ويملون إرادتهم على الوزراء الذين لم تتعد سلطاتهم تنفيذ أوامر الخلفاء فكانوا وزراء تنفيذ ويشمل هذا العصر خلافة كل من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله فالظاهر

---

(١) في عصر الولاة سنة ٨٧هـ تطير المصريون من عبد الله بن عبد الملك بن مروان الذي تولى على مصر في هذه السنة التي وقع فيها غلاء عظيم واضطر عبد الله إلى الرحيل عن مصر لبغض الناس له.

لإعزاز دين الله وبعضا من خلافة المستنصر بالله الذي أدت استعانته ببدر الجمالي وتوليته الوزارة إلى ابتداء العصر الثاني الذي يعرف بعصر الوزراء العظام واتسم بضعف الخلفاء وتزايد سلطة الوزراء الذين أصبحت لهم اليد الطولى في تسيير شئون الدولة ولم يعد للخلفاء معهم حول ولا قوة ويشمل هذا العصر أواخر خلافة المستنصر بالله ابتداء من سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٦م التي تولى فيها بدار الجمالي الوزارة ثم خلافة المستعلي بالله فالآمر بأحكام الله فالحافظ لدين الله عبد المجيد فالظاهر بأمر الله فالفائز بنصر الله وأخيرا العاضد لدين الله آخر خلفاء الدولة الفاطمية.

وقد تباين العصران الفاطميان الأول والثاني تباينا واضحا ، فإذا كان العصر الأول قد اتسم بقوة الخلفاء وشدة قبضتهم على مقاليد الأمور في الدولة فقد كان العصر الثاني عصر الوزراء العظام الذين طغى نفوذهم على سلطة الخلفاء وأصبحوا المدبرين الحقيقيين لشئون الدولة الفاطمية. وإذا كان العصر الفاطمي الأول هو عصر اتساع الدولة الفاطمية ووحدتها السياسية والمذهبية ، فقد كان العصر الفاطمي الثاني على النقيض من ذلك إذ تقلصت فيه الدولة وخرج على طاعتها العمال والولايات واحدة تلو الأخرى وانقسم المذهب الإسماعيلي على نفسه إنقساما زلزل أركان الدولة حتى انتهى الأمر بانهيارها وسقوطها.

العصـر الفاطمـي الأول

(١) المعز لدين الله الفاطمي :

تولى المعز لدين الله الفاطمي الخلافة بعد وفاة أبيه المنصور بالله في سنة ٣٤١ هـ حتى وفاته سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥م أي أنه حكم حوالي ٢٤ سنة كان معظمها في إفريقية (٣٤١ – ٣٦٢هـ) ولم يزد حكمه في مصر عن ثلاث سنوات (٣٦٢ – ٣٦٥) وكان المعز لدين الله مثقفا يجيد عدة لغات منها الطليانية والصقلية والسودانية ، وكان شغوفا بالعلم والأدب وكان على مقدرة وذكاء جعلا منه أعظم خلفاء الفاطميين قاطبة .

بذل المعز لدين الله الفاطمي جهودا كبيرة لتوطيد النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب كي يضمن ولاءها بعد انتقاله إلى مصر الذي كان يرتب له بعد الاستيلاء عليها . ولما استولى جوهر الصقلي على مصر وهيأ أمورها لانتقال المعز إليها واتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية قام الخليفة المعز بترتيب أوضاع إفريقية والمغرب وصقلية فعهد بإفريقية والمغرب إلى بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي بعد أن فاضل بينه وبين جعفر بن علي بن حمدون الزناتي وكان المعز قد عرض على جعفر أولا ولاية إفريقيه بعد انتقاله عنها باعتبار زناتة أكبر القبائل المغربية فاشترط جعفر ان يكون أميرا مستقلا يتصرف برأيه ولا يرسل أموالا إلى مصر فرفض المعز ذلك لأنه يعني انفصال افريقية نهائيا عن مصر فعرض الولاية على يوسف بن زيري المعروف ببلكين فقبلها بشروط المعز وهى التبعية الكاملة للفاطميين في مصر لكن المعز كان يدرك أن مآل بني زيري الى الانفصال عن الفاطميين وان طالت المدة وهو ما حدث بعد ذلك في خلافة المستنصر بالله.

أما صقلية فكانت قد خضعت للفاطميين بعد زوال دولة الأغالبة ، وولى عليها عبيد الله المهدي الحسن بن أحمد المعروف بابن أبي خنزير سنة ٢٩٨هـ / ٩١٠م لكنه عزله عنها بعد ثورة ضدها سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م وولى عليها بدلا منه علي بن عمر البلوي لكن ثورة سنية اندلعت فيها في نفس العام بقيادة أحمد بن زيادة الله بن قرهب الذي استولى على صقلية وخطب فيها باسم الخليفة العباسي المقتدر بالله حتى سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م التي ثار عليه فيها البربر في جرجنت وأسروه وأرسلوا به إلى المهدي فأعدمه في المحرم سنة ٣٠٤هـ وولى على صقلية بدلا منه أبا سعيد موسى بن أحمد المعروف بالضيف فدخل بلرم سنة ٣٠٤هـ / ٩١٧م وأقر الأمور في الجزيرة ووطد سلطان الفاطميين عليها ثم عاد إلى إفريقية تاركا جزيرة صقلية في يد الوالي سالم بن أبي راشد الذي حكم صقلية لأكثر من عشرين عاما من سنة ٣٠٤هـ / ٩١٧م إلى سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧م أي إلى ما بعد وفاة المهدي وتولي ابنه القائم بثلاث سنوات في سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م.

وفي سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧م قامت ثورة في صقلية مطالبة بعزل سالم بن أبي راشد لطغيانه فعزله القائم وولى على الجزيرة بدلا منه خليل بن إسحاق الذي لم يكن أقل طغيانا من سلفه بل إنه عمل بصقلية على حد قول ابن عذاري "ما لم يعمله أحد قبله ولا بعده من المسلمين"[١] لكنه وطد فيها سلطان الفاطميين من جديد واختط فيها مدينة الخالصة على مقربة من بلرم وحصنها على غرار المهدية فأصبحت الخالصة مركز الإدارة

(١) البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

الفاطمية في صقلية [١] ثم عاد إلى إفريقية بعد أربع سنوات تاركا صقلية في أيدي واليين فاطميين هما ابن الكوفي وابن عطاف الأزدي ، وأدى انشغال الفاطميين في إفريقية بثورة أبي يزيد صاحب الحمار إلى زعزعة سلطانهم على صقلية حتى إذا انهزم صاحب الحمار اهتم الخليفة المنصور بالله بالجزيرة وولى عليها الحسن بن علي الكلبي في سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م ليقيم فيها أسرة عربية حاكمة فلما توفي الخليفة المنصور وتولى ابنه المعز توجه الحسن بن علي الكلبي إلى إفريقية ليعلن طاعته للخليفة الفاطمي الجديد تاركا صقلية في يد ابنه أحمد بن الحسن فمكث يحكمها ستة عشر عاما ثم استدعي إلى إفريقية وأرسل المعز علي بن الحسن إلى الجزيرة نائبا عن أخيه أحمد الذي توفي في طرابلس بعد عدة شهور في سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م فثبت المعز علي بن الحسن على صقلية معترفا ضمنيا بحكم الكلبيين الوراثي للجزيرة على الرغم من قلق المعز الفاطمي من سلطان الكلبيين على صقلية حتى أنه أراد أن يخلعه عن حكمها بعد أن هادن البيزنطيين وأمن جانبهم لكن المعز الفاطمي أبقى على الكلبيين حكاما لصقلية إرضاء لأهلها [٢] وانتقل المعز إلى القاهرة ليحظى علي بن الحسن الكلبي بالاستقلال ، فالمعز لم يجعل لبلكين بن زيري أمير إفريقية سلطانا على صقلية حتى لا يتزايد سلطانه في المغرب إلى حد يخشى من بأسه على الفاطميين في مصر وظل علي بن الحسن الكلبي يحكم صقلية إلى سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م ، وفي أيامه زار صقلية الجغرافي المشهور ابن حوقل ، وقد حكم أبو القاسم علي بن

---

(١) عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ص ٣٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

الحسن صقلية نحو إثني عشر عاما تعتبر من أزهى أيام المسلمين في صقلية وبعد وفاة علي بن الحسن في حملة على إيطاليا تولى على صقليـــة ابنـــه جابر لكن الصقليين خلعوه فاستدعى إلى القاهرة وولى العزيز بدلا منه كلبيـا آخر هو جعفر بن محمد فوصل إلى الجزيرة سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٣م ونظـــم أحوالها ، وظل الكلبيون يتوارثون حكم هذه الجزيرة الهامة حتى انشق بعض أهلها على الأمير أبي جعفر أحمد المعروف بالأكحل وطلبوا تدخل المعـــز بن باديس الصنهاجي أمير إفريقية لنجدتهم فأرسل إليها أسطولا بقيادة ابنـــه عبد الله بن المعز في سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م فحاصر الأكحل في الخالصـة وقتله واستولى على صقلية لكن فريقا من أهلها ثاروا على عبـــد الله بـن المعز وولوا عليهم الحسن بن يوسف أخا الأكحل المعـروف بصمصـــام الدولة فهزم الصمصام الأمير الزيري عبد الله بن المعز وطرده من صقليـــة وتولى حكمها ، لكن حكمه لم يدم طويلا إذ ثار عليه أهـــل صقليـــة لســوء سياسته واشتعلت الفتنة في الجزيرة التي إنقسمت إلى دويلات صغيرة علـــى غرار دويلات الطوائف بالأندلس ، فاستولى القائد عبد الله بن منكود علـــى أطرابش ومرسالا ومازر وغيرها واستولى القائد علي بن نعمه المعـــروف بابن الحواس على نواحي أخرى مثل قصريانه وجرجنت وغيرها واســتولى القائد ابن المكلاتي على قطانية وغيرها فضلا عن قـــادة آخريـــن توزعـوا صقلية فيما بينهم ولم يلبث الأمير الكلبي صمصام الدولة أن خلع من الحكـــم وقتل لينتهي حكم الأسرة الكلبية في صقلية التي ظلت تعاني مـــن الإنقســـام والفوضى حتى استولى عليها النورمان في آخر سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م.

لم يكن انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر على يد المعـــز لديـــن الله الفاطمي حدثا عابرا وإنما كان تحولا هاما وحدثا فريدا في بابـــه مـــن كـــل الوجوه ، فقد انتقلت دولة قائمة بكل قوتها العســـكرية وإداراتـــها وأموالـــها وخليفتها وأسرته بل ورفات أجداده إلى مصر (١)، وإذا كان هـــذا الانتقـــال يهدف التصدي للعباسيين والحلول محلهم في زعامة العالم الإسلامي فإن هذا الانتقال لن يسفر في النهاية عن تحقيق أهدافه المرجوة.

فعلى الرغم من ضعف الدولة العباسية وظهور الدولة الفاطمية فـــي أيام المعز في مصر ومن بعده ابنه العزيز بالله وكأنها أقـــوى مـــن الدولـــة العباسية وأكثر جندا وأعز نفرا إلا أنها ستظل دوما أقل منها في المكانة فـــي نفوس المسلمين إذ ظلت الخلافة العباسية رغم ضعفها وضياع هيبتها حاملـــة لواء السنة والجماعة ورمزا لوحدة العالم الإسلامي بينما لـــم تكـــن الدولـــة الفاطمية كذلك ، وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية كـــانت تتقمـــص دور الدولة المجاهدة إلا أنها لم تكن في الحقيقة كذلك فلم يكن الاستيلاء على الشام أو مصر جهادا حتى لو كان بزعم التصدي للبيزنطيين ، وإذا كان الفاطميون قد تصدوا للبيزنطيين فلم يكن هذا التصدي من القوة بالقدر الذي يعلي شـــأن الدولة الفاطمية ويجعل منها زعيمة للعالم الإسلامي ، وإذا كان الفاطميون قد شعروا في إفريقية بأنها أقل من طموحاتهم فقد أحسوا بعد اســـتيلائهم علـــى مصر أنهم أقل من مكانة مصر وقدراتها فاحتوتهم وغلبت عليهم.

وقد خرج المعز لدين الله الفاطمي مـــن المنصوريـــة فـــي شـــوال ٣٦١هـــ/٩٧٢م ودخل قصره بالقـــاهرة فـــي رمضـــان ٣٦٢هـــ/٩٧٣م.

---

(١) حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ، ص ٥٥٩

فصارت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة [١] وتسلم المعز مقاليد الأمور من جوهر الصقلي لتصبح مصر مقرا للخلافة الفاطمية وأخذ المعز في توطيد دعائم الخلافة الفاطمية في مصر وأصبحت القاهرة حاضرة لها بدلا من المنصورية وأخذ في إكمال ما بدأه جوهر من إجراءات لتحويل وجه مصر السني إلى الوجه الشيعي ، فكتب إلى المشايخ في سائر النواحي بأن " خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأثبت اسم المعز واسم ابنه عبد الله الأمير ووقع بيده إلى محمد بن الحسين صاحب بيت المال ".

واستكمل المعز لدين الله ما بدأه جوهر الصقلي من التصدي للقرامطة وتولى بنفسه أمر التصدي لهم بعد أن سلم إليه جوهر مقاليد الأمور فكتب المعز إلى الحسن الأعصم يذكره بولاء آبائه القرامطة للخلفاء الفاطميين وعاتبه على خلعه هذا الولاء لكن الحسن الأعصم لم يحسن الرد على المعز بل بادر بالزحف على مصر سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣م وتوغل فيها حتى وصل إلى مشارف القاهرة ، وهال المعز كثرة جند القرامطة فرأى ان يشتت شملهم باستخدام المال والحيلة لبث الفرقة في صفوف جند الحسن الأعصم واستمال المعز لدين الله الفاطمي حسان بن الجراح الطائي رئيس جند العرب الذين كانوا أقوى عناصر الجيش القرمطي واتفق معه على ان يدفع له مائة ألف دينار على ان يتظاهر بالهزيمة أمام الفاطميين .

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ص ص ١٨٦ - ١٨٧

ولم يستطع حسان بن الجراح مقاومة إغراء هذا المبلغ الضخم من المال [١] وكان نتيجة هذا أن انهزم الحسن بن أحمد القرمطي وارتد إلى الشام بعد أن تكبد خسائر جسيمة وأسر الفاطميون نحو ألف وخمسمائة من جنوده ، ثم ترك الحسن القرمطي بلاد الشام عائداً إلى الأحساء بعد أن ترك أبا المنجي القرمطي والياً على دمشق.

ولم يكتف المعز بما أحرزه من نصر ، بل عمل على استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام وصمم على طرد القرامطة منها نهائياً ، ورأى المعز أن يستعين بالقبائل العربية في الشام لأنه كان قد لمس أهمية التعاون مع هؤلاء عندما تخلى بنو الجراح عن الحسن الأعصم في المعارك السابقة لذلك استمال المعز بني الجراح من طيئ ، واستمال إليه ظالم بن موهوب العقيلي بعد أن فسدت علاقته بالقرامطة نتيجة النزاع الذي نشب بينه وبين أبي المنجي القرمطي والي دمشق ، وأسند المعز الفاطمي إلى ظالم العقيلي ولاية دمشق ، فوثب ظالم على أبي المنجي القرمطي وقبض عليه وتولى حكم دمشق باسم المعز لدين الله الفاطمي.

وكان المعز لدين الله الفاطمي من ناحية أخرى قد أرسل جيشاً بقيادة أبي محمود بن جعفر بن فلاح لاستعادة سلطان الفاطميين على الشام واستقر هذا الجيش خارج دمشق ليساعد ظالم العقيلي في السيطرة عليها وضبط أمورها ، لكن الأمور لم تستقر في الشام للفاطميين بصفة نهائية بل اضطربت الأحوال نتيجة لفساد جند أبي محمود بن جعفر بن فلاح من

---

(١) ذكر المصادر أن المعز أعطى بني الجراح نقوداً مزيفة فلم يكتشفوا زيفها إلا بعد أن ساعدوا المعز على طرد القرامطة من الشام ، فلما اكتشفوا زيف النقود صاروا من أكثر أعداء الدولة الفاطمية.

المغاربة وتعديهم على أهل دمشق.فثار الأهالي على أبي محمود بن جعفر بن فلاح الذي زحف على دمشق لإخضاع الأهالي وأحرق بعض نواحيها واشتد على أهليها ، لكن المعز أنكر ذلك على أبي محمود بن فلاح ، وأمر ريان الخادم عامل طرابلس بالمسير إلى دمشق لصرف أبي محمود عنها وإقرار الأمور وتهدئة خواطر الأهالي فيها ، فبذل ريان جهده في ذلك ، لكن ذلك لم يفد لأن الدمشقيين كانوا قد ضاقوا بالحكم الفاطمي ، في الوقت الذي قام فيه أفتكين التركي لمناهضة الفاطميين في بلاد الشام ، فوجد أهالي دمشق في أفتكين منقذا من الحكم الفاطمي فرحبوا به وخرج إليه أشراف دمشق وشيوخها يدعونه للتحول إلى مدينتهم ليخلصهم من الفاطميين الشيعة المخالفين لهم في المذهب ، فدخل أفتكين دمشق بعد أن عاهد أهلها على الحماية وعاهدوه على الطاعة وأخرج منها ريان الخادم وقطع خطبة المعز الفاطمي وخطب للطائع العباسي سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م

وعلى الرغم من حرص الفاطميين على التخلص من أفتكين إلا أن ظروفهم لم تسمح لهم حينذاك بمحاربته إذ كانوا في شغل عن أفتكين بالخطر البيزنطي الذي تمثل في هجمات يوحنا زيمسكس على بلاد الشام وإغارته على حمص وبعلبك وغيرها ، وأخذ يهدد دمشق نفسها (١) وكان بإمكان أهل دمشق الاستعانة بالفاطميين لكن تجربتهم السيئة مع الحكم الفاطمي وما عانوه منه كانت لا تزال ماثلة في الأذهان ، فضلا عن أن الخلاف المذهبي كان عقبة تحول بين الفاطميين الشيعة والدمشقيين السنة ، وبالإضافة إلى ذلك كانت مصالح أفتكين الشخصية تفرض التباعد بينه وبين الفاطميين [illegible] الطريق البديل أمام أفتكين هو مهادنة

البيزنطيين وقد رأى زيمسكس أن وجود أمير مسلم موال له على دمشق خير له من تحالف الدمشقيين مع الفاطميين ضده ، فاتفق زيمسكس مع أفتكين على أن يكف زيمسكس يده عن دمشق مقابل إتاوة من المال يدفعها أفتكين ، وتوسع كل من أفتكين وزيمسكس بعد اتفاقهما على حساب الفاطميين فقد أغار زيمسكس على طرابلس واستولى على بيروت ولم يرجع عن بلاد الشام إلا لمرضه الذي أجبره على العودة إلى بلاده. أما أفتكين فقد هاجم صيدا واستولى عليها ثم حاصر عكا واتجه منها إلى طبرية فاستولى عليها في طريق عودته إلى دمشق .

ضاق المعز لدين الله الفاطمي بما فعله أفتكين وعزم على الخروج إليه وقتاله بنفسه وجهز جنوده لهذا الغرض ، لكن المنية عاجلته في سنة ٣٦٥هـ /٩٧٥م وخلفه ابنه العزيز بالله الذي لم يتوان - رغم رقته وكراهيته لسفك الدماء - عن العمل على توطيد سلطان الفاطميين على الشام.

واهتم المعز لدين الله الفاطمي بأمر الحجاز الذي امتد إليه النفوذ الفاطمي تلقائيا ، إذ بادر أشراف الحجاز العلويون إلى إعلان الولاء للفاطميين بعد سقوط الدولة الإخشيدية التي كانت صاحبة النفوذ في الحجاز قبل سقوطها وكان الدافع إلى إعلان الأشراف الولاء والطاعة للفاطميين هو اعتماد الحجاز في معاشه على ما يرد إليه من مصر من مؤن وميره ، كما كانت في مصر أوقاف كثيرة موقوفة على الحرمين الشريفين وعلى كثير من وجوه البر فيها ، لذلك لم يغامر الأشراف العلويون بأن يخسروا ما يأتيهم من مصر من إعانات وموارد فخطبوا للخليفة المعز الفاطمي على المنابر الحجازية ، لكن النفوذ الفاطمي في الحجاز كان نفوذا اسميا لا يتعدى الخطبه

لهم على المنابر . ومع ذلك فقد حرص الفاطميون على هذا النفوذ حرصاً شديداً لما يضفيه عليهم من مكانة وهيبة في العالم الإسلامي ، باعتبارهم أصحاب السيادة على الحرمين الشريفين وكانت الفكرة التي روجوا لها حينذاك أن الخلافة الحقة هي التي تشرف على الحرمين الشريفين ، وظلت الخطبة للمعز الفاطمي في الحجاز حتى توفى سنة ٣٦٥هـ واستمرت الخطبة من بعده لسائر الخلفاء الفاطميين .

(٢) العزيز بالله :

تولى العزيز بالله الخلافة في مصر بعد وفاة أبيه المعز لدين الله سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م ، مع أنه لم يكن أكبر أبناء المعز لدين الله وبالتالي لم يكن هو صاحب الحق في ولاية العهد تبعا لمبدأ " الأعقاب " المعمول به عند الإسماعيلية ، وكان المعز قد تخطى من قبل في ولاية العهد ابنه الأكبر تميم صاحب الحق الشرعي وفقا للنظام الإسماعيلي بدعوى أنه كان يحيا حياة عابثة لاهية ، ورشح المعز بدلا منه لولاية العهد ابنه الأوسط عبد الله وسمح له بالجلوس معه في مجلسه بالقاهرة لكن عبد الله توفي فجأة في حياة أبيه وكما خالف المعز الأصول الإسماعيلية بتخطي ابنه تميم خالفها أيضا بتخطي حفيده - ولد ابنه عبد الله - وقام بتولية عهده لابنه الثالث نزار الذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه وتلقب العزيز بالله .

استكمل العزيز بالله ما بدأه أبوه المعز من إرساء قواعد الدولة الفاطمية في مصر يعاونه في ذلك القائد جوهر الصقلي والوزير يعقوب بن كلس ، وكانت خلافته عهد يسر ورخاء وثقافة وتسامح ديني حتى أن البعض يعدها أزهى أيام الفاطميين في مصر ، وامتدت الدولة الفاطمية في عهده

من بلاد العرب شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا ومن آسيا الصغرى شمالا إلى النوبة جنوبا ، وتابع العزيز بالله جهود أبيه المعز لتوطيد النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والتصدي لكل من يهدده وتمثل التهديد حينذاك في أفتكين التركي والقرامطة .

كان أبو منصور أفتكين التركي قد نجح في دخول دمشق سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م - كما سبق ذكرنا - وأخرج منها واليها الفاطمي ريان الخادم وقطع الخطبة للمعز الفاطمي وخطب للطائع العباسي فلما تولى العزيز بالله الخلافة حاول أن يستميل أفتكين ويثنيه عن الخلاف بالحسنى ووعده بحسن المكافأة إذا جلا عن دمشق ، لكن أفتكين رد على العزيز ردا جافا فحنق العزيز عليه واستشار وزيره يعقوب بن كلس فأشار عليه بأن يوجه حملة الى الشام بقيادة جوهر الصقلي لمواجهة أفتكين التركي ، ويبدو أن الوزير يعقوب بن كلس كان يريد إبعاد جوهر الصقلي عن مصر حتى لا ينافسه في مكانته عند الخليفة العزيز بالله .

سار جوهر الصقلي على رأس جيش كبير الى الشام سنة ٣٦٦هـ لقتال أفتكين فقام أفتكين باستثارة حماس أهل دمشق فأظهروا الاستعداد للذود عن مدينتهم ومنع الفاطميين من دخولها وتمسكوا ببقاء أفتكين أميرا عليهم ، فحاصر جوهر الصقلي دمشق وطال حصاره لها فأشار أهل دمشق على أفتكين أن يستعين بالقرامطة ، فاستنجد أفتكين بالحسن الأعصم القرمطي الذي كان على عداء شديد مع الفاطميين وقام بأكثر من محاولة لغزوهم - كما سبق أن أشرنا - ولذلك لم يتوان عن نجدة أفتكين وسار إليه من الأحساء بجيشه ، وأدرك جوهر الصقلي بخبرته أنه لا قبل له

بمواجهة أفتكين والقرامطة مجتمعين فآثر التقهقر ، لكن أعداءه لم يتيحا لـه الفرصة للتراجع وضيقا عليه الخناق فلم يجد بدا من طلب الصلح ولم يجبه أفتكين والحسن الأعصم إلا إلى صلح مهين وأن يخرج من باب عسقلان من تحت سيف أفتكين التركي ورمح الحسن الأعصم القرمطي ، وحفاظا علـى جنده تجرع جوهر الصقلي المهانة وقبل ذلك حتى يخرج بجيشه سالما إلـى أن تسنح له فرصة الانتقام من عدويه ، وعاد جوهر بجيشه إلـى مصـر ، وروى في أسى ومرارة خبره للخليفة العزيز بالله الذي غضب لمـا حـدث لجوهر الصقلي وقرر أن يخرج بنفسه للقضاء علي أفتكيـن والقرامطـة ، وسار علي رأس جيش كبير جعل علي مقدمته جوهر الصقلي ، فالتقي جيش العزيز بجند أفتكين والقرامطة عند الرملة ، وانتصر العزيـز بـالله ودارت الدائرة على أفتكين والحسن الأعصم وأسر أفتكين لكن العزيز بالله أعجـب بشجاعته فعفا عنه وأكرمه واصطحبه إلي مصر حيث أنزلـه دار فسيحة بالقاهرة فظل مقيما بها حتى وفاته سنة ٣٧٢هـ . أما الحسن الأعصم فقـد تقهقر مهزوما إلي طبريه ثم عاد إلي الأحساء بعد أن اتفق معه العزيز بـالله علي أن يدفع له تعويضا سنويا قدره ٢٠ ألف دينار طيلة حياته وبذلك آ ثـر العزيز بالله أن يشترى السلام علي الساحة الشامية بالمال رغم إنتصـاره كيلا تتجدد هجمات القرامطة علي بلاد الشام وبذلك توطد النفـوذ الفـاطمي في بلاد الشام ولكن الأمور لم تستقر للفاطميين طويلا في الشام فقـد تغلـب على دمشق قسام الحارثي وخلع طاعة العزيز حتى تقدم أفتكين التركي علـى رأس جيش مـن مصـر فحاصـر دمشق واستسلم له قسـام فحملـه إلـى مصر حيث عفا عنه الخليفة.

(٣) الحاكم بأمر الله :

كان المنصور أبو علي بن العزيز بالله قد أصبح وليا للعهد قبل وفاة أبيه بنحو ثلاث سنوات ، فلما توفي أبوه العزيز بالله سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م بويع له بالخلافة وتلقب الحاكم بأمر الله ، وكان عمر الحاكم بأمر الله وقتذاك قد بلغ إحدى عشر سنة ونصف ، فتولى الوصاية عليه أستاذه ومربيه برجوان الخادم ، وقد امتدت خلافة الحاكم بأمر الله منذ توليه حتى إختفائه سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م نحو خمس وعشرين سنة وهي فترة ليست بالقصيرة لم يتوافر مثلها لكثير من خلفاء الفاطميين باستثناء المستنصر بالله ، لكن سلطاته في هذه الفترة الطويلة لم يكن على وتيرة واحدة وإنما تفاوت بين الضعف والقوة ، ولذلك انقسمت خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي إلى فترات أربعة كانت على النحو الآتي :

(أ) الفترة الأولى : تقع بين سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م إلى سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩م وفيها كان الحاكم بأمر الله لا يزال صبيا مسلوب الإرادة لا يملك من السلطة إلا الإسم ، بينما كانت السلطة الحقيقية في يد الوصي برجوان الخادم الذي أطاح بالوسيط الحسن بن عمار واستولى على الوساطة بدلا منه.

والوساطة درجة من درجات الوزارة تقع في مرتبة وسطى بين وزارة التنفيذ ووزارة التفويض ، وكان أول من تولاها في خلافة الحاكم بأمر الله الحسن بن عمار المغربي بعد أن ثار الكتاميون – وهم عصب الجيش الفاطمي وسند الخلافة الفاطمية – عقب تولي الحاكم الخلافة وتولي برجوان الخادم الوصاية عليه وطلبوا من الخليفة الحاكم عزل الوسيط عيسى بن

نسطورس من الوساطة وتولية زعيمهم الحسن بن عمار بدلا منه بعد أن أحسوا بتهديد نفوذهم في الدولة نتيجة تحكم الوصي برجوان في السلطة من دون الخليفة الصبي ، ولم يجد الحاكم بأمر الله بدا من الرضوخ لمطالبهم فعين الحسن بن عمار في الوساطة ولقبه أمين الدولة.

سخط الاتراك والمشارقة لتقلص نفوذهم لصالح المغاربة فتحالفوا مع الوصي برجوان الخادم ، وثارت فتنة بينهم وبين المغاربة سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م ، انتهت باقصاء الحسن بن عمار وعزله من الوساطة واحلال برجوان محله فاستبد برجوان بالسلطة بمعاونة كاتبه فهد بن إبراهيم النصراني في الوقت الذي كان فيه الحاكم بأمر الله يشب عن الطوق وأصبح أكثر إدراكا للأمور فضاق ذرعا بالوصي برجوان ومعاونيه وقرر الإطاحة به والإنفراد بالسلطة في الدولة الفاطمية وتمكن من قتل برجوان بواسطة زيدان الخادم الصقلي سنة ٣٨٩هـ/٩٩٩م.

(ب) **الفترة الثانية** : تمتد هذه الفترة من سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م بعد أن تخلص الحاكم من برجوان الخادم إلى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م ، وفيها أصبح للحاكم بأمر الله على صغر سنه سلطة كبيرة فأخذ يتخلص من أتباع برجوان مثل فهد بن ابراهيم النصراني وغيره ، وعين الخليفة الحاكم بأمر الله الحسن بن جوهر في الوساطة واهتم الحاكم بأمر الله بشئون الرعية فأخذ في الركوب ليلا بشق الشوارع والأزقة ليتفقد أحوال الناس ولما وجد الناس قد أسرفوا في اللهو والزينة حتى خرجوا عن الحد اللائق منع النساء من الخروج في الليل ثم منع الرجال من الجلوس في الحوانيت . واهتم الحاكم بأمر الله بعمارة المساجد فابتدا في سنة

٣٩٣هـ / ١٠٠٣م في عمارة جامع راشدة ثم شرع في نفس العام في بناء الجامع الأنور المعروف بجامع الحاكم خارج باب الفتوح. واهتم الحاكم بأمر الله بنشر الدعوة الشيعية ، واشتد على أهل الذمة فأمر النصارى واليهود بشد الزنار ولبس الغيار . لكن الحاكم أنشأ في نهاية هذه الفترة دار الحكمة سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م .

(ج) الفترة الثالثة : من سنة ٣٩٦هـ الى سنة ٤٠١هـ/ ١٠٠٦ – ١٠١١م ، وفيها خفف الحاكم من تشدده وتعصبه للتشيع وأظهر كثيرا من التسامح مع أهل السنة وأهل الذمة ، وكان السبب في ذلك تعرض البلاد للأخطار من الخارج والداخل وقد تمثل الخطر الخارجي في ثورة أبي ركوة الأموي الذي قدم الى مصر من جهة الغرب محاولا الاطاحة بالخلافة الفاطمية فكان على الحاكم بأمر الله أن يتخلى عن تشدده مع المصريين السنة ليضمن تأييدهم في مواجهة أبي ركوة ، اما الخطر الداخلي فقد تمثل في أزمة اقتصادية خطيرة تعرضت لها البلاد بسبب انخفاض النيل وعدم وفائه لسنوات ثلاث ٣٩٨ـ٤٠١ هـ ، ويبدو أن الحاكم بأمر الله قد أراد استمالة أهل السنة بالتشدد مع أهل الذمة ، ذلك التشدد الذي بلغ أن هدم كنيسة القيامة في بيت المقدس ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م فأضر بالعلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين ، إذ رد الإمبراطور باسيل الثاني على ذلك لاحقا بقطع العلاقات التجارية مع الفاطميين.

هذا ويدافع بعض الدارسين عن سياسة الحاكم بأمر الله في تلك الفترة ويبررون تصرفاته بأن إقدام الحاكم بأمر الله على منع التجول ليلا والجلوس في الحوانيت ومنع صناعة الخمور بأنها إجراءات إصلاحية

قام بها كمسلم غيور على دينه كما أن تحريمه ذبح الأبقار السليمة من العيب كان بهدف الحفاظ على الثروة الحيوانية ، كان تشديده على النساء ومنعهم من الخروج لأغراض أخلاقية ، أما منعه أكل السمك الذي لا قشر له وهو القرموط فكان لفوائده البيئية في تنظيف المجاري المائية ، أما تحريمه أكل الملوخية فقد برره الحاكم نفسه بأن معاوية كان يميل إليها وحرم الجرجير لنسبته إلى السيدة عائشة ، أما المتوكلية فلنسبتها إلى المتوكل العباسي [1].

(د) الفترة الرابعة : تمتد من سنة ٤٠١هـ / ١٠١١م إلى سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م التي اختفى فيها الحاكم بأمر الله ، و هي الفترة التي ازداد فيها التقلب والاضطراب فيما أقدم عليه الحاكم بأمر الله من أعمال حتى وصفه البعض باضطراب العقل أو الجنون وانتهت بمقتله أو اختفائه.

وقد اختلفت الروايات في كيفية مقتل الحاكم بأمر الله فقيل إن أخته سيدة الملك تآمرت على قتله خشية أن تؤدي سياسته المضطربة إلى إثارة المصريين فيثورون على الحكم الفاطمي و يطيحون به فآثرت سيدة الملك أن تضحي بأخيها للحفاظ على الحكم الفاطمي و تآمرت في سبيل تحقيق ذلك مع سيف الدولة بن دواس أحد زعماء كتامة وقام بتنفيذ المؤامرة عبدان سودانيان تربصا بالحاكم عند خروجه إلى جبل المقطم - كما كانت عادته - و قتلاه وأخفيا جثته و قيل في رواية أخرى إن الحاكم بأمر الله خرج في يوم مقتله إلى جبل المقطم وبصحبته رجلان وأنه اختفى عنهما فلم يعثر له على أثر فخرج كبار رجال الدولة للبحث عنه فلم يعثروا له على جثة وإنما وجدوا حماره مقتولا ثم وجدوا ثياب الحاكم بأمر الله شرق بركة حلوان وفيها آثار

---

(١) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

السكاكين ثم ظهر رجل في الصعيد يدعي أنه قتل الحاكم بأمر الله غـيرة لله وللدين ، فلما سألوه كيف قتله تناول سكينا وطعن بها نفسه في القلب قـائلا : هكذا قتلته فتوفي من فوره ومات سره معه. لكن طائفة الدروز - وهم طائفـة ظهرت في عهد الحاكم بأمر الله ونادت بألوهيته - تعتقد بأن الحاكم بـأمر الله قد اختفى ولم يقتل وأنه سيعود لإزالة المفاسد في العالم وتطـهيره ، وعلـى ذلك فالحاكم بأمر الله هو المهدي المنتظر لدى طائفة الدروز.

(٤) الظاهر لإعزاز دين الله :

تولى الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة بعد مقتل أبيه الحاكم بـأمر الله في شوال سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م ، بعد أن تأكد للناس مقتل الحاكم. وكـان الظاهر حين تولى الخلافة في السادسة عشرة من عمره فتولت عمته سـيدة الملك الوصاية عليه حتى وفاتها سنة ٤١٥هـ ، وكان أهم وزراء الظـاهر لإعزاز دين الله الوزير على بن أحمد الجرجرائي الذي قلده الظاهر الـوزارة فاستمر فيها حتى وفاة الظاهر ثم وزر لابنه المستنصر بالله من بعده حتـى توفي الجرجرائي سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م أي أن الجرجرائـي مكـث فـي الوزارة نحو ثمانية عشرة عاما نظم فيها شئون الدولـة الفاطميـة وأظـهر حرصا شديدا على أموالها.

كان الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله سمحا عـاقلا ، تمكـن بحسـن سياسته من اكتساب محبة المصريين جميعا على اختلاف مذاهبـهم ووجـه عنايته إلى تحسين أحوال البلاد والارتقاء بالزراعة ، إلا أن خلافته لم تستمر طويلا ، إذ [illegible] في شعبان سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م فأخذ الوزيـر الجرجرائي البيعة من بعده لابنه المستنصر بالله.

(٥) المستنصر بالله :

تولى أبو تميم محمد المستنصر بالله الخلافة الفاطمية بعد وفاة أبيه الظاهر وكان عمره لم يتعد السابعة بعد ، لكنه استمر في الخلافة ٦٠ عاما فكانت خلافته أطول عهود الخلافة في العالم الإسلامي قاطبة سواء بين خلفاء السنة أو الخلفاء الشيعة لكن مصر لم تتمتع بالرخاء والاستقرار في خلافته الطويلة إلا مدة قصيرة منها ثم أطبقت عليها الأزمات الاقتصادية والسياسية المتعاقبة فزعزعت مركز الخلافة الفاطمية في مصر من ناحية وأدت إلى أن يتولى السلطة سلسلة من الوزراء الأقوياء الذين عرفوا بالوزراء العظام ، استبدوا بالحكم في مصر ولم يكن للخلفاء الفاطميين ، معهم من السلطة إلا الاسم فقط.

كذا المستنصر بالله الوزير الجرجرائي على أخذه البيعة له بأن أقره في الوزارة فظل بها حتى وفاته كما ذكرنا عام ٤٣٦هـ ويمكننا تقسيم خلافة المستنصر بالله الطويلة إلى فترتين : **أولهما** - وهي أقصرها - كانت فترة ازدهار واستقرار ، وامتد نفوذ الدولة الفاطمية فيها ليشمل بلاد الشام والحجاز واليمن وصقلية وشمال إفريقية ، بل امتد هذا النفوذ إلى العراق وخطب للمستنصر في بغداد نفسها نحو عام بواسطة أبي الحارث أرسلان البساسيري ، وهو قائد تركي استماله الداعي الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وحرضه على الثورة على الخلافة العباسية وخلع طاعتها وخطبتها والخطبة للمستنصر بالله الفاطمي بدلا من الطائع لله العباسي. لكن هذه النواحي التابعة للفاطميين لم تلبث أن خرجت تباعا على طاعتهم وتمردت على سلطانهم.

أما الفترة الثانية من خلافة المستنصر بالله - وهي أطولهما - فكانت مصر تعاني فيها من أسوأ أزماتها الاقتصادية قاطبة ، فعم فيها القحط والغلاء وتفشى الوباء منذ سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م ، وانعدمت الأقوات حتى عز ما يأكله الناس وتفشى الموتان حتى قيل إنه كان يموت كل يوم بمصر عشرة آلاف نفس ، وأكل الناس بعضهم بعضاً وعمت الفوضى السياسية حتى تعاقب على الوزارة في تسع سنوات - وهي سنوات تلك الشدة الاقتصادية - أربعون وزيرا وتشبت الفتن والحروب الأهلية ، وعرفت تلك الشدة التي نسبت إلى المستنصر بالشدة المستنصرية وبالشدة العظمى ، فكانت أشد ما تعرضت له مصر من أزمات اقتصادية واجتماعية ولم يتدارك مصر ولم ينقذها من أزماتها إلا عناية الله وتولى بدر الجمالي مقاليد الأمور في مصر فاستطاع أن يقيل البلاد من عثرتها وينهض بها من وهدتها ، لكن الخلافة دفعت ثمن ذلك من هيبتها فأصبحت السلطة الفعلية في أيدي الوزراء العظام.

العصـــــر الفـــــاطمي الثانـــي

كان من آثار الشدة العظمى وما صاحبها مـــن فتـــن وأزمـــات أن استدعى الخليفة المستنصر بالله بدر الجمالي والي عكا لإنقاذ البلاد مما تردت فيه ، فاستجاب أمير الجيوش بدر الجمالي إلى دعوة الخليفـــة وأتـــى إلـــى مصر سنة ٤٦٦هـــ كما سبق أن أشرنا واستطاع إعادة الهدوء والنظـــام إلى البلاد وسيطر على أمورها واستحوذ على كل سلطان فيها ، لكنه ظـــل عامين يدير شئون البلاد دون أن يتخذ ألقاب الوزارة إذ كانت سلطته تفـــوق سلطة الوزير حتى أن مركزه كان يشبه مركز أمير الأمـــراء فـــي الدولـــة العباسية ، إلا أن أمير الجيوش بدر الجمالي فيما يبدو أراد أن يضم إليـــه منصب الوزارة حتى يقطع الطريق على كل منافس تسول له نفسه منافســـة بدر الجمالي وإفساد الأمور عليه ، فتولى أمير الجيـــوش بـــدر الجمـــالي الوزارة سنة ٤٦٨هـــ / ١٠٧٦م ، وأصبح قواد الجيوش وكبار الموظفيـــن والقضاة والدعاة تحت سلطانه ، فبدأ عصر الوزراء العظام الذي استمـــر حتى انتهاء الدولة الفاطمية.

كان الوزراء العظام هم أصحاب السلطة الفعلية في هذا العصر فيمـــا عدا فترات قليلة لم يستوزر الخلفاء فيها أحد ، مثل الخليفة الآمر بأحكـــام الله الذي لم يستوزر أحدا بعد أن قبض على الوزير المأمون بن البطائحي ســـنة ٥١٩هـــ ، والخليفة الحافظ عبد المجيد الذي حكم أكثر من فترة بدون وزراء وتولى الأمر بنفسه ، وكان آخر الوزراء العظام هو صلاح الديـــن الأيوبـــي الذي أنهى الخلافة الفاطمية وأقام من بعدها الدولة الأيوبية.

وكان من مظاهر عصر الوزراء العظام أنه كثيرا ما ورث الأبناء آباءهم في منصب الوزارة فورث الأفضل بن بدر الجمالي أباه في الوزارة للخليفة المستنصر بالله فلما مات المستنصر في ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ نقل الأفضل بن بدر الجمالي الخلافة إلى المستعلي بن المستنصر دون أخيه الأكبر نزار الذي كان أبوه المستنصر قد ولاه عهده لكنه كان على خلاف مع الوزير الأفضل فبذل الأفضل جهده حتى لا تصل الخلافة إلى نزار وحولها إلى المستعلي بالله الذي تسهل السيطرة عليه لصغر سنه كما أنه كان زوج أخت الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ومن ثم كان البيت الجمالي في طريقه إلى السيطرة على الخلافة والوزارة معا.

(٦) المستعلي :

بويع أبو القاسم أحمد المستعلي بالله بالخلافة وأبعد الأفضل عنها نزار الابن الأكبر للمستنصر فسار نزار إلى الإسكندرية لحشد أنصاره فيها كي يمكنه التصدي للوزير الأفضل بن بدر الجمالي واسترداد حقه المسلوب فبايعه أهل الإسكندرية وواليها بالخلافة ولقبوه " المصطفى لدين الله " فخرج الوزير الأفضل على رأس جيش كبير لقتال المصطفى لدين الله نزار فانهزم الأفضل وعاد إلى القاهرة ليتجهز لقتال المصطفى لدين الله نزار مرة أخرى ، واستطاع الأفضل أن يستميل إلى جانبه بعض أنصار نزار في الجولة الثانية التي خرج لها في جيش كثيف فحاصر نزار حصارا شديدا حتى اضطره إلى طلب الأمان ، فأمنه الأفضل ثم غدر به وقبض عليه وقتله لكن مقتل نزار لم ينه القضية ، إذ أن الحسن بن الصباح وهو من أكبر دعاة الإسماعيلية تبنى فكرة الدعوة لخلافة نزار باعتباره أكبر أبناء المستنصر

وأحقهم بالإمامة من بعده وفقاً لعقائد الإسماعيلية ، وقال الحسن بن الصباح إن المستنصر قد نص على ابنه نزار وأطلع الحسن بن الصباح على ذلك أثناء وجوده في مصر ، وبذلك انقسم المذهب الإسماعيلي على نفسه إلى فرقتين : المستعلية والنزارية ، وكان للعداء الشديد بين الفرقتين آثار خطيرة ليس على الدولة الفاطمية فحسب بل على العالم الإسلامي على وجه العموم ، إذ كان من جراء تنازعهما أن ضعفت الدولة الفاطمية فعجزت عن تقوية سلطانها في الشام من جهة ثم عجزت عن التصدي للخطر الصليبي على الشام من جهة أخرى.

قبض الوزير الأفضل على السلطة الفعلية وكان الخليفة المستعلي معه بلا سلطة فعلية ليس له من الخلافة إلا الاسم وحلت بالعالم الإسلامي في وجودهما واحدة من أخطر المصائب التي حلت به ممثلة في نجاح الصليبيين في الاستيلاء على معظم بلاد الشام وتأسيس إمارات لهم فيها.

لقد كانت بلاد الشام مسرحاً للتنافس بين عدة قوى إسلامية كان أكبرها السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة ، وأدى تباينهما سياسياً ومذهبياً إلى اصطدامهما بعضهما ببعض إصطداماً أضر بكليهما ضرراً بليغاً.

كان القائد التركي أتسز قد استولى على معظم بلاد الشام وقطع الخطبة منها للفاطميين وأعادها للعباسيين ثم حاول غزو مصر نفسها في سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٧م لكنه انهزم على يد بدر الجمالي الذي أرسل خلف أتسز حملة بقيادة نصر الدولة الجيوشي فوصل إلى دمشق سنة ٤٧١هـ / ١٠٧٩م وحاصر فيها أتز حصاراً شديداً فاضطر أتسز إلى الاستنجاد بتاج الدولة تتش أخي السلطان ملكشاه ، فسار تتش إلى دمشق وتسلمها من أتسز

بعد أن تفهقر عنها الجيش الفاطمي ،وعجز تتش بأتسز وقتله واتخذ من دمشق مركزا لبسط سلطانه في الشام على حساب الفاطميين. وبعد مقتل تتش حكم ابنه رضوان في حلب وابنه دقاق في دمشق ، ولم يكن الأخوان على وفاق بل وثب كل منهما على أملاك أخيه فاقتتلا قتالا عنيفا إنهزم فيه دقاق ثم اتفقا على أن يخطب باسمهما معا في دمشق.

لم يسلم الفاطميون بالسيادة على الشام للسلاجقة ووجهوا الحملات إلى بلاد الشام من حين لآخر واستولوا على مدن الساحل مثل صور وصيدا وعكا وجبيل. لكن الفاطميين إنشغلوا بعضا من الوقت بالأحداث التي أعقبت وفاة كل من بدر الجمالي والخليفة المستنصر سنة ٤٨٧هـ ،ثم استقرت الأوضاع للأفضل بن بدر الجمالي والمستعلي بالله الفاطمي وبعد أن فرغ الوزير الأفضل من نقل الخلافة إلى المستعلي بالله وضبط القلاقل التي أعقبتها ، سار إلى الشام سنة ٤٨٩هـ على رأس حملة لاستعادة ما فقده الفاطميون من مدن الشام ، وتمكن الأفضل من دخول بيت المقدس وأقام عليها واليا يدعى افتخار الدولة.

ولكن النزاع الفاطمي السلجوقي أدى إلى ضعف الجبهة الإسلامية في بلاد الشام ، مما مكن الصليبيون من النفوذ إلى الشام فاستولى بوهمند النورمندي على أنطاكية سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م ، وتوجهت جموع من الصليبيين بقيادة جودفري دي بوايون نحو بيت المقدس وحاصروها حتى تمكنوا من اقتحامها فلم يجد افتخار الدولة واليها بدا من الاستسلام وخرج بقواته عن بيت المقدس عائدا إلى مصر. فخرج الوزير الأفضل على رأس جيش كبير في سنة ٤٩٢هـ لمهاجمة الصليبيين واستعادة بيت المقدس

منهم ، لكنه انهزم فعاد إلى مصر ونجح الصليبيون في تثبيت أقدامهم في الإمارات التي حازوها في الشام نتيجة لضعف الدولة الفاطمية وانقسامها على نفسها من ناحية ونزاعها مع السلاجقة من ناحية أخرى ، هذا النزاع الذي أضر بالمسلمين في الشام أبلغ الضرر ولم يجن ثمرته إلا الصليبيون.

(٧) الآمر بأحكام الله :

بويع الآمر بأحكام الله بعد وفاة أبيه المستعلي في سنة ٤٩٥هـ ، لكن الوزير الأفضل استأثر بالسلطة من دونه ، وأبدي انحرافا عن المذهب الفاطمي (الإسماعيلي) ومالأ أهل السنة فألغي الكثير من الاحتفالات التي كان الفاطميون يحرصون علي الاحتفال بها للدعوة إلى مذهبهم ولتأييد دعواهم في النسب العلوي ، لذلك كره الفاطميون الوزير الأفضل الذي ما لبث أن قتل غيلة ، فقيل إن الخليفة الفاطمي الآمر دبر قتله ، وقيل إنه اغتيل بأيدي جماعة الباطنية الذين كانوا علي عداء معه ، وكاد الاضطراب أن يحل بالدولة الفاطمية بعد مقتل الأفضل بن بدر الجمالي لولا أن تولى الوزارة بعده الوزير المأمون بن البطائحي الذي قيل عنه أنه اشترك في مؤامرة الخلاص من الأفضل ، وعلي الرغم من أن الوزير المأمون بن البطائحي بذل جهودا كبيرة في مناهضة الدعوة النزارية (الباطنية) التي تزعمها الحسن بن الصباح في قاعدة ألموت ووقى البلاد من شرهم ولذلك ناصبوه العداء وكانوا يأملون في قتله هو والخليفة الآمر الفاطمي لكن الآمر قبض عليه هو وإخوته في رمضان سنة ٥١٩هـ وقيل إن سبب اعتقاله تآمره على الآمر مع أخيه جعفر بن المستعلي ، وقد ظل المأمون البطائحي معتقلا حتى صلب في سنة ٥٢٢هـ ، وظل الآمر بدون وزير حتى قتله

الباطنية النزارية سنة ٥٢٤هـ وتولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ لدين الله عبد المجيد.

(٨) الحافظ لدين الله :

تولي الحافظ لدين الله عبد المجيد الحكم بعد مقتل ابن عمه الآمر علي أنه كفيل لطفل منتظر سوف تنجبه إحدى سراري الآمر بأحكام الله وتقرر أن يلي الوزارة هزار الملوك جوامرد بعد نصف يوم فقط من وزارته وولى بدلا منه أبا علي أحمد بن الأفضل الذي تلقب الأكمل ولم يكد يتولى الأكمل الوزارة حتي قبض على الحافظ عبد المجيد وسجنه واستولى على ما في القصر الفاطمي من أموال وذخائر ونقلها إلى دار الوزارة وأعلن الدعوة للإمام المنتظر على مذهب الإمامية الإثنا عشرية وأبطل الدعوة الإسماعيلية فأسقط إسم إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة وجعل في القضاء أربعة قضاة ، قاضيان سنيان أحدهما شافعي والآخر مالكي وقاضيان شيعه أحدهما إسماعيلي والآخر إثنا عشري بعد أن كان الفاطميون قد قصروا القضاء على المذهب الإسماعيلي وكاد الأكمل أن يقضي على الدولة الفاطمية فكرهه الإسماعيلية ودبروا لقتله بتحريض من أبي الفتح يانس الأرمني صاحب الباب ونجح يانس بمعاونة صبيان الخاص من قتل أبي علي الأكمل في المحرم سنة ٥٢٦هـ وأخرج الحافظ عبد المجيد من سجنه وأعيد إلى الخلافة فاتخذ يانس الأرمني وزيرا له ولقبه ناصر الجيوش سيف الإسلام وأعلن الحافظ الخلافة لنفسه خالصة وبويع على أنه الخليفة وإمام الزمان - كما يلقبه الإسماعيلية - بفضل مساعدة الوزير يانس له لكن العلاقة بين الخليفة حافظ عبد المجيد ووزيره ناصر

الجيوش يانس الأرمني ساءت وخشي يانس من تكبير صبيان الخاص ومؤامراتهم لسابق تآمرهم معه على قتل الأكمل فضيق عليهم وعمل على الخلاص منهم فدبر الخليفة الحافظ من دس السم للوزير يانس وقتله في سنة ٥٢٦هـ.

وأدى إعلان الحافظ عبد المجيد نفسه إماما إلى انقسام المستعلية على نفسها فقد قامت في الإسكندرية دعوة للطفل الذي ولد للآمر ولقبوه الإمام الطيب وضربوا السكة باسمه في الإسكندرية وقد أيدت هذه الدعوة الطيبية ملكة اليمن الملكة الحرة أروى بنت الصليحي التي قالت أنها تلقت من الآمر كتابا بشرها فيه بمولد ولي عهده ولذلك إعتبرت الحافظ عبد المجيد مغتصبا للخلافة وأنه لا حق له في إمامة الدولة الإسماعيلية ومن ثم فقد انقسمت المستعلية إلى فرقتين الحافظية التي تقول بصحة إمامة الحافظ عبد المجيد والطيبية التي تنادي بإمامة الطيب بن الآمر ، وكان لهذا الانقسام الثاني في الدعوة الإسماعيلية أثره الخطير على الدولة الفاطمية فلم يقتصر على خروج اليمن على طاعة الدولة الفاطمية في القاهرة وإنما أثرت أيضا على مصداقية الدعوة الإسماعيلية وأدت إلى انصراف الكثيرين عن المذهب الفاطمي الإسماعيلي حتى أن رضوان بن ولخشي الذي تولى الوزارة لاحقا في عام ٥٣١هـ كان سنيا وأخذ يقدح علنا في مذهب الخليفة الحافظ وهم بخلعه من الخلافة بدعوى أنه ليس بخليفة ولا بإمام.

كان الخليفة الحافظ عبد المجيد قد ظل نحو عام بلا وزير بعد مقتل يانس الأرمني لكنه استوزر في عام ٥٢٩هـ أرمينيا آخر هو بهرام ولقبه سيف الإسلام تاج الخلافة مع أنه كان نصرانيا. وقد أحسن بهرام الأرمني

إدارة البلاد وقضى على مؤامرة دبرها الحسن بن الحافظ ضد أبيه وأزال ما كان في البلاد من فتن وقلاقل ووصف بأنه راجح العقل حسن التدبير إلا أن ذلك لم يشفع له بدعوى أنه نصراني وقد تخوف الجند بسبب إكثاره من الأرمن حوله حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفا فأرسلوا إلى رضوان بن ولخشي يستقدمونه إلى القاهرة فقدم إليها رضوان بن ولخشي وطرد بهرام الأرمني من الوزارة فولاه عليها الخليفة الحافظ عبد المجيد سنة ٥٣١هـ ولقبه السيد الأجل الملك الأفضل ، لكن خلع بهرام من الوزارة وتولية رضوان بن ولخشي إياها فتح باب الصراع بين المسلمين والأرمن فتشدد رضوان على الأرمن وصادرهم وقتلهم بالسيف وأباد أكثرهم وبذلك قضى رضوان بن ولخشي على الجند الأرمن وقتل كثيرا من أعوان بهرام لكن الخليفة الحافظ عبد المجيد أحضر بهرام وأسكنه في قصره مكرما فعظم ذلك على رضوان بن ولخشي ووقعت الحرب بينه وبين جند الخليفة بقيادة علي بن السلار واضطر رضوان إلى الفرار إلى عسقلان ومنها إلى صلخد ثم عاد في قوة من ألف فارس في صفر سنة ٥٣٤هـ فتمكن الحافظ عبد المجيد من اعتقاله بالقصر قريبا من الدار التي يسكنها بهرام ثم تمكن رضوان بن ولخشي من الهرب وجمع حوله عدة من الجند دخل بهم القاهرة لكن بعض السودان غدروا به وقتلوه وبعد يومين من مقتله توفي الخليفة الحافظ عبد المجيد وتولى بعده ابنه الظافر بالله.

(٩) الظافر بالله :

لما توفي الخليفة الحافظ لدين الله عبد المجيد بويع ابنه أبو المنصور إسماعيل وتلقب الظافر بالله فاستوزر نجم الدين أبا الفتح سليم بن مصال ،

لكن علي بن السلار والي الإسكندرية والبحيرة نافس ابن مصال على الوزارة ، وانضم إلى ابن السلار عباس بن باديس ربيبه وابن زوجته بلارة واتفقا على إزالة ابن مصال من الوزارة ولم يستطع ابن مصال رغم تأييد الظافر له أن يتصدى لابن السلار فعبر إلى الجيزة وجمع حوله كثيرا من السودان والعربان والبربر فندب ابن السلار ربيبه عباس بن باديس الصنهاجي لقتال ابن مصال فانهزم ابن مصال وقتل سنة ٥٤٤هـ / ١١٥٠م عند بلدة دلاص بالوجه القبلي جنوبي مدينة الواسطى فانفرد ابن السلار بالوزارة وكان سنيا شافعيا فخاف منه الخليفة الظافر ودبر المكائد للخلاص منه حتى نجح في التخلص منه بيد نصر بن العباس ، وكان نصر بن عباس قد تربى في كنف جدته بلارة في بيت ابن السلار محوطا برعايته لكنه تنكر لما لابن السلار من فضل عليه وقتله بتحريض من الخليفة الظافر بالله ، وكافأ الخليفة عباس وابنه نصر على قتل ابن السلار ، فولى عباس الوزارة وأغدق على نصر بن عباس الهبات والإقطاعات فقيل أنه أعطاه ٢٠ ألف دينار كما منحه إقطاع قليوب فلفت ذلك أنظار الناس فخاضوا في سيرة عباس وابنه نصر ، فاستاء عباس وحرض ابنه على قتل الخليفة الظافر فقتله في المحرم سنة ٥٤٩هـ ، وبويع ابن الظافر بالخلافة ولقب بالفائز وكان طفلا في الخامسة من عمره ، وظن عباس ان الأمور دانت له ، لكن أهل القصر سعوا للخلاص منه وأضمروا له العداوة والبغضاء واستعانوا عليه بطلائع بن رزيك والي الأشمونيين.

ويجدر بنا ان نشير إلى أول محاولة للاستعانة بنور الدين محمود لحماية مصر من الخطر الصليبي ، فقد أنفذ الوزير ابن السلار أسامة

بن منقذ إلى نور الدين محمود يطلب عونه في فتح طبرية الفاقين الحـــدود المصرية ، لكن نور الدين محمود لم تكن ظروفه قد تهيأت بعد للتدخل فـــي شئون مصر ، لكنه سمح لأسامة بن منقذ بجمع المتطوعين من أهل الشـــام ، فجهز أسامة بن منقذ من هؤلاء المتطوعة جيشا سار به لحصـــار عســقلان لكنه فشل في فتحها بعد حصار استمر أربعة أشهر فأمره الوزير ابن الســلار برفع الحصار والعودة إلى القاهرة ، وكان تلـــك فاتحـــة التنـــافس بيـــن الصليبيين ونور الدين محمود على الاستيلاء على مصر وهو التنافس الـــذي حسم في النهاية لصالح نور الدين محمود لكنه أدى - كما سنرى - إلى سقوط الخلافة الفاطمية.

(١٠) الفائز بنصر الله :

بايعه بالخلافة الوزير عباس الصنهاجي وهو في الخامسة من عمره بعد مقتل والده الظافر ، وقد ظن الوزير عباس أن الأمور لن تخرج من يـــده ، لكـــن أهل القصر سرعان ما استعانوا بوالي الأشمونين طلائع بن رزيك وبعثـــت إليه نساء القصر بشعورهن لإثارة نخوته فجاء علـــى رأس قواتـــه ودخـــل القاهرة سنة ٥٤٩هـــ ، بعد أن هرب منها عباس وابنه نصر ، فتولى طلائـــع بن رزيك الوزارة وتلقب بالملك الصالح ، وكان الملك الصالح طلائـــع بـــن رزيك قوي الشكيمة فاستطاع أن يعيد النظام والأمن إلى البـــلاد ، ويضبـــط أمورها وعاقب الجناة الذين اشتركوا مع نصر بن عبـــاس فـــي جريمتـــه ، وقضى على ثورات المنافسين مثل ثورة طرخان والي الإسكندرية الذي طمع في الوزارة لكن الصالح طلائع بن رزيك تمكن من إخماد ثورتـــه ، وتتبـــع الملك الصالح طلائع كل من كان يخشى منافسته من أمراء الدولة وتخلـــص

منهم الواحد إثر الآخر حتى خلا له الجو وأظهر مذهب الإمامية الإثنا عشرية وسيطر على القصر سيطرة تامة حتى أنه بعد وفاة الفائز بايع العاضد بالخلافة وأرغمه على الزواج من ابنته طمعاً في أن تئول الخلافة لسبطه على نحو ما فعل بدر الجمالي من قبل حين زوج ابنته من المستعلي وأنشأ في الجيش فرقة جديدة يقال لهم البرقية على رأسها ضرغام واهتم بالجيش والأسطول لمجاهدة الصليبيين وجعل لنفسه حرساً يسمى المصامدة برئاسة عبد الله المصمودي واختط لهم في القاهرة حارة عرفت بحارة المصامدة.

(١١) العاضد لدين الله :

لما توفي الخليفة الفائز أقام الوزير الصالح طلائع بن رزيك في الخلافة من بعده العاضد لدين الله ، وكان العاضد صغيرا لم يبلغ الحلم فاستبد الصالح طلائع بالأمور من دونهم وثقلت وطأته على أهل القصر لدقته الإدارية فتربصوا به في دهاليز القصر حتى أمكنتهم الفرصة فضربوه حتى سقط على الأرض وحمل إلى داره جريحا وقيل إن العاضد اشترك بنفسه في التآمر على الصالح طلائع بن رزيك ولكن مقتل الصالح طلائع ترك فراغا سياسيا كبيرا لما كان يتمتع به من شخصية قوية مسيطرة ، فدخلت البلاد في حالة من الفوضى لا مثيل لها ، وبدأ التدهور يدب في الدولة وانقسم البرقية على أنفسهم فريق مع شاور وآخر مع ضرغام وكان الصالح طلائع قد أوصى بالوزارة لابنه رزيك من بعده فتولاها وتلقب بالملك العادل ، كما أن الصالح طلائع أوصى ابنه حين حضرته الوفاة ألا يصطدم بشاور والي الصعيد لأن شاور الذي كان من صنائع الصالح طلائع تزايد سلطانه وقوي

مركزه حتى أصبح من الخطورة الاصطدام به ، لكن الملك العادل رزيك خالف نصائح أبيه الصالح طلائع وعزل شاور عن ولاية الصعيد ، فخرج شاور على الملك العادل رزيك وساندة في ثورته بعض الأعراب وأهل الصعيد ، وتمكن من دخول القاهرة في المحرم سنة ٥٥٨هـ وخلع العادل رزيك من الوزارة ثم قتل العادل بيد طي بن شاور . فأغضب ذلك الأهالي لما كان للعادل فيهم من سيرة جميلة ، وزاد في غضب الأهالي ما ارتكبه شاور وأولاده من أخطاء ومصادرتهم الأموال ، فكره المصريون شاور ، وثار عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار اللخمي صاحب الباب وأمير البرقيه ، ففر شاور إلى الشام ، وانتهت وزارته الأولى وتولى الوزارة ضرغام في رمضان سنة ٥٥٨هـ.

استنجد شاور بنور الدين محمود وألح في طلب نصرته ، وتعهد له أن يدفع نفقات الحملة التي ترسل معه لتعيده إلى الوزارة ، وأن يدفع لنور الدين ثلث دخل مصر كجزية سنوية ، وأن يتصرف في مصر كوكيل عن نور الدين محمود ، وتردد نور الدين محمود كثيرا قبل أن يوافق شاور إلى طلبه لأنه لم يكن يثق به ، لولا تطور الحوادث في مصر إذ تعرضت مصر لمحاولات من الصليبيين للنفوذ إليها تحت شعار مساعدة من يطلب مساعدتهم من الوزراء المتنافسين.

كان كل من نور الدين محمود والصليبيين يطمعون في امتلاك مصر فقد كان نور الدين محمود يرى في الاستيلاء على مصر إمكانية تطويق الصليبيين وتكوين جبهة إسلامية متحدة من مصر والشام يمكن أن تكون لها آثار حاسمة في الجهاد ضد الصليبيين ، بينما كان الصليبيون يرون في مصر

الميدان الطبيعي للتوسع بعد أن أغلق عليهم نور الدين محمود طريق التوسع شمالا كما كانوا يريدون الاستيلاء عليها حتى لا يقعوا بين طرفي الكماشة التي يريد أن يطبقها عليهم نور الدين محمود.

والواقع إن أطماع الصليبيين في مصر كانت قديمة منذ أن نجحوا في تأسيس مملكة بيت المقدس ، فقد أعد جودفري دي بوايون أول ملوك بيت المقدس من الصليبيين مشروعا لغزو مصر لكنه توفي قبل أن ينفذه ، فلما خلفه أخوه بلدوين الأول قام بحملة استطلاعية إلى مصر وصل فيها إلى الفرما وتنيس ولكنه توفي في طريق عودته عند العريش. ولما تولى عموري الأول مملكة بيت المقدس سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م حاول أن يضع أحلام الصليبيين في الاستيلاء على مصر موضع التحقيق ، وتنافس كل من عموري الأول ونور الدين محمود للاستيلاء على مصر ، في وقت كانت تقاسي فيه الدولة الفاطمية من الضعف والانحلال وتعاني من آلام الموت البطيء بعد أن فقدت الخلافة الفاطمية هيبتها وتنافس الوزراء العظام على الحكم تنافسا أعمى لا يميز بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة لكل منهم وكان كل منهم على استعداد لمحالفة الشيطان في سبيل الحفاظ على كرسي الوزارة.

استعان شاور بنور الدين - كما سبق أن ذكرنا - فوافق نور الدين بعد تردد لأنه خشي أن ينفذ الصليبيون إلى مصر ، وكان عموري الأول قد غزا مصر سنة ٥٥٨هـ فوصل إلى بلبيس وحاصرها ، ولكن ضرغام أرغمه على الانسحاب بعد أن فتح سدود النيل - إبان الفيضان - فأغرق البلاد وقطع على عموري سبيل التقدم ، فعاد إلى فلسطين ، لكن ضرغام علم

بتحالف نور الدين وشاور ، فسعى لمحالفة عموري الأول ملك بيت المقدس وكان جيش نور الدين الذي أرسله إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه أسرع حركة فوصل إلى مصر قبل أن يتمكن عموري من التحرك نحو مصر ، ونجح شيركوه في إعادة شاور إلى الوزارة بينما تخلى أتباع ضرغام عنه وانتهى الأمر بمقتل ضرغام ، فظن شاور أن البلاد قد دانت له بلا منافس فتنكر لعهوده التي قطعها على نفسه لنور الدين محمود ورفض أن يدفع ما فرضه على نفسه من جزية ، بل طلب من أسد الدين شيركوه مغادرة مصر لكن شيركوه أصر على تنفيذ ما اتفق عليه ورد على تصرفات شاور باحتلال بلبيس والشرقية ، فأقدم شاور على ما أقدم عليه سلفه ضرغام من قبل ، واستنجد بالصليبيين ووعد عموري بمبلغ كبير من المال إذا عاونه في الخلاص من شيركوه لكن شيركوه دعم مركزه في بلبيس وتلقى معونات من عرب كنانة بالشرقية ، وعندما بدأ عموري في محاصرة شيركوه في بلبيس ، تم الاتفاق على أن يغادر شيركوه وعموري مصر معا ، فخرجا كلاهما سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م وتركا مصر لشاور مرة أخرى.

ظلت القوتان المتنافستان تتحينان الفرص للاستيلاء على مصر بعد أن أدركتا مدى غناها وضعفها ، وكان شيركوه يلح على نور الدين محمود أن يعيده إلى مصر ، وسنحت له الفرصة ليعيد أسد الدين شيركوه إلى مصر بعد أن أرسل الخليفة العاضد يستنجد به من ظلم شاور الذي تشبث في وجهه القلاقل الداخلية مثل ثورة يحيى بن الخياط أحد أنصار الصالح طلائع بن رزيك وغير ذلك من القلاقل. وأتى أسد الدين شيركوه في ثاني حملة له على مصر وكان يصطحبه ابن أخيه صلاح الدين ، وكان شيركوه يتوقع أن يخف

عموري لنجدة شاور ، فعبر النيل إلى الجيزة حتى لا يكـــون بيـــن فكـــي الكمـــاشة : عموري من الشرق وشاور من الغرب وقد صـــح مـــا توقعـــه شيركوه ، فقد استنجد شاور بعموري الأول الذي أسرع إلى مصر وانضـــم شاور إلى عموري ، لكن عموري عقد اتفاقية مع شاور جعلت من الصليبيين حماة لمصر وتعهد شاور بدفع مبلغ كبير من المال للصليبيين ، وأخذ جيـــش شاور - عموري يعبر النيل لمحاربة أسد الديـــن شـــيركوه الـــذي رأى أن يستدرجهم إلى الصعيد ثم دارت بين الطرفين معركة قرب الأشـــمونين فـــي المنيا تعرف بمعركة البابين سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م ، وانتصر فيها شيركوه فتوطدت أقدامه في الصعيد وتقهقر عموري وشاور إلـــى القـــاهرة ولكـــن شيركوه لم يكن يملك القوة الكافية لمتابعة انتصاراته والاستيلاء على القـــاهرة ، فسار في الصـــحراء شمالا حتى دخل الإسكندرية دون مقاومة إذ رحـــب بـــه أهلها ليخلصهم من الخطر الصليبي ، فأقام شيركوه ابن أخيه صلاح الديـــن واليا على الإسكندرية وعاد هو بمعظم قواته إلى الصعيد ليجبـــي الأمـــوال فاتجه شاور وعموري لمحاصرة الإسكندرية فاستنجد صلاح الدين بعمه أسـد الدين شيركوه الذي أسرع لنجدته ، لكن الفريقين اصطلحا علـــى أن يتركـــا مصر ، وانفرد شاور بحكم مصر مرة أخرى.

وكان عموري ملك بيت المقدس يريد البقاء بمصر ، وإذا كـــان قـــد اضطر لقبول الصلح والخروج من مصر بسبب هجوم نـــور الديـــن علـــى الصليبيين في بلاد الشام ، فإنه حقق نوعا من السيادة أو الحمايـــة الصليبيـــة على شاور و الخلافة الفاطمية ، إذ تعهد شاور أن يدفع لعموري جزية سنوية

قدرها مائة ألف دينار ، وبقيت حامية صليبية لحماية أبواب القاهرة ، وعين مندوب (شحنة) لعموري في القاهرة كان له رأي مسموع في شئون الحكم.

✪ استيلاء نور الدين على مصر :

لم يتخل عموري عن فكرة الاستيلاء على مصر ، خصوصا وقد عرف أوجه القصور والضعف فيها ، لكنه أدرك أنه لا يستطيع وحده غزو مصر فتحالف مع الإمبراطور البيزنطي على غزوها على أن يقتسماها فيما بينهما ، ولكن الإمبراطور البيزنطي انشغل في البلقان ، وطلب من عموري أن يمهله بعض الوقت حتى يفرغ لغزو مصر ، لكن عموري أسرع بمهاجمة مصر دون أن ينتظر الإمبراطور البيزنطي ، وكان سبب إسراعه هو تنكر شاور لتعهداته للصليبيين ، واضطراره تحت ضغط الرأي العام الإسلامي إلى أن يتخلى عن تحالفه مع الصليبيين والاتصال بنور الدين محمود ليساعده في الخلاص من الحماية الصليبية ، والواقع أن شاور كان ينتهج سياسة انتهازية لا تهدف إلا لتحقيق مصلحته الخاصة في الانفراد بمصر وحاول أن يستغل الفريقين : الصليبيين ونور الدين أحدهما ضد الآخر حتى يحصل على ما يبتغيه ، فكان لا يرى غضاضة في أن يقلب موقفه مع هذا أو ذلك طالما أنه يؤدي في النهاية إلى تحقيق استقلاله بمصر ولكن شاور دفع بهذه السياسة المتقلبة ، الخلافة الفاطمية إلى الهاوية ، فانتهى أمرها بالسقوط.

غزا عموري مصر للمرة الرابعة سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م لكنه وجد هذه المرة مقاومة عنيفة لم يعهدها من قبل. وكان شاور قد أحرق الفسطاط في نوفمبر سنة ٥٦٤هـ ، واستعد للدفاع عن القاهرة وأدرك عموري صعوبة الاستيلاء على القاهرة فتراجع عنها بعد أن دفع له شاور مائة ألف

دينار ، واتجه عموري إلى سرياقوس وتربص لجيش شيركوه. وكانت خطته تهدف إلى مباغتة شيركوه عند فاقوس وقواته لا تزال متعبة من عناء الرحلة الطويلة وقبل أن تلتحم مع القوات المصرية ، لكن هذه الخطة لم تنجح لأن شيركوه تجنب الطريق الذي يعسكر فيه عموري واخترق الصحراء إلى القاهرة مباشرة وبذلك فوت على عموري فرصة مباغتة جيشه ، ووصل شيركوه إلى القاهرة ودخلها وسط ترحيب أهلها ، فلم يجد عموري حليفا يتعاون معه وأدرك حرج موقفه ، فانسحب فورا من مصر عائدا إلى فلسطين سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م ومعه جيشه خائبا فيما أمله على حد قول ابن الأثير [١].

ودخل شيركوه القاهرة دخول الظافرين ورأى الناس فيه بطلا منقذا ، ورحب به الخليفة العاضد وخلع عليه الوزارة ولقبه بالمنصور ، وعظمت مكانته ، وتردد عليه رجال الدين لقضاء حوائجهم لذلك أحس شاور بضرورة التخلص من شيركوه ، بينما كان شيركوه يدرك كل الإدراك أن شاور سيعمل جهده للإيقاع به ، وكان واثقا أن الفرصة لن تتهيأ له بامتلاك مصر طالما بقي شاور ، لذلك كان كلا من الطرفين يعمل من جانبه على الإيقاع بالآخر

وقامت خطة شاور على الاستعانة بالصليبيين للتخلص من شاور ، فأرسل إليهم يستدعيهم لنجدته مرة أخرى ويطلب منهم الحضور عن طريق دمياط ، بينما دبر في الداخل مؤامرة لقتل شيركوه وأمراء جنده جميعا أثناء وليمة يعدها لهم ، ولكن شيركوه كان يدرك مرامي شاور خصوصا بعد أن ماطل في الوفاء بعهد كان قد قطعه على نفسه بأن يدفع لشيركوه ثلث أموال

---

(١) الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٤هـ.

البلاد. واجتمع شيركوه بأعيان البلاد الذين قالوا له أن شاور سبب فساد البلاد والعباد وطالبوا بالتخلص منه وقتله وإنقاذ المسلمين من شره ، وهكذا ظهر شيركوه بمظهر من ينفذ رغبة شعبية ، فقبض على شاور حينما ذهب ليدعو شيركوه إلى الوليمة التي تآمر فيها على قتله ، وقتل شاور بأمر من الخليفة العاضد ، وأباح شيركوه للناس نهب قصر شاور والتخلص من ولده الكامل حتى لا يثير في وجهه القلاقل لاحقا وبذلك انتهى خطر شاور تماما وولى الخليفة العاضد الوزارة لشيركوه الذي ما لبث أن توفي بعد شهرين فقط من الخلاص من شاور فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين.

✿ صلاح الدين الأيوبي :

لم يكن صلاح الدين يوسف بن أيوب أكبر قادة جيش شيركوه حتى يخلفه في الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي ، لكن الخليفة العاضد اختاره دون بقية القادة لتولي الوزارة وأصر عليه ، إذ حاول صلاح الدين أن يمتنع ، ولكن الخليفة العاضد أصر على إحضاره إلى القصر وخلع عليه خلعة الوزارة ، ويبدو أن العاضد كان يظن أن صغر سن صلاح الدين وقلة خبرته ستجعل منه أداة طيعة في يد الخليفة الفاطمي يستطيع أن يسيره وفق مشيئته وأن يستعين به في القضاء على بقية أمراء نور الدين في مصر فيكون بذلك قد تخلص من نفوذ نور الدين وشاور جميعا ، وفضلا عن ذلك فقد كان من الطبيعي أن يثير اختيار صلاح الدين للوزارة حقد قادة الجيش النوري على صلاح الدين ، لأنه لم يكن أكبرهم سنا ولا مكانة ، وبالتالي فإن العاضد أراد أن يبذر بذور الفرقة في صفوف الجيش النوري في مصر فيهون عليه شأنه.

ولكن صلاح الدين أخلف ظن الخليفة العاضد ، فقد ظهر بعد توليه الوزارة أنه ليس بالغض ولا بقليل الخبرة ، وإنما أظهر في معالجة الأمور حكمة وكفاءة واتجه إلى تقوية مركزه تدريجيا حتى لا يثير حقد الحاقدين ، وأدرك صلاح الدين أن الأهالي هم عدته في المواقف الحازمة لمواجهة الخليفة ، فعمل جاهدا على اكتساب ثقة الأهالي ومحبتهم ، فبذل لهم الأموال وكان له من كرمه ما أكسبه قلوبهم ، فمالوا إليه وسارعوا إلى طاعته ، فأسند مهام الدولة إلى أنصاره وأضعف نفوذ العاضد الفاطمي.

سخط البلاط الفاطمي لتزايد نفوذ صلاح الدين فدبر رجال البلاط الفتن والمؤامرات للنيل من صلاح الدين ولم يحجموا عن الاستغاثة بالصليبيين أو غيرهم من الأعداء في سبيل تحقيق مصالح ذاتية غير مبالين بالمصلحة العامة وما يمكن أن يجروه على البلاد من ويلات ، وكان من أخطر المؤامرات التي دبروها ضد صلاح الدين ، تلك المؤامرة التي دبرها كبير الخصيان السودان في القصر ، وكان يسمى نجاح ، ويشغل وظيفة مؤتمن الخلافة ، وقد حاول مؤتمن الخلافة أن يتصل بعموري الأول ملك بيت المقدس الصليبي ، ليجيء لغزو مصر من الشرق بينما يشعلون هم الثورة في القاهرة فيقع صلاح الدين بين نارين أو بين فكي الكماشة فيقضى عليه ، لكن رسالة مؤتمن الخلافة نجاح وقعت في يد صلاح الدين فرأى أن يقطع رأس الحية حتى يستأصل الشر من جذوره ، فقتل مؤتمن الخلافة سنة ٥٦٤هـ / ١١٥٩م. وأخذ صلاح الدين في إبعاد الخصيان السودان (الخدم) عن القصر فأثار ذلك حنقهم وأشعلوا ثورة ضارية على صلاح الدين حتى انه اضطر إلى أن يحرق حيهم المعروف حينذاك بالمنصورية ،

فطلبوا الأمان وانتقلوا إلى الجيزة على الضفة الأخرى من النيل ، لكنهم استمروا في ثورتهم فوجه إليهم صلاح الدين أخوه توران شاه على رأس الجند فقضى على ثورتهم .

توطدت أقدام صلاح الدين في مصر مما أفزع الصليبيين في الشام ، إذ أدركوا خطورة وضعهم بعد أن وقعوا بين شقي الرحى : نور الدين في الشام ، وتابعه صلاح الدين في مصر ، وكان يزيد الأمر خطورة عليهم أن استيلاء صلاح الدين على الموانئ المصرية على البحر المتوسط مثل دمياط وتنيس والاسكندرية يهدد سيادة الصليبيين على الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، لذلك رأى عموري الأول ملك بيت المقدس الصليبي أن يتحرك بسرعة لغزو مصر والاستيلاء عليها قبل أن يستفحل شأن صلاح الدين فيها وأدرك عموري ضرورة الاستعانة بأوربا لتنفيذ هذا المشروع الخطير . لكنه فشل في الحصول على معونة سريعة من غرب أوربا فاتجه إلى الإمبراطورية البيزنطية وتحالف معها على غزو مصر واقتسامها .

قامت خطة الصليبيين والبيزنطيين على غزو مصر برا وبحرا ، يأتي الصليبيون برا من الشرق ويأتي البيزنطيون من البحر فيلتقوا عند دمياط ويستولوا عليها ويتخذونها قاعدة للوثوب على بقية البلاد ، وكان عموري يأمل في أن تقوم ثورة داخلية ضد صلاح الدين على النحو الذي كان يدبر له مؤتمن الخلافة فيسهل بذلك القضاء على صلاح الدين ، وكان صلاح الدين بعد أن علم بتحرك الصليبيين قد حصّن بلبيس ظنا منه أنهم سيقصدون القاهرة عن طريق الشرقية كما هي عادتهم في حملاتهم السابقة لكن الحملة اتجهت إلى دمياط فتحرج موقف صلاح الدين خصوصا وأنه

خشي المكائد الداخلية التي يمكن لرجال البلاط الفاطمي أن يدبروها ، إلا أن صلاح الدين تصدى للموقف بثبات ، فأرسل إلى نور الدين محمود يستنجده فأرسل إليه الإمدادات من جهة وأخذ من جهة أخرى يهاجم أملاك الصليبيين في الشام حتى يجبر عموري على العودة لحماية أملاكه . وكان الدور الأكبر في نجاح المقاومة يرجع إلى مدينة دمياط نفسها ، فقد نجحت المدينة في أن تصمد للحصار الذي فرض عليها أكثر من خمسين يوما وقد ساعدها على ذلك موقعها البعيد قليلا عن ساحل البحر فكان من الضروري لدخولها أن يجتاز الأسطول البيزنطي بوغاز النيل ، لكن المصريين كانوا يضعون سلاسل حديدية بعرض البوغاز – تسمى المأصر – لتمنع دخول سفن الأعداء إلى مجرى النهر كما أن الحصار لم يكن تاما بسبب نجاح صلاح الدين في إدخال الجند والميرة إلى داخل المدينة فقويت نفوس المحاصرين في دمياط والذين استغلوا جريان تيار النيل جهة الشمال إلى البحر فأطلقوا على صفحة النهر أواني فخارية بها مواد مشتعلة أصابت الأسطول البيزنطي بأضرار بالغة فاضطر إلى الابتعاد عن لسان النيل والمدينة .

لم يكن المهاجمون من الصليبيين والبيزنطيين يتوقعون هذه المقاومة الصلبة من أهل دمياط لذلك فترت عزائمهم كلما طال الحصار ، واشتد قلق عموري بسبب مهاجمة نور الدين محمود لأملاكه في الشام فاضطر إلى رفع الحصار عن دمياط والعودة إلى فلسطين ، بينما اشتعلت النيران في بعض السفن البيزنطية وفشل البحارة في التحكم في السفن الأخرى بسبب اشتداد الرياح فغرق كثير منها واضطروا إلى العودة ، وبذلك فشلت هذه الحملة

الصليبية البيزنطية ،وتقوى مركز صلاح الدين في مصر ، فأرسل إلى نور الدين محمود يطلب منه إرسال أبيه وأقاربه إلى مصر ، فوصل نجم الدين أيوب وأسرته إلى مصر سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م وكانوا خير عضد وسند لصلاح الدين في مشاريعه المقبلة .

سقــوط الخلافــة الفــاطمية

توطدت سلطة صلاح الدين في مصر وأصبح حاكمها المطلـــق ، إذ هوت سلطة الخليفة العاضد بالله الفاطمي إلى الحضيض ، ولم يصبح له فـــي السلطة أمر ولا نهي ، وكان أمرا متناقضا أن تبقى الخلافة الفاطمية الشيعية تحت حماية قوة سنية متشددة في ميولها السني إذ كان نور الدين سنيا متشددا وكان صلاح الدين كسيده نور الدين في ميوله السنية ، لذلك كانت القضيـــة تطرح نفسها بإلحاح ، وتعني بها قضية وضع الخلافة الفاطمية إذ طالب نـــور الدين محمود من صلاح الدين إسقاط اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة وإحلال اسم الخليفة العباسي محله ومعنى تلك الخطوة إسقاط الدولة الفاطمية.

ومع أن صلاح الدين كان يميل إلى تنفيذ هذه الخطوة لأنه لم يكن أقل سنية من نور الدين محمود ،إلا أنه كان متخوفا من الإقدام على هذه الخطـوة مع أنه كان يبذل جهده منذ أن تولى الوزارة لتدعيم المذهب السني وتقليـــص نفوذ الشيعة في البلاد وبات الخليفة العاضد الفاطمي عاجزا عن أية مقاومـــة فلم يكن لاعتراضه أثر كبير ، لكن مخاوف صلاح الدين لم يكن مرجعها إلى معارضة الخليفة الفاطمي ولا إلى نفوذ الشيعة في مصر ، بل كان متخوفـــا من نور الدين نفسه ، فقد أحس صلاح الدين بتغير شعور سيده نحوه ، وأنـــه بات يحسده على ما وصل إليه من نفوذ في مصر ، لذلك آثر صلاح الديـــن أن يتمهل وأن يبقي على الخلافة الفاطمية في صورتها الشكلية ليمكنه الإفادة منها وقت الحاجة إذ ساءت علاقته بنور الدين محمود .

أخذ نور الدين محمود يلح في إسقاط الخلافة الفاطمية ، وأخذ صلاح الدين يماطل في تنفيذ رغبة سيده حتى ضاق نور الدين ذرعا بهذه المماطلة .

فأنفذ إليه أمراً نهائياً بإسقاط اسم الخليفة الفاطمي العاضد من الخطبة وإحلال اسم الخليفة العباسي المستضيئ محله ، ولم يترك نور الدين لصلاح الدين هذه المرة سبيلاً للمماطلة أو التأخير ، بل أنه – على حد قول ابن واصل في كتابه مفرج الكروب – ألزمه ذلك إلزاماً لا فسخ فيه ، فلم يجد صلاح الدين بداً من الانصياع لرغبة سيده نور الدين وتنفيذ هذه الخطوة الخطيرة لإسقاط الخلافة الفاطمية .

عقد صلاح الدين مجلساً من أمراء الجند واستشارهم في تنفيذ أمر نور الدين وإسقاط اسم الخليفة العاضد الفاطمي من الخطبة وذكر اسم الخليفة العباسي المستضيئ بدلاً منه ، فوافق بعضهم على هذا الرأي وعضدوه ورأى بعضهم الآخر خطورة هذا الرأي وعارضوه ، إلا أن رجلاً فارسياً ذا ميول عباسية كان قد وفد إلى مصر منذ وقت قريب إعتزم أن يحسم الأمر بنفسه ، فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ – ودعا للخليفة المستضيئ العباسي فلم يحتج أحد على ذلك ، فأمر صلاح الدين في الجمعة التالية جميع الخطباء أن يخطبوا باسم الخليفة العباسي .

وحدث هذا الانقلاب الخطير في هدوء ودون أدنى مقاومة أو على حد قول ابن الأثير "لم ينتطح فيه عنزان" وكان الخليفة العاضد بالله الفاطمي أثناء ذلك مريضاً مرض الوفاة فلم يخبره صلاح الدين – ولا غيره – بما آل إليه أمر الخلافة الفاطمية حتى لا يفجع بهذه الحادثة قبل موته ، فتوفى العاضد بعد ثلاثة أيام من هذا التغيير الخطير دون أن يعلم به ودون أن يعلم أنه قد خلع من الخلافة بعد وفاة العاضد .

اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات حاسمة للقضاء على آثار الخلافة الفاطمية في مصر ، فنزع مناطق الفضة التي كان منقوشاً عليها أسماء الخلفاء الفاطميين من على محاريب جوامع القاهرة . وولى على القصر الطواشي بهاء الدين قراقوش حتى يستطيع السيطرة على القصر وأسكن أولاد العاضد وسائر الأسرة الفاطمية في جناح من القصر تحت سيطرة قراقوش . أما الموالي فقد أخرجوا من القصر فأعتق صلاح الدين بعضهم ووهب لأنصاره بعضهم وباع البعض الآخر .

وهكذا سقطت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر فترة طويلة امتدت لحوالي قرنين من الزمان . وإذا كان صلاح الدين هو المسؤول مسؤولية مباشرة عن سقوطها ، فقد كانت الدولة الفاطمية مهيأة لذلك السقوط نتيجة لعدة عوامل منها :

(١) عدم حسم قضية نسبهم العلوي : كان الفاطميون أنفسهم مسؤولين عن ضعف دولتهم بعدم حسمهم لقضية نسبهم العلوي فقد كان نسبهم موضع شك كبير بين جمهور غفير من المسلمين ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلوها لإثبات صحة هذا النسب فإنهم لم يحسموا هذه القضية تماماً حتى أننا لا نزال نجده إلى وقتنا هذا أمراً غامضاً فكيف بمعاصريهم الذين كانوا يتأثرون بأقوال المعارضين ، وكان المعارضون للخلافة الفاطمية يطالعونهم بين الحين والآخر بدعاوى جديدة للتشكيك في انتساب الفاطميين العلويين ، ووصل الأمر إلى حد أن الخلافة العباسية عقدت عدة مؤتمرات لتكذيب انتساب الفاطميين إلى البيت العلوي ولا شك أن ذلك كان له صداه في نفوس المسلمين ليس في مصر وحدها وإنما في سائر العالم الإسلامي .

(٢) نفور المصريين السنة : لم يوفق الفاطميون في استمالة المصريين إليهم على الرغم من الجهود التي بذلوها في ذلك من حين لآخر، ولم تتقبل أغلبية المسلمين المصريين السنة المذهب الشيعي ، فعلى الرغم من حب المصريين واحترامهم لآل البيت ، إلا أن أغلبهم كانوا سنيين متمسكين بسنيتهم ، وعبثا حاولت الدعوة الشيعية أن تنفذ إلى قلوبهم ، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى الاعتدال في الطبيعة البشرية المصرية والتي تتعارض تعارضا أساسيا مع التطرف الشيعي عموما والتطرف الإسماعيلي المغالي فيه على وجه الخصوص . وفضلا عن ذلك فقد كان للانقسامات الخطيرة التي حدثت في الدعوة الإسماعيلية ، أثره في زعزعة ثقة المصريين في المذهب الفاطمي ونفورهم منه. وكان لمعاناة المصريين من جراء الانقسام الإسماعيلي إلى نزارية ومستعلية ثم انقسام المستعلية إلى طيبية وحافظية أسوأ الأثر على الدعوة الشيعية في مصر .

(٣) ضعف خلفاء العصر الفاطمي الثاني : كان الخلفاء الفاطميون في مصر خصوصا خلفاء العصر الفاطمي الثاني سببا في ضعف دولتهم فقد كانوا ضعافا تولى أكثرهم الخلافة وهم صغار السن فأصبحوا مجرد دمى يتلاعب بهم الوزراء وأهل البلاط الذين تدخلوا في شئون الدولة تدخلا سيئا أضعف مركزها وكان لنساء القصر دور خطير في إضعاف الدولة إذ تدخلوا في شئونها تدخلا مباشرا لم يكن أثره طيبا على مصير الدولة الفاطمية.

(٤) تزايد نفوذ الوزراء العظام : كان لتزايد نفوذ الوزراء العظام الذين بدأوا ببدر الجمالي أثره في ضعف الخلافة الفاطمية فقد أضعفوا سلطة الخلفاء الفاطميين من ناحية ومن ناحية أخرى كان بعض هؤلاء الوزراء

مخالفا للمذهب الإسماعيلي الذي قامت عليه الدولة الفاطمية فعمل على إضعاف المذهب والدولة معا ، وزاد من حدة هذا الضعف تنافس هؤلاء الوزراء العظام على الحكم وجر هذا التنافس التدخل الخارجي إلى مصر على النحو الذي أحدثه تنافس شاور وضرغام وتنافس النوريين والصليبيين على التدخل في مصر وهو الذي انتهى بسقوط الدولة الفاطمية كما سبق أن أشرنا.

(٥) **الأزمات الاقتصادية** : على الرغم من أن العصر الفاطمي يعد من أزهى عصور مصر الإسلامية فقد عانت البلاد فيه كثيرا من الأزمات الاقتصادية ونوبات الغلاء والوباء التي ترجع إلى عوامل طبيعية كانخفاض فيضان النيل حينا أو إلى عوامل بشرية كالقلاقل والمنازعات السياسية حينا آخر ، وقد تفاقمت بعض هذه الأزمات مثل الشدة العظمى المستنصرية وغيرها على نحو زعزع الثقة في قدرة الحكم الفاطمي وكفايته .

(٦) **الإنقسامات المذهبية** : كان للإنقسامات المذهبية التي حلت في الدعوة الإسماعيلية مثل إنقسامها إلى نزارية ومستعلية ثم انقسام المستعلية إلى طيبية وحافظية أثره الخطير في إضعاف الدولة الفاطمية إذ لم يؤد فقط إلى إضعاف الدعوة التي قامت عليها الدولة ولكنه أدى إلى كثير من الصراعات السياسية وانقسامات بين أفراد البيت الفاطمي ومن يتبعهم من الأفراد والجنود وأدى إلى خروج بعض الولايات مثل اليمن على طاعة الدولة الفاطمية.

(٧) كثرة أعداء الفاطميين : وكانت كثرة أعداء الفاطميين في المشرق والمغرب سببا في إنهاك قوى الفاطميين ، ففي الشرق ، كانت الخلافة العباسية العدو اللدود للفاطميين ، وانقلب عليهم القرامطة ، وأجهدهم الصراع مع السلاجقة ثم أجهز الصليبيون على أملاكهم في الشام ، وفي المغرب كانت الدولة الأموية في الأندلس منافسا خطيرا ثم خرجت أفريقية على الفاطميين في عهد المعز بن باديس الذي أعاد الخطبة للعباسيين ولاشك أن هذه القوى المعارضة شرقا وغربا أجهدت الفاطميين وأضعفت قواهم .

لهذه العوامل كان سقوط الخلافة الفاطمية متوقعا بل محتوما إن عاجلا أو آجلا ولم يكن صلاح الدين الأيوبي إلا - كقادح الزناد - السبب المباشر في سقوطها .

ولا ريب أن سقوط الدولة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب بسيط أو سقوط دولة لتحل محلها دولة أخرى وإنما كان سقوطها حدثا خطيرا في تاريخ الإسلام عامة وتاريخ مصر الإسلامية خاصة ، فبالنسبة للتاريخ الإسلامي العام انتهت الخلافة الشيعية الإسماعيلية في مصر وكانت الخلافة الأموية في الأندلس قد سقطت قبل ذلك بنحو قرن وثلث فتوحدت الخلافة في العالم الإسلامي من جديد ولم تعد له إلا خلافة واحدة هي الخلافة العباسية السنية ، أما بالنسبة لمصر فقد أقام صلاح الدين الأيوبي على أنقاض الخلافة الفاطمية المتهاوية دولة فتية هي الدولة الأيوبية التي ستحمل عبء التصدي للصليبيين ، ولا شك أن قيام مصر بهذا الدور العظيم في الدفاع عن العالم الإسلامي سيجعل منها زعيمة حقيقية له حتى في حالة وجود الخلافة

في بغداد فالواقع أن مصر لم تخسر سياسيا بسقوط الفاطميين وإنما ستتبوأ مكان الصدارة في عالم الإسلام في العصر الأيوبي ثم العصر المماليكي وستصبح فيهما حصن الإسلام المنيع الذي يدفع عنه خطر الصليبيين ثم خطر المغول بل يمكن القول أنها دفعت الخطر المغولي عن العالمين.

القسم الثاني

حضارة مصر الفاطمية

كان التصاعد في وضعية مصر السياسية بعد الفتح الإسلامي من ولاية إلى إمارة مستقلة إلى خلافة إسلامية يقابله تصاعدا هاما آخر في حضارة مصر الإسلامية حتى كانت حضارتها في العصر الفاطمي تتويجا للتطور الذي شهدته مصر الإسلامية في عصورها السابقة منذ الفتح الإسلامي حتى العصر الإخشيدي.

ولقد قامت الحضارة الإسلامية عموما على أسس أربعة : الإسلام ، والعروبة ، وحضارات العالم القديم ، والرغبة العارمة في العلم والمعرفة والقدرة على تحصيلها لدى المسلمين لكن الحضارة الإسلامية كانت لها في البلدان الإسلامية ذات الحضارات السابقة مثل مصر صبغة محلية تأثرت فيها بالبيئة المحلية السابقة على الفتوح الإسلامية وتعد مصر خير مثال على ذلك إذ تميزت حضارتها الإسلامية بسمات خالصة مرجعها إلى البيئة المصرية الطبيعية كالموقع والنيل العظيم والبيئة البشرية التي تتمثل في المصريين ذوي الطبيعة السمحة البسيطة البعيدة عن الغلو والتقاليع والمحافظة على التقاليد الموروثة في غير جمود ولا تعصب .

لقد تمتعت مصر بموقع فريد يسر لها سبل الاتصال والتواصل مع سائر أرجاء العالم وجعلها تتحكم في واحد من أهم طرق التجارة العالمية في العالمين القديم والوسيط ، وكان وقوعها في قلب العالم الإسلامي يؤهلها لتتبوأ مكان الصدارة فيه خاصة إذا كان هناك من يضع ذلك نصب عينيه مثلما فعل الفاطميون، وكان لنيل مصر المنتظم الجريان الذي لا ينقطع سوى إلا في نوبات مفاجئة أثره في اقتصادها ، وعلى نفوس أهلها ، كما كان لتربتها الخصبة المعطاءة ومناخها المعتدل وأرضها المنبسطة التي لا تعوق

الاتصال بين نواحيها أكبر الأثر في حضارة مصر الإسلامية التي تمثل الفترة الفاطمية قمة نضوجها .

ويمكن القول إن البيئة المصرية طبعت العقلية المصرية بالنظام والصبر والمثابرة والمحافظة والاعتدال ولذلك لم ينجرف المصريون وراء المذاهب المتطرفة المخالفة لعقائد أهل السنة كالخوارج أو الشيعة ، فرغم حبهم لآل البيت من جهة ، والجهود الكبيرة التي بذلها الفاطميون لاستمالة المصريين إلى مذهبهم الشيعي فقد حافظ غالبية المصريين على سنيتهم مما جعل الخلافة الفاطمية في مصر قائمة على غير أساس فلما جاء وقت السقوط هوت الخلافة الفاطمية دون صخب و لا ضجيج .

وأدت الطبيعة المصرية المشرقة إلى ميل المصريين إلى المرح والبهجة فأكثروا من مظاهرها في كثرة الأعياد والمتنزهات والمتفرجات وروح المصريين الفكهة وحبهم للدعابة مما ساعدهم على تخطي الأزمات السياسية والاقتصادية بغير عنف أو بأقل القليل منه مما ساعد على ترسيخ الحضارة المصرية واستمرارها على مر عصور التاريخ في ضوء ذلك يمكننا دراسة بعض جوانب حضارة مصر الفاطمية .

أولا – نظم الحكم والإدارة

كانت مصر طيلة السنوات الأربع الممتدة (٣٥٨ - ٣٦٢هـ) من استيلاء جوهر الصقلي عليها حتى قدوم المعز لدين الله إليها في مجرد ولاية فاطمية وكان النظام الإداري بها إمتدادا للنظام الإداري السابق في عصور مصر الإسلامية السابقة على العصر الفاطمي مع تعديلات طفيفة إقتضتها هويتها الشيعية الجديدة وسياسة التدرج التي انتهجها جوهر الصقلي ، فلما حضر المعز إلى القاهرة واتخذها حاضرة لخلافته تسلم مقاليد الأمور من جوهر الصقلي وكافأه على ما بذله من جهود في الاستيلاء على مصر وتمهيدها لتصبح مقرا للخلافة الفاطمية ، لكن المعز عهد إلى خبير إداري هو يعقوب بن كلس بتنظيم الجهاز الإداري في مصر ، والواقع أن المعز لم يكن بذلك مجحفا ولا متنكرا لجوهر الصقلي فلم يكن جوهر أهلا لتلك المهمة التي اضطلع بها يعقوب بن كلس إذ كانت خبراته الإدارية لا ترقى إلى مستوى قدراته العسكرية ومن ثم أمكن القول إن المعز باختياره يعقوب بن كلس لتولي مهام الإدارة في مصر الفاطمية قد اختار الرجل المناسب لخبرته الإدارية ومعرفته الجيدة بأمور مصر ، فنظم يعقوب بن كلس الجهاز الإداري في مصر على أساس مركزي يليق بها كمركز للخلافة الفاطمية. ولما كانت مصر قد أصبحت دار خلافة فكان من الطبيعي أن توجد بها نظم مركزية يأتي في مقدمتها النظام السياسي ويتمثل في كل من الخلافة والوزارة وما يتبع ذلك من وظائف تعتبر من مفردات النظام السياسي فضلا عن نظم الإدارة التي تم تطويرها بما يتلاءم مع متطلبات الخلافة الفاطمية.

نظـــم الحكـــم

(١) **الخلافة** : أصبحت مصر منذ انتقال المعز إليها سنة ٣٦٢هـ دارا للخلافة وقاعدة لدولة فاطمية مترامية الأطراف تتبعها ولايات هي إفريقية والشام والحجاز واليمن ، ويأتي على رأس الدولة الفاطمية الخليفة الفاطمي ، الذي حكم وفقا لنظرية الحق الإلهي المقدس وهي فكرة استمدها الفاطميون - والعباسيون من قبلهم - من أصول ساسانية وإن كان لكل من الفاطميين والعباسيين منطلقاتهم الخاصة في تطبيق هذه النظرية فالعباسيون السنة هم ورثة العباس عم رسول الله ﷺ واعتبروا أن العم أولى بالوراثة من ابن العم ومن ثم كان يرون أن العباس وولده أحق بالخلافة من على بن أبي طالب وولده ، أما الفاطميون الشيعة فكانوا يرون أن لكل نبي وصي مثلما كان هارون وصيا لأخيه موسى ، وأن علي بن أبي طالب كان هو وصي النبي ﷺ ، ولذلك كان أحق الصحابة بالإمامة بعد وفاة النبي ﷺ الذي نص عليه وانتقلت الإمامة من علي إلى أبنائه من بعده إلى ابنه الحسن فالحسين ثم تناقلت في الأعقاب حتى وصلت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنسب إليه الإسماعيلية وهي الفرقة التي أفرزت الخلافة الفاطمية ، وفضلا عن هذا كان الفاطميون يرون أحقية البنت الوحيدة في ميراث أبيها ومن ثم كان لفاطمة - التي ينتسبون إليها - الحق في ميراث أبيها ﷺ .

كان الخليفة الفاطمي إماما له صفة القداسة وله ألقاب كثيرة كالإمام وأمير المؤمنين وصاحب الزمان والشريف الفاطمي ، ورفع الفاطميون نسبهم إلى فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ وزوجها علي بن أبي طالب في حين كان المتشككون في نسبهم والمنكرون له يطلقون عليهم اسم العبيديين نسبة

إلى عبيد الله المهدي أول خلفائهم في إفريقية. وتلقب الخلفــــاء الفـــاطميون بألقاب تقترن بلفظ الجلالة من قبيل : المعز لدين الله والعزيز بالله والحـــاكم بأمر الله وهلم جرا.

وكان توارث الخلافة يتم وفقا لقواعد خاصة بالمذهب الإســـماعيلي أهمها " النص " الذي روعي العمل به منذ قيام الخلافـــة الفاطمية في إفريقية وقد ظلت ولاية العهد ووراثة الخلافة دون مشاكل حتى حينما خالف المعـــز لدين الله مبدأ النص في الأعقاب الأكبر فالأكبر وتخطى ابنه الأكـــبر تميـــم وجعل ولاية عهده لابنه الأوسط عبد الله ثم ابنه الأصغر العزيز بالله لكنه لـــم تحدث مشاكل بسبب ذلك لقوة الخليفة حتى إذا ضعفت الخلافة الفاطمية منـــذ خلافة المستنصر بالله ووقعت تحت نفوذ الوزراء العظام تدخل الأفضل بـــن بدر الجمالي في وراثة الخلافة وســـاقها إلـــى المســـتعلي الابـــن الأصغـــر للمستنصر متخطيا بذلك نزار الابن الأكبر وأدى ذلك إلى أول انقســـام فـــي الدعوة القاطمية بعد قيام الخلافة الفاطمية ، وإذا كان الأفضل بن بدر الجمالي قد تخلص من نزار لتخلص الخلافة للمستعلي فإن الحسن الصباح أحد كبـــار الدعـــاة الفاطمية كـــان في مصر حين وفـــاة المستنصر وشهد ما قـــام مـــن نزاع بين نزار والأفضل بن بدر الجمالي فتبنى الدعوة لنزار باعتباره الأحق بالإمـــامة بعد أبيه المستنصر واعتبر المستعلي مغتصبا للخلافة ونقل دعوته النزارية إلى إيران فانقسمت الدعوة الفاطمية قسمين : مستعلية ونزارية.

ولم يكن هذا الانقسام هو الوحيد الذي حل بـــالدعوة الفاطميـــة فقـــد انقسمت مرة أخرى بعد مقتل الخليفة الآمر بأحكام الله دون وريث لكنه تـــرك إحدى جواريه حاملا فتولى الأمر من بعده ابن عمه الحافظ عبد المجيد كإمام

مستودع للوليد المنتظر لكنه ما لبث أن استبد بالخلافة من دون الطفل الذي أنجبته سرية الآمر بأحكام الله وأخفى الحافظ عبد المجيد خبر الطفل لكن الملكة الحرة أروى بنت الصليحي صاحبة اليمن أعلنت أنها تلقت كتابا من الآمر بشرها فيه بمولد ولي عهده الذي أسماه الطيب واعتبرت الحافظ عبد المجيد مغتصبا للخلافة وانطلقت من اليمن الدعوة إلى الإمام الطيب بن الآمر وبذلك انقسمت الخلافة الفاطمية مرة أخرى إلى طيبية نسبة إلى الطيب بن الآمر وحافظية نسبة إلى الحافظ عبد المجيد.

وكما كانت الإسكندرية أول مقر للدعوة النزارية المنشقة سابقا على المستعلية كانت الإسكندرية أيضا مركزا لدعوة الطيبية المناوئة للحافظية وضربت في الإسكندرية دنانير باسم الإمام الطيب في سنة ٥٢٥هـ ولما قويت شوكة الوزير الأكمل أبي علي بن الأفضل قبض على الحافظ عبد المجيد وأبعده عن السلطة أربعة عشر شهرا ودعا للإمام المنتظر وفقا لعقيدة الإمامية الإثنا عشرية مما جعل الإسماعيلية يتربصون به حتى قتلوه وأعيد الحافظ عبد المجيد إلى الخلافة ، وهكذا شاهد العصر الفاطمي الثاني انقسامات في الدعوة الفاطمية وفي الخلافة أضعفت من سلطانها وكان لها أوخم العواقب على مصير الخلافة الفاطمية.

(٢) الوزارة : مثلما كانت الخلافة في مصر من مستجدات العصر الفاطمي فيها كانت الوزارة أيضا من خصائص النظام السياسي في هذا العصر فمع أن الطولونيين والإخشيديين قد استوزروا الوزراء تشبها بالخلفاء إلا أن طبيعة الوزارة عندهم كانت محدودة وشرفية أكثر منها خطة فعلية حتى جاء الفاطميون فأصبحت الوزارة لديهم خطة مقننة ذات اختصاصات

ومكانة كالتي كانت للوزارة والوزراء في الدولة العباسية ، ولعل ذلك يتضح من امتناع جوهر الصقلي بعد استيلائه على مصر عن تلقيب أبـــي الفضـــل جعفر بن الفرات بالوزير مع أنه كان وزيرا للإخشيديين لأنه في رأي جوهر الصقلي لم يكن وزير خليفة.

ومع أن جوهر الصقلي وصل في الدولة الفاطمية إلى أعلى المراتب إلا أنه لم يلقب بالوزير لأن المعز لدين الله لم يمنح أحـــدا هـــذا اللقـــب (١) وأشرف المعز لدين الله على الأمور بنفسه مستعينا ببعض الموظفيـــن علـــى رأسهم يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن (٢) ، حتى إذا تولى العزيز بـــالله الخلافة واستكملت الدولة في عهده تنظيمها السياسي والإداري أســـند رتبـــة الوزارة إلى يعقوب بن كلس ولقبه بالوزير الأجل ســـنة ٣٦٧هـــ / ٩٧٧م وكان ذلك ابتداء خطة الوزارة في الدولة الفاطمية .

وكان نفوذ الوزراء في الدولة الفاطمية يتناسب عكسيا مع شـــخصية الخلفاء ، فإذا كان الخليفة قوي الشخصية كالعزيز بالله وابنه الحاكم بـــأمر الله مثلا ضعف نفوذ الوزراء ، وإذا كان الخليفة ضعيف الشخصية كالمســـتنصر بالله مثلا قوي نفوذ الوزراء كأمير الجيوش بدر الجمـــالي ، وكـــان وزراء العصر الفاطمي الأول وزراء تنفيذ من أصحاب الأقلام يقتصر دوره علـــى تنفيذ أوامر الخليفة أما وزراء العصر الفاطمي الثاني فكانوا وزراء تفويـــض من أصحاب السيوف وهم الذين يعرفون بالوزراء العظام لتعاظم نفوذهم حتى

---

(١) المقريزي : خطط ، جـ١ ص ٣٩ .

(٢) محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، ص ٣٥ .

طغى على سلطة الخلفاء وأصبحوا يتحكمون دونهم في أمور الدولـــــة بـــل ويتحكمون في الخلفاء أنفسهم.

كان نفوذ بعض الوزراء أصحاب الأقلام كبيرا كالوزير علــــي بــن أحمد الجرجراني الذي استوزره الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي في ســـــنة ٤١٨هـــ وظل وزيرا لابنه المستنصر حتى توفي سنة ٤٣٦هـــــ ، وكـــان الجرجراني عراقي الأصل نسب إلى بلده جرجرايا بسواد العراق وقد حضـــر إلى مصر والتحق بوظائف الدولة وترقى فيها حتى تولى ديوان الإنشاء فـــي خلافة الحاكم بأمر الله وغضب عليه الحاكم وقطع يديه سنة ٤٠٤هـــ لكنـــه رضي عنه من جديد وولاه ديوان النفقات سنة ٤٠٦هـــ ثم لقبه نجيب الدولـــة وازداد نفوذ الجرجراني في خلافة الظاهر بعد وفاة عمته سيدة الملك حتـــى تولى الوزارة للخليفة الظاهر وبلغ نفوذه أن نقش اسمه على الطـــراز فلمـــا توفي الظاهر أخذ الجرجراني البيعة لابنه المستنصر وكـــان عمـــره ثمـــان سنوات فزاد نفوذ الوزير الجرجراني حتى فاق الوزراء أرباب السيوف مـــع أنه كان من أرباب الأقلام .

وكان من الوزراء أرباب الأقلام ذوي النفوذ أيضا أبو محمد الحســـن بن علي اليازوري ، الذي تولى الوزارة للمستنصر بالله الفاطمي في المحـــرم سنة ٤٤٢هـــ وظل بها ثمان سنوات حتى المحرم ســـــنة ٤٥٠هـــــ وكـــان اليازوري فلسطيني الأصل من بلدة يازور ، تولى قضاء الرملة خلفا لأبيه ثم عزل فجاء إلى مصر وعمل مديرا لأعمال أم الخليفة المســـتنصر وتصـــاعد نفوذه حتى أصبح قاضي القضاة ثم تولى الوزارة وعلت مكانته حتى زيد في

ألقابه ونقش اسمه على الطراز وكان له دور خطير في توجيه القبائل الهلالية إلى بلاد المغرب لتأديب بني زيري.

كان بنو زيري يتولون أمر المغرب نيابة عن الفاطميين منذ انتقال المعز لدين الله إلى مصر وقد انتهت ولاية المغرب إلى المعز بن باديس بن زيري في سنة ٤٠٦هـ في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله وكان المعز عازما على الخروج على طاعة الفاطميين والإنحراف عن مذهبهم لولا مداراة الوزير الجرجرائي له مما جعل المعز يحجم عن إعلان عصيانه للفاطميين رسميا ، لكن العلاقة بين المعز بن باديس واليازوري كانت سيئة لأسباب شخصية مما جعل المعز بن باديس يعلن رسميا سنة ٤٤٣هـ خلع طاعة الفاطميين والخطبة للعباسيين ، فأشار اليازوري على الخليفة المستنصر بتسيير القبائل العربية الموجودة بمصر من بني هلال وزغبة ورباح وسليم وغيرها إلى المغرب لتأديب المعز بن باديس وتولي أمر إفريقية بدلا منه وخرجت هذه القبائل إلى المغرب فيما يسمى بتغريبة بني هلال التي كانت لها نتائج خطيرة على تاريخ المغرب الإسلامي.

وعلى الرغم مما وصل إليه اليازوري من نفوذ غير مسبوق فقد قبض عليه المستنصر بالله وتخلص منه في أول المحرم سنة ٤٥٠هـ وقيل في ذلك عدة أسباب منها اتهامه بمواطأة طغرلبك السلجوقي وعزمه على الهروب بأموال الدولة إلى الشام ومنها إلى العراق [١].

وإذا كان نفوذ بعض وزراء الأقلام قد وصل إلى مثل هذا الحد فإن تقلد بدر الجمالي وزارة المستنصر كان انقلابا حقيقيا في النظام السياسي

(١) المقريزي : اتعاظ جـ٢ ، ص ٢٣٨ .

الفاطمي ، فقد أصبح الأمر كله بيد الوزراء واستخلف الوزراء أبناءهم في الوزارة كما يستخلف الخلفاء أبناءهم في الخلافة . وتزايدت ألقاب الوزراء فبعد أن كان الجرجرائي يلقب " الوزير الأجل الأوحد صفي الدين أمير المؤمنين وخالصته " واعتبرت زيادة بعض الألقاب المشابهة تزايدا في نفوذ اليازوري حينما لقب " الوزير الأجل الأوحد المكين سيد الوزراء تاج الأصفياء علي المجد خليل أمير المؤمنين " ، إذا بنعوت بدر الجمالي تدل علي ما أحرزه من نفوذ فقد كان يلقب " السيد الأجل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين " وكانت هذه الألقاب تتزايد من حين لآخر حتى لقب طلائع بن رزيك بالملك الصالح وكان ينادى " السيد الأجل الملك الصالح ناصر الأمة وكاشف الغمة أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، غياث الأنام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو الغارات طلائع بن رزيك الفائزي عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلي كلمته " ، وهكذا يتضح ازدياد نفوذ الوزراء العظام الذي لم يقتصر علي الاستبداد بالسلطة الدنيوية للخلفاء بل سلبوهم بعض سلطاتهم الروحية .

وإذا راجعنا قائمة وزراء العصر الفاطمي الأول وجدنا أن بعضهم كان من أهل الذمة وبعضهم الآخر كان من المسلمين وكان فيهم أيضا من تحولوا إلى الإسلام ليعلو شأنهم في الدولة كالوزير يعقوب بن كلس الذي كان يهوديا قبل إسلامه لكنه بلغ بعد ذلك مكانة كبيرة في الفكر الشيعي الإسماعيلي. ولقد كان الوزراء غير المسلمين كلهم وزراء تنفيذ لأن وزير التفويض لابد أن يكون مسلما لأنه ينظر في بعض الأمور الشرعية ويقوم

عن الخليفة بكل مهامه لذلك يراعي فيه شروط التقليد عند الخليفة ما عـــدا شرط النسب وكان معظم وزراء التفويض في العصر الفاطمي الثاني علـى غير مذهب الدولة الفاطمية الإسماعيلية فقد كان بدر الجمالي وابنه الأفضــل وحفيده أبو علي الأكمل والوزير المأمون بن البطائحي وآل رزيـــك كلـهم إماميين إثنا عشريين لذلك لم يكن اهتمامهم بالحفاظ على الدولة الفـــاطمية عن عقيدة مذهبية وإنما كان حفظهم لها لصالحهم السياسي فقط ومن ثم لــم يكن من الغريب ألا يحافظوا على مكانة الخلفاء وهيبتهم ، وكان هناك بعض الوزراء من أهل السنة ، كأسد الدين شيركوه وابــن أخيــه صـــلاح الديــن وغيرهما لم يكن يهمهم بقاء الخلافة الفاطمية وإنما سعى بعضـــهم كصـــلاح الدين للإطاحة بها .

وكان من أهم اختصاصات الوزير في الدولة الفاطمية ســواء كـان وزير تنفيذ أو تفويض أ . يقوم بتنظيم الإدارة المالية وضبط موارد الدولة مــن ناحية والإشراف على الدواوين الإدارية من ناحية أخري ، وكان للوزير الرأي الأول في اختيار رؤساء الدواوين وإن كان سجل تعيينهم يصدر عن الخليفـــة وباسمه لكن حدث في بعض الأوقات أن أصدر بعض الوزراء العظام سجلات تعيين رؤساء الدواوين من قبلهم .

وكان تقليد الوزير الوزارة حدثا هاما يحتفي به حفاوة كانت بســيطة في البداية وتزايدت تدريجيا حتى أصبح تقليد الوزير يقام له الاحتفــالات ، ويقرأ سجل تعيين الوزراء على المنابر ، وكان راتب الوزير أكبر رواتـــب موظفي الدولة ، وكان يعطى بعضه نقدا " ٥ آلاف دينار شهريا " وبعضـــه

الآخر كان مقررات عينية تصرف برسم مطابخة أو ما يقرر له ولذويه من كسوات وهدايا في المواسم والأعياد وغير ذلك .

وكان الوزير يدير شئون الدولة من مقر وزارته المعروف بدار الوزارة التي كانت تضم الدواوين وتمتلئ بالكتاب والموظفين ، وكانت هذه الدار منذ خلافة العزيز بالله في داخل القصر الفاطمي وكان أغلب موظفي الدولة الفاطمية من أهل الذمة لخبرتهم المالية والإدارية ولتسامح الفاطميين حتى ضج المسلون بالشكوى واتهموا بعض الخلفاء الفاطميين بأنهم أعزوا النصارى وأذلوا المسلمين وعرضوا بذلك في أشعارهم.

وقد استبدلت الوزارة في بعض الأوقات برتبة تسمى الوساطة خاصة في خلافة الحاكم بأمر الله وقد ذهب البعض إلى أن الوساطة درجة متدنية من الوزارة لكننا وجدنا في دراستنا للوساطة أنها كانت مرتبة وسطى بين وزارة التنفيذ ووزارة التفويض [١].

---

[١] أنظر دراستنا عن الوساطة في كتابنا ، دراسات في نظم الحكم في الدولة الإسلامية .

النظـــام الإداري

انقسمت الإدارة الفاطمية إلى قسمين رئيسيين الإدارة المركزية في مصر نفسها والإدارة على البلدان في الولايات التابعة للخلافة الفاطمية وهي أفريقية والشام والحجاز واليمن . وكان بعض هذه الولايات يتبع الخلافة تبعية تامة ويرسل إليها الخراج كبلاد الشام وبعضها الآخر يتبع الخلافة اسميا ويتمتع باستقلال ذاتي كالحجاز واليمن وأفريقية .

أما مصر قاعدة الخلافة الفاطمية فكانت تنقسم إلى أربع ولايات كبرى هي ولاية قوص وتشمل الصعيد كله وولاية الشرقية وتشمل بلبيس وقليوب وتنمو. وولاية الغربية وتشمل المحلة ومنوف وأبيار وولاية الأسكندرية وتشمل الحوف الغربي بأكمله . وكانت كل ولاية من هذه الولايات تنقسم إلى عدد من الكور التي تنقسم كل منها إلى نواحي وكفور وهو التقسيم الذي كان معمولا به منذ الفتح الإسلامي وكان موروثا عن العصر البيزنطي .

وقد اشتمل النظام الإداري في مصر الفاطمية على عدد من الدواوين بلغ مجملها ١٤ ديوانا لكن عددها كان يتفاوت من حين لآخر إذ كان لبعضها صفة الاستمرارية طوال العصر الفاطمي وهي الدواوين الأساسية التي لا غنى عنها بطبيعة الحال وكان بعضها الآخر وقتيا ينشأ لغرض معين ويتلاشى بتلاشي الغرض الذي أنشئ من أجله. وكان على رأس كل ديوان موظف كبير وقد أمدتنا المصادر بأسماء بعض هذه الدواوين واختصاصاتها ، وكان من أهم تلك الدواوين التي استمرت طيلة العصر الفاطمي ما يلي :

(١) **ديوان الترتيب** : ووظيفته هي التنسيق بين دواوين الدولة وهو الدور الذي قام به في العصر الفاطمي الثاني ديوان التحقيق الذي كانت مهمته المقابلة على الدواوين .

(٢) **الديوان المفرد** : نشأ في خلافة الحاكم ومهمته أشبه بالمصادرة إذ ترد إليه أموال المقتولين أو من يسخط عليهم الخليفة ولعله كان الديوان الذي عرف أواخر العصر الفاطمي بديوان المرتجع .

(٣) **ديوان الزمام** : الذي تحول فيما بعد إلى ديوان المجلس وهو الديوان الرئيسي فيما يبدو بين الدواوين الإدارية الفاطمية وكان يشرف على إدارته عدد من الكتاب يرأسهم صاحب ديوان المجلس وتتولى إدارات هذا الديوان الإشراف على الإنعامات والعطايا ومنح الكسوات وتسجيل ما يرد من التحف والهدايا من الملوك والأمراء .

(٤) **ديوان النظر** : وكان صاحبه يرأس الدواوين المالية ، وكان له العزل والولاية ويتولى عرض الأوراق في أوقاتها على الخليفة أو الوزير .

(٥) **ديوان الخاصة** : ويشرف على نفقات الخليفة والقصر الفاطمي .

(٦) **ديوان الرسائل (الإنشاء والمكاتبات)** : وكان يتولاه أحد فرسان البلاغة وكانت مهمته أشبه بمهمة وزارة الخارجية .

(٧) **ديوان البريد** : كان البريد من الدواوين الموجودة في مصر الإسلامية قبل استيلاء الفاطميين عليها لكنه أصبح من أهم الدواوين في العصر الفاطمي نظرا لأن مصر أصبحت دار خلافة تهتم بجمع المعلومات عن ولاياتها التابعة لها من ناحية ، وأخبار أعدائها المتربصين بها من ناحية أخرى ، لذلك لم يكن من الغريب أن يهتم البريد في العصر الفاطمي بالحمام الزاجل

اهتماما كبيرا كوسيلة من الوسائل السريعة لنقـــل الرســـائل ، بـل أفــرد الفاطميون ديوانا خاصا بالحمام وجرائد بأنساب الحمام فكان الحمام يطير بين القاهرة ودمشق وبين القاهرة وتونس وغير ذلك [١].

(٨) الشرطة : سميت الشرطة بذلك الاسم لأن رجالها أشــرطوا لأنفســهم بعلامات خاصة يعرفون بها ، وهم الجند الذين يعتمد عليـــهم الخليفــة فــي استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال التي تكفل سلامة الجمهور وأمنهم .

وقد استولى الفاطميون على مصر والشرطة بها تنقسم إلى قســمين : الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط ، والشرطة العليــا ومقرهــا العســكر لأن العسكر كانت تقع شمال الفسطاط فربما سميت شرطتها بالعليا تبعا لذلـــك ، فلما استولى جوهر على مصر نقل الشرطة العليا إلى القاهرة بعد اختطاطــها وعهد بالقيام على أمور الشرطة إلى رجاله .

وكان صاحب الشرطة يقوم على تنفيذ أحكام القضـــاة والمحتســبين ويفصل في بعض المظالم حتى سنة ٣٦٩ هـــ / ٩٧٩م عندما وقع نزاع بين صاحب الشرطة والقاضي لأن صاحب الشرطة حكم في شـــيء ليـس مـن اختصاصه فأنكره القاضي فتم الفصل بين اختصاصاتهما وفي حوالي ســـنة ٤٠٠هـــ منع القاضي أصحاب الشرطة من التكلم في الأحكام الشرعية فأنهى الخليفة الفاطمي النزاع بين الجهتين بأن رد النظر في المظالم إلى القـــاضي فلم تعد الشرطة وظيفة دينية وإنما أصبحت وظيفة إدارية مهمتــها مســاعدة

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ١٤ ، ص ص ٣٩ - ٣٩١ .

القاضي في إثبات التهم أو نفيها وتنفيذ الأحكام الصادرة من القاضي فضلا عن عمل الشرطة الرئيسي وهو الحفاظ على الأمن داخل البلاد .

وكان الفاطميون يجمعون أحيانا لرجل واحد بين القضاء والشرطة أو الحسبة والشرطة ربما لتسهيل الإجراءات وعدم التضارب .

النظـام القضـائي

القضاء من الخطط الدينية المتعلقة بالخلافة فكان القاضي في مصر الإسلامية قبل استيلاء الفاطميين عليها يعين من قبل الخليفة في أغلب الأحوال ، وكان الاستقلال مكفولا للقضاة لا يتدخل أحد في أحكامهم التي يستمدونها من مصادر التشريع الإسلامي وهي الكتاب والسنة والإجماع والاجتهاد المبني على القياس ، وكان النظام القضائي آخذا في الارتقاء التدريجي فكان القضاة في مصر يستحدثون وسائل جديدة تعينهم في أداء وظيفتهم مثل تدوين الأحكام وحفظها في القماطر وأسندت إليهم مهام جديدة مثل الإشراف على ديوان الأحباس وكانوا يستطلعون هلال رمضان . وأصبح تعيين القاضي منذ العصر الإخشيدي شأنا مصريا محليا ففقد القضاء استقلاله ، واشترك في القضاء أحيانا أكثر من قاضي في موضع واحد .

كان قاضي مصر حين دخلها جوهر الصقلي هو أبو الطاهر محمد بن أحمد الذهلي ، تقلد القضاء باتفاق أهل البلد ورضاهم فأثنوا عليه عند كافور الإخشيدي فولاه القضاء سنة ٣٤٨هـ قبل دخول جوهر بعقد كامل وكيلا يثير جوهر الصقلي مشاعر المصريين حينذاك بعزل القاضي السني وإحلال قاضي شيعي محله أبقى على أبي الطاهر الذهلي في القضاء لغرض سياسي وربما كان لاعتداله في المذهب المالكي الذي كان يعتنقه دور في الإبقاء عليه إذ كان المذهب المالكي سائدا في أفريقية قبل استيلاء الشيعة عليها .

أبقى جوهر الصقلي على أبي الطاهر الذهلي لكنه ألزمه أن يحكم في المواريث وفي الطلاق وفي الهلال بقول الفاطميين ، ولما انتقل المعز

الفاطمي إلى القاهرة خلع على القاضي أبي الطاهر وأبقى عليه وأشرك معه في الأحكام القاضي الشيعي النعمان بن محمد بن حيون لكن النعمان لم ينظر في شيء من الأحكام حتى توفي فأشرك المعز ابنه علي بن النعمان مع القاضي أبي الطاهر الذهلي حتى تولى الخلافة العزيز بالله فزاد من اختصاص القاضي علي بن النعمان مع بقاء القاضي الذهلي لكن الذهلي مرض ومات فانفرد علي بن النعمان بالقضاء في مصر الفاطمية ولقب قاضي القضاة سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م ، وكان أول من لقب بذلك في مصر ذلك أنه كان في سجل تقليده أن جميع الأعمال داخلة في ولايته .

هيمن آل النعمان بن حيون على منصب القضاء في مصر لأكثر من ستين عاما تخللها بعض الانقطاع ، وكان قاضي القضاة في العصر الفاطمي الأول يقوم بتعيين القضاة في نواحي البلاد ، وكان يغلب على القضاة في مصر الفاطمية المذهب الإسماعيلي أما إذا تولى القضاء أحد على غير هذا المذهب فكان يشترط عليه أن يقضي بالمذهب الإسماعيلي دون غيره ويتضح من سجل تقليد الحسين بن علي بن النعمان القضاء في عهد الحاكم بأمر الله السلطات التي كانت للقاضي فقد اشتملت على رياسة القضاء في كل من مصر والحجاز وبلاد الشام والمغرب ، وكان له النظر في شئون موظفي المساجد من الأئمة والمأذونين والقوامين عليها ، وكان له الإشراف على دور الضرب وغير ذلك من اختصاصات لكن هذه الاختصاصات تناقصت في العصر الفاطمي الثاني إذ نظر في بعضها الوزراء من أرباب السيوف فلقد كان لبدر الجمالي النظر في دار الضرب وضبط ما يضرب فيها من دنانير ، وأصبح القضاة نوابا للوزراء العظام .

وكان القاضي في العصر الفاطمي يتقاضى راتبا كبيرا حتى لا يتطلع إلى الرشوة وتكون أحكامه نزيهة ، وكان للقاضي مكانا متميزا في المواكب والاحتفالات التي أكثر الفاطميون منها .

وكان مما يتصل بالقضاء من خطط خطة الحسبة باعتبارها من الخطط الدينية ، وتشير النصوص إلى الحسبة صراحة في مصر الإسلامية ابتداء من العصر الإخشيدي لكنها في ذلك العصر لم تكن وظيفة منزهة عن الشبهات فلما استولى الفاطميون على مصر عنوا بالحسبة لكنهم ولوها لمحتسبين من الشيعة الإسماعيلية فقد عزل جوهر الصقلي المحتسب السني الذي كان موجودا حين دخوله مصر وعين بدلا منه محتسبا شيعيا يدعى أبو جعفر الخراساني ثم ساءت الأحوال فولى بدلا منه محتسبا صارما يدعى سليمان بن عزة ليضبط أحوال السوق التي كان النظر في أحوالها أهم اختصاصات المحتسب في مصر الفاطمية .

وكان للحسبة والمحتسب في العصر الفاطمي دارا خاصة تسمى دار العيار تعير فيها الموازين والمكاييل وجميع الصنج وكان للمحتسب أعوان يبثهم على أداء اختصاصاته ، ورتب على أهل كل صنعة عريفا لضبط أحوالهم.

النظـــام الحـــربي

يخطئ من يظن أن الدولة الفاطمية كانت دولة مجاهدة فاتحة خدمت الإسلام في شيء من الفتوح ، فلم توجه تلك الدولة جهودها إلى ميدان خارج دار الإسلام بهدف إضافة بلدان جديدة إلى العالم الإسلامي ، بل قامت أصلاً في بلدان إسلامية على حساب دول إسلامية وانتقلت إلى مصر وهي بلد إسلامي وتوسعت في أراضي إسلامية وكان هدفها الأكبر الإطاحة بدولة إسلامية هي الخلافة العباسية ، حتى نزاعها مع البيزنطيين كان نزاعاً على بلاد إسلامية مثل بلاد الشام وغيرها ولذلك أضر الفاطميون بقيام دولتهم أكثر مما نفعوا ومزقوا العالم الإسلامي بين أكثر من خلافة فأدى هذا التمزق إلى سقوط أجزاء كثيرة من دار الإسلام في أيدي أعدائه سواء في غرب البحر المتوسط أو في شرقه ، ولا يمكن أن ترقى الدولة الفاطمية من هذه الناحية إلى مستوى الدولة الأموية أو الدولة العباسية أو حتى بعض الدول المغربية مثل دولة الأدارسة ودولة المرابطين ، وكان انتقال الفاطميين إلى مصر بمثابة جر العالم الإسلامي إلى مزيد من الانقسامات والحروب التي قد تهيئ لهم سلطاناً في البلدان الإسلامية لكنها بلا شك أوقفت مد الفتوح الإسلامية ، ومن ثم ينبغي أن ننظر إلى الجيش والأسطول الفاطمي ومهامها الحربية كما أرادها الفاطميون .

(١) **الجيش** : يحلو للبعض أن يصف الجيش الفاطمي بأنه كان جيشاً قوياً ولكننا نرى أن الجيش الفاطمي قد يكون كبيراً وافر العدد والعدة ، لكنه لم يكن قوياً كما قد يتوهم البعض إذ كان هذا الجيش مكوناً من عناصر عديدة لا رابط بينها إلا العمل في خدمة الفاطميين ، ولقد كان الجيش الذي

استولى على مصر بقيادة جوهر الصقلي على هذا النحو ، فقد كان شطره الأكبر من الكتاميين وكان شطره الآخر من الروم والصقالبة والزويليين والبرقية والسودان وغيرهم ، وإذا كانت المصادر قد أشارت إلى كثرة جند الجيش الفاطمي حتى قيل إنه بلغ مائة ألف مقاتل فإن الوقائع لم تقدم دليلا كافيا على قوة هذا الجيش الذي لم يكن استيلاؤه على مصر بفضل قوته بقدر ما كان استيلاؤه عليها بسبب ضعف الإخشيديين حتى أنه لم يلق منهم مقاومة تذكر .

وإذا كان هذا الجيش أو جانبا منه قد دخل الشام واستولى على بعض نواحيها فقد كانت أحوال الشام أكثر سوءا وتفككا من مصر ولذلك فشل الجيش الفاطمي في أول إختبار جاد أمام القرامطة الذين لم يهددوا الفاطميين في الشام فحسب وإنما هددوا أيضا مصر نفسها ، وإذا كان جوهر قد صدهم عن مصر فلم يكن ذلك إلا بفضل معونة الأهالي المصريين الذين فزعوا من القرامطة المخربين فعاونوا الفاطميين في إبعاد خطرهم .

ويبدو أن الخليفة العزيز بالله الفاطمي قد أدرك هذه الحقائق فأراد إصلاح الجيش الفاطمي بإدخال عناصر جديدة أثبتت كفاءة في ميادين القتال فأضاف إلى عناصر الجيش الفاطمي جندا من الأتراك والفرس الديالمة لكن ذلك زاد الطين بلة ، إذ أصبح الجيش الفاطمي أكثر تنوعا في عناصره وأقل ترابطا وتماسكا بين أفراده وكتائبه ونشأ بين طوائف الجند صراع دائم وتنافس على السلطة خاصة بعد ضعف الخلفاء الفاطميين وتنافس الوزراء أرباب السيوف على السلطة في مصر الفاطمية.

ولأن الدولة الفاطمية لم تكن دولة جهاد وفتوح فقد كانت وظيفة الجيش الفاطمي غالبا إخماد بعض الثورات أحيانا وأحيانا أخرى كان يقوم بمهام تشريفية مثل اصطفاف الجند في الاحتفالات فيما يشبه الاستعراضات العسكرية فقد وصف ناصر خسرو اصطفاف الجند في الاحتفال بيوم فتح الخليج على عهد الخليفة المستنصر بالله وكيف أنهم كانوا يسيرون في صفوف منتظمة فصيلة تتلو أخرى فيسير الكتاميون في المقدمة يليهم بقية المغاربة ثم المشارقة من الأتراك والديلم ثم الحجازيون وأخيرا السودان .

وكان يقوم على إدارة شئون الجيش ديوان الجيش الذي كان ينقسم إلى قسمين : ديوان الجيش الذي تسجل فيه أعداد الجند وأحوالهم ، وديوان الرواتب ويشتمل على أسماء كل أصحاب الرواتب في الدولة .

(٢) **الأسطول** : اهتم الفاطميون بالأسطول اهتماما كبيرا منذ أن كانوا في إفريقية فقد كانوا يسعون إلى السيطرة البحرية على البحر المتوسط لخدمة أغراضهم السياسية والتجارية وقد حاول المعز لدين الله الفاطمي قبل استيلائه على مصر أن يتخذ من أقريطش قاعدة بحرية بعد أن استنجد به أهلها المسلمون من غارات الروم البيزنطيين فكاتب كافور الإخشيدي بشأن إرسال حملة بحرية مشتركة إلى أقريطش (كريت) لكن ظروف كل من الإخشيديين في مصر والفاطميين في المغرب حالت دون تحقيق ذلك [١] . فلما انتقل المعز إلى مصر أقام دورا للصناعة بالمقس وجزيرة الروضة وساحل الفسطاط وكان اهتمام المعز وخلفاؤه من بعده بالأسطول كبيرا لمتابعة فتوح الشام والحفاظ على الوجود الفاطمي فيها من ناحية ، ومن ناحية

---

(١) سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ص ٩٥ – ٩٦ .

أخرى للتصدي للأطماع البيزنطية التي تمادت بعد استيلاء البيزنطيين علـى أقريطش إلى حد مهاجمة بلاد الشام ومحاولة الاستيلاء على بيـت المقـدس ولذلك إهتم الفاطميون بإحكام سيطرتهم على سواحل الشام وموانيها من جهة والعناية بالأسطول الفاطمي من جهة أخرى.

عمل الفاطميون على زيادة سفن أسطولهم ولذلك أنشأ المعز لدين الله دارا جديدة للصناعة بالمقس إضافة إلى الصناعتين السابقتين فـي الروضـة والفسطاط ، وقد بلغ عدد سفن الأسطول الفاطمي في خلافة المعز لديـن الله ستمائة قطعة ما بين عشاريات وهي المراكب الصغيرة وشواني وهي السفن الحربية الكبيرة وشلنديات وهي المراكب ذات الأسقف ، ومسطحات وهـي سفن حربية كبيرة تشبه الشلندي لكنها أكبر حجما وتسع نحو خمسمائة راكب وكان الإشراف على الأسطول يتولاه ديوان الجهاد الـذي كـان محلـه دار الصناعة بالفسطاط ، وكان للفاطميين أسطولان أحدهما في البحر المتوسـط والآخر في البحر الأحمر ولم تقتصر مهمة الأسطول الفاطمي فـي البحـر الأحمر على حماية مياه مصر الإقليمية بل كان يقوم أيضا بحماية التجـارة الشرقية الهامة في هذا البحر فكانت بعض سفن الأسطول تتخذ من عيـذاب قاعد لحماية السفن التجارية.

الدعـوة الفاطميـة

كانت الدولة الفاطمية دولة ثيوقراطية قامت على دعوة دينية شيعية إسماعيلية وامتزجت فيها السياسة بالدين ويعتبر الخليفة فيها إماما له قدسية وسلطات غير عادية وقدرات لا تتوافر للخليفة عند أهل السنة وتكاد سلطته الروحية أن ترقى إلى مستوى السلطة الروحية للبابوات في الكنيسة المسيحية وربما تفوقها. ومن ثم كان الأئمة الفاطميون ودولتهم الفاطمية ترتكز إلى دعوة أو دعاية منظمة تقوم على معتقدات خاصة بالمذهب الإسماعيلي .

كانت الدعوة الفاطمية في دور الستر قبل الدولة الفاطمية تقوم على السرية والكتمان لكنها في دور الظهور الذي بدأ بقيام الدولة الفاطمية في المغرب قد أصبحت دعوة علنية لكنها ظلت سرية في مصر قبيل استيلاء الفاطميين عليها حتى إذا استولى جوهر الصقلي على مصر سنة ٣٥٨ دخلت الدعوة الفاطمية فيها في دور الظهور والعلانية .

وكان يرأس جهاز الدعوة الفاطمية في دور الظهور داعي الدعاة ومن المفروض أنه كان يلي الإمام في المرتبة مباشرة لكن ابن الطوير يذكر أن داعي الدعاة كان يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه في اللباس وغيره ، وهو أمر غريب في دولة ثيوقراطية تقوم أساسا على الدعوة المذهبية ، لكن يبدو أن الفاطميين كانوا يريدون تدعيم الوضع القانوني للدولة وتحسين صورتها لدى المصريين من خلال تقديمها للقانون على الدعوة المذهبية . ومع ذلك فكثيرا ما جمعت وظيفتا قاضي القضاة وداعي الدعاة لشخص واحد ، وكان قاضي القضاة وداعي الدعاة ينوبان عن الخليفة أو

الإمام كل فيما يخصه لكن في عصر الوزراء العظام ابتداء من بدر الجمالي صار كل منها ينوب عن الوزير الذي صار الحاكم الفعلي للدولة الفاطمية .

وقد عاون داعي الدعاة في نشر المذهب الإسماعيلي اثنا عشر نقيبا وكان له نواب ينوبون عنه في البلاد ، وكان داعي الدعاة همزة الوصل بين هؤلاء الدعاة والإمام . وكان لداعي الدعاة في قصر الخليفة مقر خاص هو دار العلم يبلغ فيه الدعاة الأوامر والتعليمات يومي الاثنين والخميس ، كما كان يجلس على كرسي الدعوة في الإيوان الكبير فيحاضر الرجال ويعقد للنساء مجلسا خاصا من مجالس الدعوة يلقين فيه أصول المذهب الإسماعيلي .

نشط الدعاة الفاطمية في نشر المذهب الإسماعيلي في كثير من أرجاء العالم الإسلامي لكن الانقسامات المذهبية التي حدثت في الدولة الفاطمية نتيجة الأطماع السياسية أدت إلى تمزق الدعوة الفاطمية وأثرت على كفاءتها ومكانتها ومع ذلك تمكن الفاطميون بفضل جهاز دعوتهم من بسط نفوذهم في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي وقام الدعاة التجار بدور كبير في نشر الدعوة الفاطمية على طرق التجارة البحرية المؤدية إلى الشرق ونجحت الدعاية الفاطمية في إثارة القلاقل في الدولة العباسية العدو المنافس للخلافة الفاطمية ، مثلما فعل داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الذي حرض قائدا عباسيا يدعى أبو الحارث أرسلان البساسيري على الثورة ضد الخليفة العباسي القائم بتشجيع من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ووزيره اليازوري [١] ونجح البساسيري في الاستيلاء على بغداد وخطب فيها

---

(١) سيرة المؤيد في الدين ، تحقيق محمد كامل حسين صص ١٧٨ - ١٨٠ .

للمستنصر بالله الفاطمي عام ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م وأجبر الخليفة القائم بأمر الله العباسي على أن يوقع في كتاب أشهد عليه العدول بأنه لا حق له ولا لغيره من بني العباس في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء ، وأرسل البساسيري هذا الكتاب إلى المستنصر فظل محفوظا لدى الفاطميين بالقاهرة إلى أن أعاده صلاح الدين إلى العباسيين بعد استيلائه على السلطة في مصر[١] ولم يكتف داعي الدعاة المؤيد في الدين بتحريض البساسيري وإنما استمال إبراهيم ينال أخا طغرلبك سلطان السلاجقة وحرضه على الثورة على أخيه طغرلبك وأشعل الحرب بينهما مما كان له أثره في نجاح ثورة البساسيري ، لكن نجاح البساسيري لم يدم طويلا سرعان ما نجح طغرلبك في القضاء على ثورة البساسيري وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد عاما كاملا .

وإذا كان جهاز الدعوة الإسماعيلية المنظم من عوامل قوة الدولة الفاطمية في عصرها الأول فقد أسهم بعض الدعاة في تمزيق أوصال الدولة الفاطمية ي عصرها الثاني بتبنيهم لدعوات مذهبية مخالفة للدعوة الرسمية في القاهرة مثل الداعي الحسن بن الصباح الذي تبنى الدعوة النزارية في مواجهة الدعوة المستعلية والداعية الحرة أروى بنت الصليحي ملكة اليمن التي تبنت الدعوة الطيبية في مواجهة الدعوة الحافظية ومن ثم كان لجهاز الدعوة الفاطمية دور خطير في قوة الدولة أو ضعفها.

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٥٣ .

ثانيا - الأحـــوال الاجتمـــاعية

كانت مصر قد أصبحت منذ عصر الولاة عربية إسلامية ، فقد انتشر فيها الإسلام عن رضى وطواعية واقتناع بصحة العقيدة الإســـلامية ، ولـــم يقتصر الدخول في الإسلام على عامة القبط بل دخل فيه نفر من رجال الدين المسيحي أنفسهم ممن لم تحل مناصبهم الكنيسة وما تضفيه عليهم من مكانـــة لدى أتباعهم من تبصر لحقيقة الدين الإسلامي ومعتقده الصحيح. وبلغ مـــن إقبال القبط المصريين على الدخول في الإسلام طواعية أن أظـــهر بعـــض المتعصبين من رجال الدين المسيحي - مثل حنا أســـقف مدينـــة نقيـــوس - سخطهم واستياءهم من كثرة المقبلين على الإسلام من القبط المصريين.

لقد كانت هناك عوامل عديدة ساعدت على إقبال المصرييـــن علـــى الدخول في الإسلام منها طبيعة الدعوة الإسلامية التي انتهجت سبيل التســامح الديني والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، فضلا عن وفـــود كثـــير مـــن الصحابة والتابعين إلى مصر فعلموا المصريين الإسلام الصحيح وكانوا لـــهم أسوة حسنة ، وكانت الدولة الإسلامية تشجع على اعتناق الإسلام في غـــير إكراه ، بل تحفز الناس على الدخول فيه بفتح سبل الـــترقي فـــي الوظـــائف الإدارية والحياة الاجتماعية أمام الداخلين في الإسلام فترفع عنـــهم الجزيـــة وتتيح لهم فرص الدخول في الجيش الإسلامي والوظائف العامـــة ، وســـاعد تعلم العربية على الدخول في الإسلام إذ أمكن للمســـتعربين الذيـــن تعلمـــوا العربية أن يفهموا الإسلام فهما صحيحا من خلال القرآن الكريم الذي أنزلـــه الله عز وجل قرآنا عربيا بلسان عربي مبين .

كما ساعدت هجرة القبائل العربية إلى مصر على التعريب وانتشار الإسلام خاصة بعد أن اضطرت القبائل العربية إلى الاختلاط بالمصريين بعد إسقاطهم من الديوان بأمر من المعتصم العباسي سنة ٢١٨هـ وقطع أعطياتهم وأرزاقهم فانتشروا في الريف المصري وعملوا بالزراعة وغيرها من المهن طلبا للرزق فانفتح باب الاختلاط بالمصريين على مصراعيه وزاد التزاوج بين العرب و المصريين فامتزجت الدماء العربية بالدماء القبطية وقطعت مصر شوطا بعيدا في تعريب الدم و الثقافة .

وهكذا أصبحت مصر قبل استيلاء الفاطميين عليها بلدا عربيا وإسلامياً وأصبحت الحياة الاجتماعية في مصر مزيجا من المظاهر الاجتماعية العربية الإسلامية و المظاهر الاجتماعية المصرية القديمة التي لا تتنافى مع تعاليم الإسلام ، وأثبت المجتمع المصري رغم تحفظه و اعتداده بتراثه مرونته وقابليته للتطوير مع الحفاظ على الشخصية المصرية .

كان المجتمع المصري حينما استولى جوهر الصقلي على مصر مجتمعا سنيا ، ورغم حب المصريين لآل البيت وتقديرهم للأشراف الهاشميين من الطالبيين والعباسيين فإن ذلك لم يجرفهم إلى التشيع بمفهومه المذهبي الذي جاء به الفاطميون الإسماعيلية ، لكن اختلاط المصريين السنة بالشيعة ممن وفدوا إلى مصر صحبة الفاطميين أو ببعض المتشيعين من المصريين أنفسهم جعل بعض أهل السنة المصريين يدخلون في التشيع لمصالح سياسية أو إدارية أو طمعا في الهبات والعطايا التي أغدقتها عليهم الدولة الفاطمية كوسيلة من وسائل الترغيب و استمالة المصريين للدخول في المذهب الفاطمي.

✿ عناصر المجتمع المصري:

تكون المجتمع المصري في العصر الفاطمي من عناصر عديدة كان بعضها موجودا في مصر قبل استيلاء الفاطميين عليها ودخلها البعض الآخر بصحبة الفاطميين ، وكان المصريون قبل الغزو الفاطمي إما عرب تمصروا أو مصريين تعربوا وكان أغلب المصريين المستعربين قد دخلوا في الإسلام كما أشرنا ولكن ظل قليل منهم على دينه متمسكا به في ظل الحرية الدينية التي كفلها الإسلام لأهل الذمة ، ثم انضم إلى هذه العناصر تدريجيا جماعات من الترك والصقالبة والمغاربة والسودان وغيرهم .

وكان العنصر التركي قد كثر في مصر منذ العصر العباسي الثاني بعد ازدياد نفوذهم في بغداد وتحكمهم في الخلفاء العباسيين وتولى حكم مصر حكام أتراك كالطولونيين والإخشيديين ، وأصبح للعنصر التركي بعد استيلاء الفاطميين على مصر مكانة ونفوذ لا يستهان بهما خاصة منذ خلافة العزيز بالله الذي أدخل بعضهم في الجيش الفاطمي وأخذ يعتمد عليهم ويقربهم من نفسه على حساب العناصر الأخرى ، وكان للوزير يعقوب بن كلس أثر كبير في ميل العزيز بالله الفاطمي إلى الأتراك فقد كان ابن كلس ينفر من المغاربة من جهة وكانت بينه وبين الأتراك مصاهرة من جهة أخرى إذ كان زوج ابنته قائدا للجيش الفاطمي ، وكان برجوان الخادم أستاذ الحاكم بأمر الله ومربيه من أصل تركي فلما استبد بالحكم في الدولة الفاطمية زاد نفوذ الأتراك زيادة كبيرة ، لكن نفوذهم ما لبث أن تقلص بعد أن تخلص الخليفة الحاكم من برجوان الخادم ثم تزايد شأنهم ثانية في خلافة المستنصر بالله إذ كانوا من ضمن المشارقة الذين تزعمهم ناصر الدولة بن حمدان ، فلما

تولى بدر الجمالي الأرمني الأصل مقاليد السلطة في مصر ووجه إلى الأتراك ضربة قاصمة فتخلص من قادتهم واستباح أموالهم وقضى عليهم قضاءا مبرما.

أما السودان فقد كانوا في مصر منذ عصر الولاة، ويذكر المؤرخون أن معاهدة البقط التي عقدها عبد الله بن سعد بن أبي سرح مع النوبة كانت تنص على أن يدفع ملك النوبة إلى بيت المال في مصر ٣٦٥ رأسا من الرقيق كل عام ومع أننا نرى وجوب إعادة النظر في قراءة وفهم معاهدة البقط إلا أن ذلك لا يلغي حقيقة تواجد السودان في مصر منذ عصر الولاة، وقد زاد السودان في مصر منذ أن درج الولاة على تجنيدهم في جيش مصر الإسلامية بعد إسقاط العرب من الديوان والاستغناء عن خدماتهم العسكرية، وقد اهتم الطولونيون بتجنيد السودان وسار الإخشيديون على نهجهم، بل كان كافور الأخشيدي نفسه عبدا أسود أعتقه الإخشيد وقربه إليه فترقى في خدمة الدولة ووصل إلى أعلى المراتب حتى حكم مصر، ولا شك أن نفوذهم تزايد في عهد كافور ثم تضاعفت أعدادهم في العصر الفاطمي، فظهر أمرهم في خلافة الحاكم الذي استعان بهم للتخلص من برجوان والنفوذ التركي، وتزوج الظاهر سيدة سودانية أنجب منها ولده المستنصر بالله الذي ولي الخلافة بعد أبيه فزاد نفوذ السودان واستكثرت منهم أم المستنصر وجندتهم للانتقام من الأتراك الذين عاونوا الوزير صدقة الفلاحي ضد التستري فاشتبكوا في حرب مع الأتراك لكنهم انهزموا فهربوا إلى الصعيد وعاثوا فيها فسادا، ثم استعادوا نفوذهم في مقر الخلافة وسيطروا على القصر الخليفي، وكان لهم دور كبير في الكيد لصلاح الدين الأيوبي، وقاد زعيمهم الملقب

مؤتمن الخلافة جوهر مؤامرة كبرى للخلاص من صلاح الدين كان من الممكن أن تسفر عن نتائج خطيرة لولا أن أفسدها صلاح الدين ثم تخلص من السودان.

أما المغاربة فقد كانت مصر تعج بهم طيلة التاريخ الإسلامي ، إذ كانت محطة لهم يحطون فيها رحالهم ويمكثون فيها طويلا أثناء أسفارهم سواء في رحلاتهم للذهاب الي المشرق أو للاياب الي المغرب ، وكثيرا ما كان يحلو لبعضهم الاستقرار في مصر واستيطانها ، وبدأ المغاربة يظهرون كعنصر في الجيش المصري منذ العصر الاخشيدي لكنهم أصبحوا عماد الجيش الفاطمي ، ذلك أن الدولة الفاطمية قامت على أكتافهم في بلاد المغرب وبهم إستولى الفاطميون على مصر ، لذلك كان معظم الجيش الفاطمي أول الأمر من المغاربة من قبائل كتامة وصنهاجة و زويلة و البرقية ولعبوا دورا خطيرا في الدولة الفاطمية في كافة الجوانب السياسية و الاجتماعية و الثقافية ، ولم تتقلص أهمية العنصر المغربي في الجيش رغم اعتماد الفاطميين بجانبهم على عناصر أخرى .

وكان المماليك من العناصر التي دخلت المجتمع المصري الاسلامي وكانت مصر سوقا رائجا للرقيق الأبيض و الأسود منذ أن أخذ حكامها يستخدمونهم في الجيش و في الخدمة المدنية ، وكان الجند الصقالبة عنصرا هاما في الجيش الفاطمي منذ أن قامت دولتهم في بلاد المغرب ، و كان جوهر الصقلي نفسه مملوكا صقليا قبل أن يعتق ويصل إلى أعلى المراتب في الدولة الفاطمية .

طبقات المجتمع المصري :

يحلو لبعض المؤرخين المحدثين تقسيم المجتمع المصري إلى طبقات جاعلين من كل عنصر من عناصره طبقة فالمغاربة طبقة والمماليك طبقة وهلم جرا ، ولكن واقع الأمر يؤكد أن هذه الفئات الإجتماعية لم تكن كل منها طبقة بالمعنى المفهوم لهذا الاصطلاح فالمفهوم الطبقي فوقي يضع الطبقات الإجتماعية إحداها فوق الأخرى وتتجمع الطبقة الواحدة داخل إطار تحدده المكانة الاجتماعية ومتوسط الدخل والقدرة الاقتصادية والمستوى المعيشي ، والطبقة هي رابطة تتخطى في أغلب الأحوال حدود العرق والعقيدة ، فيصح أن تجمع الطبقة الواحدة شرائح عديدة من كل عناصر المجتمع .

وإذا أردنا تقسيم المجتمع المصري الإسلامي طبقيا بالمعنى الدقيق لمفهوم الطبقة لوجدنا أنه ينقسم إلى ثلاث طبقات : الطبقة العليا أو علية القوم والطبقة الوسطى والطبقة الدنيا أو العامة ، وطيلة تاريخ مصر الإسلامية لم تكن هذه الطبقات جامدة مغلقة حدودها على نحو لا يمكن تجاوزه صعودا أو هبوطا بل كانت طبقات مفتوحة الحدود يمكن أن تدخل فيها فئات وأن تخرج منها أخرى ، ولذلك كان هذا الوضع الطبقي للأفراد متغيرا من عصر لآخر في مصر الإسلامية لكننا مع ذلك نجد بعض الفئات الثابتة في مواقعها داخل هذه الطبقات ، وسوف نحاول التعرف على أهم ملامح هذه الطبقات .

كانت الطبقة العليا في مصر الإسلامية تنقسم إلى طائفتين أولاهما حازت مكانتها العالية في المجتمع لاعتبارات عرقية وهم الأشراف الذين علت مكانتهم الإجتماعية نظرا لأصولهم العريقة التي كانت تربطهم بالبيت النبوي ، وقد أطلق لفظ الأشراف على العباسيين والطالبيين معا وكانت لهم

نقابات في دار الخلافة العباسية وفي حواضر الأمصار ، واشتهر الأشراف العلويون في مصر وتمتعوا بمكانة كبيرة في المجتمـــع المصـــري ، وكـــان الحكام من الطولونيين والإخشيديين يجلونهم وذاع صيت أسرة بني طباطبـــا العلوية التي نبهت في مصر منذ عصر الولاة ولمع من الأشراف العلوييـــن في العصر الإخشيدي الحسن بن طاهر العلوي الذي كان يسفر للاخشيد فـــي المهام الجسام مثل : التفاوض مع ابن رائق وسيف الدولة الحمداني . كذلـــك لمع منهم الشريف أبو جعفر مسلم الحسيني الذي أوفده المصريون لمفاوضـــة جوهر الصقلي وحصل لهم منه على الأمان مرتين ، وبعد الغزو الفـــاطمي لمصر انضم إلى جماعة الأشراف أفراد البيت العبيدي وزاد إجلال العلوييـــن واحترامهم إذ كان الفاطميون ينسبون أنفسهم إليهم ، وقد أنشأ الفاطميون فـــي القاهرة نقابة للطالبيين على غرار التي كانت لهم في بغداد وقد ولى الحـــاكم بأمر الله في سنة ٤٠١هـ أبا القاسم على بن أحمـــد الزيـــدي علـــى نقابـــة الطالبيين [١] ثم تغير اسمها إلى نقابة الأشراف مثلما حدث في بغداد وكـــان ممن تولى أمرهـــا في خلافة الحـــافظ عبد المجيد أخو الشريف معتمد الدولة على بن جعفر بن غســـان المعروف بابن عصـــاف ، وكـــان نقيب الأشراف ابن عصاف جليسا للخليفة الحافظ ، صاحب أدب ومعرفة بعلم الفلك ، وكـــان الحافـــظ يحب هذا العلم [٢] ، وقد أوقف الوزير الصـــالح طلائع بن رزيـــك ثلثي المكس على الأشراف ومع ذلك كـــان بعضهم من المتعففين حتـــى أن الشـــريف جعفر العلوي العمري المعروف بابن المـــاشطة أصـــابته فـــاقة

---

[١] المقريزي : اتعاظ : جـ ٢ ص ٨٦ .

[٢] نفس المصدر ، جـ٣ ص ١٤٨ .

في بعض نوبسات الغلاء فكبرت نفسه عن السؤال فحبس نفسه في بيته إلى أن مات (١) .

والطائفة الثانية من علية القوم تمثلت في ذوي اليسار من كبار القادة وكبار الموظفين وكبار التجار وكبار الملاك واشتهر من هذه الطائفة أسرة الماذرائيين التي لمعت على عهد الطولونيين والإخشيديين وسيطرت على خراج مصر والشام طيلة سبعين عاما ، واشتهر منها أيضا آل الفرات خصوصا الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات الذي كانت له اليد الطولى في أمور البلاد بعد وفاة كافور الإخشيدي وظلت له مكانته في مصر بعد قدوم الفاطميين إليها حتى استعفي من الوزارة بعد قدوم المعز لدين الله الفاطمي ، وانضم إلى هذه الطائفة كبار رجال البلاط الفاطمي وكبار الموظفين كداعي الدعاة وقاضي القضاة وأصحاب الدواوين وغيرهم ، ومن الأسر التي اشتهرت في العصر الفاطمي أسرة القاضي النعمان بن حيون المغربي وآله وهم الذين هيمنوا على القضاء الفاطمي والدعوة الفاطمية وقتا طويلا والأسرة الجمالية التي حكمت مصر وقتا طويلا وكان من وزرائها العظام بدر الجمالي وبنه الأفضل وحفيده أبو علي الأكمل ، وكان أهل هذه الطائفة يتمتعون بالثروات العظيمة والضياع الواسعة وسكنوا الدور الفاخرة والقصور التي أنفقوا على تشييدها آلاف الدنانير واستخدموا العبيد والجواري واتخذوا المحظيات بالمئات.

أما الطبقة الوسطى ، فكانت تشمل صغار الموظفين وصغار التجار وصغار الملاك والمتقبلين وأعيان الحرفيين وكان أفراد هذه الطبقة يتمتعون

---

(١) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٢٦٣ .

بشيء من رغد العيش ، ومنهم من كان يجمع ثروة كبيرة ويسكن دارا عظيمة فتزيد مكانته على نحو يؤهله بعد ذلك للانضمام إلى علية القوم .

أما طبقة العامة ، فكانت أكبر الطبقات الاجتماعية حجما وأقلها ترفا تشمل الحرفيين والزراع والمعدمين وشطار المدن ، وكانت لجماهير العامة في حاضرة البلاد قوة تأثير لا يستهان بها وتستطيع إثارة المتاعب للحكام ، لذلك عمل الحكام على استرضائهم بالهبات والأعطيات ومدوا الأسمطة والموائد في الاحتفالات العامة التي كان عامة الناس يقبلون عليها إقبالا شديدا إذ كانت أهم متنفساتهم الاجتماعية التي ينعمون فيها ببعض مظاهر الترف المقصورة على المياسير .

۞ العادات والتقاليد الاجتماعية :

كان في المجتمع المصري الإسلامي كثير من العادات والتقاليد منها إقبال البعض على شرب الخمر ولعب الميسر ، وكانت للميسر في العصر الإخشيدي مواخير بكل ماخور منها " مطمع " وهو الشخص الذي يحرض الناس على لعب الميسر ويطمعهم في المكسب حتى يستمروا في اللعب فكانت الدولة تلاحقهم وقد وقع في يد الإخشيد أحد هؤلاء المطمعين وكان شيخا فانيا لكن شيخوخته لم تنجه من العقاب .

وأولع المصريون بمشاهدة السباقات خصوصا سباق الخيل الذي كان أحمد بن طولون يهتم به اهتماما شديدا حتى أنه بنى له ميدانا فسيحا أمام قصره ليشاهد السباق بنفسه وكان يسميه المنظر وتوسع خمارويه في حلقات السباق حتى عدها القضاعي من العجائب ، وأقام الإخشيد حلبة للسباق على غرار حلبة ابن طولون . وكان للفاطميين كثير من المناظر التي يشاهدون

منها الاحتفالات العامة واستعراض الجيوش وتوديع الحملات الحربية ، وقد وصف المؤرخون المواكب الفاطمية وكيفية ركوب الخلفاء الفاطميين في الاحتفالات وضعا مسهبا وكان المعز لدين الله هو أول من استن ذلك كله بمصر .

وأولع المصريون بالغناء والمغنيين والمغنيات ، واعتنى به الطولونيون والفاطميون ، وقد خلف لنا خمارويه على جدران بيت الذهب الذي بناه في قصره صورا بارزة من الخشب تمثله وحظاياه ومغنياته ، ولم يقتصر حب الغناء على علية القوم بل شمل المصريين كافة حتى أن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ضجر من هذه الظاهرة فأصدر أوامره بمنع سماع الموسيقى والمغنيات ، لكن الغناء عاد سيرته بعد وفاة الحاكم ، ويكفي للدلالة على ذلك أن أرض الطبالة منحها المستنصر بالله الفاطمي لمصرية أطربته بغناء بيتين من الشعر .

وتأنق المصريون – خصوصا المياسير – في ملابسهم ، والملابس المصرية كانت غاية في التفصيل واشتهرت بدقة صناعتها في جميع الآفاق ، وتفنن المصريون في التعطر واستحداث الروائح العطرية ، وتخضبوا بالحناء واعتنوا بالاغتسال والاستحمام فكانت الحمامات العامة تزدحم عادة بالمصريين رغم وفرة أعدادها ، وكان يحلو لبعض المصريين من المياسير أن يستأجر حماما بأكمله لينفرد فيه بنفسه طيلة تواجده فيه .

وكان الصيد من الرياضات الشائعة ، وكان ابن طولون يخرج للصيد في الجيزة ونواحيها وأولع ابنه خمارويه بصيد الحيوانات الكاسرة وأنشأ من صيده حديقة للحيوانات في قصره . وكان الخليفة العزيز بالله

الفاطمي مغرما بالصيد وخاصة صيد السباع وولع الخليفة الحافظ لدين الله عبد المجيد بالصيد في نواحي الجيزة .

وكان المصريين يهوون التنزه في البساتين وعلى شواطئ النيل وفي مناطق الآثار القديمة التي كانوا يحكون عنها القصص الخرافية ، وقد كثرت البساتين في العصر الطولوني وفي العصر الفاطمي وأكثر الفاطميون من المتنزهات والبساتين ، كالبساتين الجيوشية ، وانتشرت البساتين في القاهرة والفسطاط وجزيرة الروضة ، وكانت تغرس فيها أشجار النارنج والفاكهة والزهور من مختلف الأصناف ، وظلت موضع اهتمام الخلفاء والوزراء حتى أهملت بعد أيام الخليفة الحافظ عبد المجيد ، وقد ذكر المقريزي من أسماء المتنزهات الفاطمية : بستان التاج والخمس وجوه وقبة الهواء بظاهر القاهرة ودار الملك بالفسطاط والهودج الذي أنشأه الآمر بجزيرة الروضة [١] بينما ذكر ابن سعيد أن أحسن موضع في ظواهر القاهرة للفرجة هو أرض الطبالة وبركة الفيل التي تبدو في الليل لها منظر عجيب حينما يسرج أصحاب المناظر فوقها [٢] وكان المصريون مولعون بوضع أشجار الزينة على أسطح المنازل على نحو لفت نظر الرحالة ناصر خسرو الذي زار مصر زمن المستنصر بالله الفاطمي .

وكان من أهم العادات الإجتماعية في مصر الاسلامية الاحتفال بالأعياد : الاسلامية والأعياد القبطية على السواء فاحتفل المصريون بأعياد الفطر والأضحى التي كانت تسير فيها المواكب والاستعراضات واحتفلوا

---

[١] المقريزي : الخطط جـ ٣ ، ص ١٢٩ .

[٢] ابن سعيد : المصدر السابق ، صص ٢٥-٢٦ .

باطلاق مياه النيل في الخليج ويوفاء النيل وكان هذا الإحتفال في العصر الفاطمي من أعظم الأحتفالات ، ويصف ناصر خسرو الرحالة الفارسي الذي زار مصر في العصر الفاطمي هذا الاحتفال بإطلاق مياه النيل في الخليج وصفا رائعا وكيف كانت المواكب تخرج وعلى رأسها الخليفة في أعظم هيئة وأبهى زينة وتخرج الجماهير للابتهاج بهذا اليوم المشهود ، وكان للقبط أربعة عشر عيدا قبل الفتح الاسلامي ، وقد استمر المسلمون يحتفلون بها جميعا ولم يوقفوا الإحتفال بشئ منها ولكنهم كانوا يمنعون المظاهر المنافية للاسلام والتي كانت تحدث في بعض الأحيان ، وكانت هذه الأعياد تنقسم لدى القبط إلى سبعة كبار هي : عيد البشارة وعيد الزيتونة وعيد الفصح وعيد خميس الأربعين وعيد الخميس وعيد الميلاد وعيد الغطاس ، وسبعة أعياد صغار هي : عيد القيامة وعيد الأربعين وخميس العهد وسبت النور وأحد الحدود ، والتجلي وعيد الصليب ، وكان المصريون يتزاورون في هذه الأعياد وكثيرا ما كان المياسير يقدمون فيها الهدايا للفقراء .

وفي العصر الفاطمي أضاف الفاطميون إلى هذه الأعياد الكثير واحتفلوا بها لكسب قلوب المصريين ، وكانوا يمدون فيها الأسمطة ، ويقيمون الولائم وتخرج فيها المواكب التي يركب فيها الخلفاء خصوصا المواكب العظام مثل موكب أول العام الهجري وموكب أول رمضان وكان من الأعياد الفاطمية المولد النبوي ومولد علي بن أبي طالب ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد السيدة فاطمة الزهراء ومولد الخليفة القائم بالأمر ويوم غدير خم وليالي أول رجب والنصف منه وغرة رمضان ويوم عاشوراء ويوم النوروز وغير ذلك كثير ، كذلك أحدث أهل السنة أعيادا لهم في العصر

الفاطمي مثل يوم غـــار ثور الذي استحدثوه ليضـــاهوا به يوم غدير خـــم عند الشيعة، وليس معنى هذا أن مصر الفـــاطمية كانت كل أيامها أعيـــاد بل كثيرا ما كانت البلاد تعاني من المجاعـــات والأوبئة خصوصـــا ما حل بـــها أيام الشدة المستنصرية.

۞ موقف الفاطميين من الشيعة وأهل السنة :

لما كانت الدولة الفاطمية دولة شيعية فكان من الطبيعـــي أن يكـــون أكثر ميلها للشيعة ، إذ كانوا عدتها وعصبيتها ، وقد تكون الشيعة في مصـــر من بعض المصريين الذين مالوا إلى التشيع ، إما عن إقتناع أو جريـــا وراء مصلحة يحققونها من وراء اتصالهم بالحكام الفاطميين واعتنـــاق مذهبـــهم ، ولكن المصريين الذين انضموا إلى الشيعة كانوا قلة قليلـــة وكـــان الســـواد الأعظم منهم من أهل السنة ، بينما كان أغلب الشيعة في مصر من المغاربـــة الذين وفدوا إلى مصر في ركاب الفاطميين ، وكان الفاطميون يعتمدون عليهم في جيوشهم خصوصاً الكتاميين الذين كانوا عصب الدولة الفاطمية ولبـــاس قوتها في مصر ، لكن المغاربة كثيرا ما أثاروا القلاقل في مصر واتجـــهوا للعنف والشدة مع المصريين ، لذلك فقد أتخذ المصريون موقفا معاديـــا لـــهم وأظهروا السخط والاستياء منهم في مناسبات عديدة ، وســـعى الفـــاطميون لإصلاح ذات البين بين المغـــاربة والمصريين ولكن انحيازهم إلى المغاربـــة حال دون تحقيق ذلك .

أما أهل السنة فقد كانوا – كما ذكرنـــا – الســـواد الأعظـــم مـــن المصريين ، وكان يغلب عليهم المذهبان : المالكي والشافعي ، أما المذهـــب الحنفي - أقدم المذاهب السنية الأربعة - فكان حظه في مصر قليلا بينما لـــم

يكن لمذهب ابن حنبل شأن يذكر حينذاك. ولما دخل جوهر الصقلي مصر سنة ٣٥٨هـ من قبل المعز لدين الله الفاطمي كتب لأهلها أمان أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم ، وتعهد فيه بعدم التعرض لمذهبهم السني وألا يجبرهم على التشيع ، لكن الفاطميين لم يلتزموا بكتاب الأمان الذي كتبه جوهر الصقلي للمصريين ، بل كان جوهر نفسه أول من خرقه ، وكان همه الأول تثبيت أقدام الفاطميين في مصر بتحويل المصريين إلى المذهب الشيعي ، إلا أنه كان يفعل ذلك على مهل وتدرج ولم يلجأ إلى العنف والشدة حتى لا يثير ضده كراهية المصريين ، فلما انتقل المعز إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ ، كشفت السياسة الفاطمية عن صريح أهدافها ، واتبعت في ذلك عدة وسائل منها : إسناد المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعة ، وخططوا لانقلاب وظيفي هادئ لإحلال الشيعة في الوظائف محل أهل السنة حتى لا يثيروا ثائرة المصريين فتتعطل الأعمال ، فأشركوا المغاربة مع المصريين في الأعمال أولا ليكتسبوا منهم الخبرة ، ثم ألزموا جميع الموظفين بعد ذلك باعتناق المذهب الإسماعيلي أو على الأقل اتباع أحكامه في مهام وظائفهم وأعفي كل من خالفه من منصبه.

ومن الوسائل التي اتخذها الفاطميون لتحويل السنة المصريين إلى التشيع ، جعل المساجد مركزا للدعاية الفاطمية في مصر مثل الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) وجامع ابن طولون ، بل إنهم بنوا الجامع الأزهر ليكون منارا للمذهب الشيعي في القاهرة ثم بنوا جامع الحاكم بأمر الله لنفس الغرض.

ونظم الفاطميون شئون دعوتهم ، واهتموا بالأعياد والمناسبات الشيعية كعيد غدير خم وعاشوراء وغيرها ، وكانوا يأملون من الاحتفال بتلك الأعياد وما يقيمونه فيها من ولائم وأسمطة ويغدقونه على المصريين من أموال وهبات ، استمالة قلوب المصريين إلى التشيع ، وجندوا الشعراء المداحين ليشيدوا بمناقب الفاطميين ويروجوا للمذهب الفاطمي في قصائدهم مثل الشاعر ابن هانئ الأندلسي.

وإذا كان الفاطميون قد ساروا في سياسة التشيع على مهل طيلة ولاية جوهر ، فإن المعز لدين الله بعد قدومه إلى مصر قد اشتد في هذه السياسة ، ونصر الشيعة وشجعهم على إظهار شعائرهم المخالفة لشعائر أهل السنة ، فاستاء أهل السنة المصريون لذلك ، خصوصا أن الشيعة كانوا يقرنون المغالاة في شعائرهم بالاعتداء على السنيين ، فرأى أهل السنة أن يتخذوا لأنفسهم مناسبات يضاهون بها احتفالات الشيعة ، فاحتفلوا بيوم غار ثور وجعلوه في ٢٦ من ذي الحجة مضاهاة ليوم غدير خم عند الشيعة.

ولما تولى العزيز بالله خلافة الفاطميين اشتد على أهل السنة فمنعهم من إقامة بعض شعائرهم مثل صلاة التراويح ، ومنع تداول كتب السنة حتى أنه عاقب رجلا من أهل السنة وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس فضربه وطوف به ، وأمر الفاطميون بلعن الخلفاء الثلاثة الأول : أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة ، ونقشوا فضائل علي وبنيه على السكة وعلى جدران المساجد ، فرد أهل السنة على هذا التشدد الفاطمي بإشاعة التشكك في النسب الفاطمي وأشاعوا أنهم لا ينتسبون للعلويين .

وكان الحاكم بأمر الله حينما تولى الخلافة متقلبا في خلافته ، فقد تعصب أول أمره للتشيع تعصبا شديدا لكنه اضطر للتخفيف من حدة تعصبه للمذهب الشيعي وتسامح مع أهل السنة بدءا من سنة ٣٩٧هـ كي يستميلهم إلى جانبه ليتمكن من مواجهة خطر أبي ركوة الأموي الذي أتى من برقة على رأس جيش ليغزو مصر باسم أمويي الأندلس ، فأوقف اضطهاده لأهل السنة ومنع لعن الخلفاء الثلاثة الأول وغيرهم من الصحابة على المنابر وأوقف الأذان بحي على خير العمل وسمح بإقامة صلاة التراويح والضحى بل أنشأ مدرسة للمذاهب السنية وأطلق حرية ممارسة الشعائر حتى بلغ من تسامحه مع أهل السنة حينذاك أن يغضب الشيعة ، ثم تراجع الحاكم بعد ذلك عن سياسة التسامح مع أهل السنة فأمر بالأذان حي على خير العمل وأبطل صلاة التراويح والضحى ، بل عزم على نبش قبري أبي بكر وعمر بالمدينة.

ثم تولى الظاهر لإعزاز دين الله فكان أقل تشددا وأكثر سماحة مع أهل السنة من أبيه ، وسار ابنه المستنصر على نهجه في التسامح مع أهل السنة بل إن الشدة العظمى التي تعرضت لها البلاد على عهده جعلته يزداد لينا وتسامحا مع أهل السنة حتى لا يزداد سخطهم على نحو يهدد كيان الدولة الفاطمية ، فتمتع أهل السنة بمطلق الحرية في أداء شعائرهم حتى تقلد بدر الجمالي زمام الأمور في البلاد ، وكان شيعيا مغاليا ، فاشتد على أهل السنة وعلى الرغم من أن الخلفاء الفاطميين الأواخر كانوا حريصين على تدعيم أركان المذهب الفاطمي ، إلا أنه ظهرت بعض الميول إلى التسنن عند بعض وزراء العصر الفاطمي الثاني ، فقد كان الوزير ابن السلار سنيا مغاليا من أتباع المذهب الشافعي، فأنشأ مدرسة للشافعية ، إلا أن الخليفة الظافر بالله

دبر اغتيال ابن السلار ، وكانت هذه الصحوة السنية في وزارة ابن السلار إرهاصة باستعادة أهل السُنة لزمام الأمور في البلاد ، وقد تحقق ذلك بتولي صلاح الدين الأيوبي وزارة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وما لبث صلاح الدين أن أسقط نهائيا الدولة الفاطمية الإسماعيلية في المحرم سنة ٥٦٧هـ وعادت مصر سنية مرة أخرى من الناحية الرسمية.

۞ موقف الفاطميين من أهل الذمة :

أما أهل الذمة ويقصد بهم عادة اليهود والنصارى وقد يضاف إليهم بعض الطوائف كالسامريين فقد حدد الإسلام موقفه منهم في آيات بينات لا تحتمل التأويل ، وهو موقف أساسه التسامح وحرية العقيدة ، وكان يشترط لبقاء الذمي في دار الإسلام أن يؤدي الجزية التي بمثابة ضريبة دفاع يدفعها الذميون للمسلمين مقابل حمايتهم والدفاع عنهم. وقد تركت الشئون الداخلية لأهل الذمة دون تدخل من جانب المسلمين ، وأحل الإسلام التعامل مع أهل الذمة وأباح للمسلم الزواج بالكتابيات وأجاز عيادة مرضاهم والبيعة لهم والشراء منهم ومبادلتهم الأطعمة.

كفل الفتح الإسلامي للقبط المصريين حرياتهم الدينية ومع ذلك شهد عصر الولاة تحولا عظيما من جانب القبط إلى الإسلام وأدى في النهاية إلى أن يصبح أهل الذمة في مصر أقلية محدودة يقدرها البعض بثلث الشعب المصري – وظلت هذه الأقلية تتمتع بنفس التسامح إلى أن تولى الفاطميون على مصر فعاملوهم أحسن معاملة واستعانوا بهم لتدعيم سلطانهم على مصر واستخدموهم في أهم شئون الدولة ووظائفها ، فاتخذوا منهم الوزراء والوسطاء ورؤساء الدواوين والكتاب لمهارتهم وخبرتهم الإدارية ، واتخذوا

منهم الأطباء لمهارتهم الطبية ، فكان من أطباء المعز لدين الله موسى بن العازار وابناه إسحاق وإسماعيل ، وإذا كان جوهر الصقلي إبان ولايته على مصر قد تشدد مع اليهود ٣٦٢هـ لهياج الصيارفة اليهود بسبب تغيير العملة فإن الخلفاء الفاطميين قد عاملوا أهل الذمة على وجه العموم معاملة حسنة لم يحظوا بمثلها من قبل ، فلم يكد الخليفة المعز لدين الله يصل إلى القاهرة في رمضان سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م حتى أصدر عفوا شاملا عن جميع الذين اعتقلهم جوهر الصقلي وعهد إلى يعقوب بن كلس الذي كان يهودي الأصل بإدارة شئون الدولة المالية .

وكان يعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين في مصر يميل إلى أهل الذمة - إخوانه السابقين - فيوليهم كثيرا من الأعمال. وتزوج الخليفة العزيز بالله سيدة مسيحية ملكانية فزاد تسامحه مع قومها وولى أخويها مناصب سامية ، إذ عين أحدهما بطركا لبيت المقدس وعين الآخر بطركا للإسكندرية ، واستوزر العزيز يعقوب بن كلس وجعله ساعده الأيمن في إدارة شئون الدولة الفاطمية ، فلما توفي ابن كلس استوزر العزيز عيسى بن نسطورس النصراني وعين منشا بن القزاز اليهودي واليا على الشام فأظهرا محاباة صارخة لبني ملتهم واستعانا بهم في وظائف الدولة وأبعدا عنها المسلمين فسخط المسلمون ورفعوا شكواهم للعزيز وعرض الشعراء بالعزيز حتى خشي الثورة ، فقبض على عيسى بن نسطورس ومنشا بن القزاز ورد المسلمين إلى الوظائف وأعمال الدواوين ، لكن ست الملك ابنة العزيز من زوجته النصرانية تشفعت لعيسى بن نسطورس لدى أبيها وكان العزيز يحبها

حبا شديدا ولا يرد لها قولا [١] فرده إلى الوزارة على أن يستخدم المسلمين في دواوين الحكومة.

ولما تولى الحاكم بأمر الله أحسن في أول خلافته إلى أهل الذمة الذين كانوا يشكلون أغلب موظفي الدولة [٢]، وتثبت وثائق الجنيزا أن اليهود حظوا بتسامح الحاكم أول عهده وأن معابدهم كانت مصونة ، لكن الحاكم ما لبث أن اشتد على أهل الذمة مسوقا بضغط المسلمين الذين ساءهم استئثار الذميين بالسلطة والثروة فعزل فهد بن إبراهيم النصراني وقتله سنة ٣٩٣هـ بسبب ميله إلى النصارى وإسناده مناصب الدولة إليهم ، لكن الحاكم لم يكن يلتزم بسياسة واحد بل كان متناقضا في سياساته ففي الوقت الذي كان يشتد فيه على أهل الذمة ، إستوزر واحدا منهم هو منصور بن عبدون النصراني ثم عزله وقتله في المحرم سنة ٤٠١هـ ثم استوزر زرعه بن عيسى بن نسطورس الذي كان واحدا من القلائل الذين أفلتوا من غدر الحاكم وذلك لحسن سيرته وسياسته [٣]، وكان طبيب الحاكم نصرانيا يدعى منصور بن سهلان فلما توفي في أواخر أيام الحاكم استطبب بعده إسحاق بن إبراهيم النصراني ، ثم عاد الحاكم إلى التسامح مع أهل الذمة قبيل اختفائه ، والواقع أن الحاكم لم يصب اضطهاده على أهل الذمة وحدهم ، بل كان يشتد على كافة طوائف الشعب من حين لآخر [٤].

---

(١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ص ٣٣ .

(٢) الأنطاكي : صلة كتاب أوتيخا ، ص ٢٠٣ .

(٣) نفس المصدر : ص ٢٠٤ .

(٤) لين بول : سيرة القاهرة ، ص ١٣٥ .

أما الخليفة الظاهر فقد كان متسامحا على طول الخط مع أهل الذمة بسبب نفوذ عمته ست الملك التي كانت المديرة لشئون الدولة وسياستها بسبب صغر سن الظاهر الذي لم يتجاوز السابعة عشر من عمره حين توليه الخلافة ، وسار الظاهر على هذه السياسة المتسامحة طيلة حكمه فكان دين النصارى مستقيم وأهله مكرمين "(١).

وفي خلافة المستنصر بالله إزداد نفوذ أهل الذمة وسيطر النصارى على دواوين الدولة حتى كتب الأنبا ميخائيل أن " جميع مقدمي المملكة والناظرين في دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى "(٢) وازداد أيضا نفوذ اليهود وارتفع قدر أبي سعيد التستري اليهودي بسبب صلته بأم المستنصر ، إذ كانت جارية له قبل أن يبتاعها الظاهر ويستولدها المستنصر ، ولما علا قدر التستري غار منه الوزير صدقة بن يوسف الفلاحي فتآمر عليه وتخلص منه في سنة ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م ، فاستخدم المستنصر بدلا من التستري ابنه وأخاه وقتل صدقة الفلاحي بتحريض من أم الخليفة سنة ٤٤٠هـ (٣).

وسار بقية الخلفاء الفاطميين على سياسة التسامح والعطف على أهل الذمة واستخدموهم في الوظائف الهامة حتى الوزارة فقد كان بهرام الأرمني وزير الحافظ لدين الله عبد المجيد نصرانيا ولعله مما يدل على تمتع أهل الذمة بعطف الفاطميين أن رهبان دير سانت كاترين رفضوا استقبال بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبي خشية أن يغضبوا الفاطميين فيفقدوا

---

(١) الأنبا ميخائيل : ذيل سير الآباء البطاركة جـ ٣ (مخطوط) ورقة ٦١
(٢) نفس المصدر : جـ ٣ ، ورقة ٧٥ .
(٣) سلام شافعي محمود : أهل الذمة في مصر ، ص ٤٠

عطفهم ، ومارس أهل الذمة في العصر الفاطمي جميع مظاهر حياتهم الاجتماعية في حرية واحتفلوا بأعيادهم وبالغوا فيها ، ولذلك يمكن القول أن العصر الفاطمي كان العصر الذهبي لأهل الذمة في مصر الإسلامية.

ثالثا – الأحـــوال الاقتصاديـــة

ازدهر الاقتصاد المصري في العصر الفاطمي ازدهـــارا ملحوظـــا ترجع أسبابه إلى إمكانيات مصر الاقتصادية من ناحية وقدرة الفاطميين على الإفادة من هذه الإمكانيات من ناحية أخرى ، فلقـــد تمتعـــت مصـــر دومـــا بإمكانيات زراعية وصناعية وتجارية متميزة كانت تنمو تدريجيا منذ أن فتح المسلمون مصر وحتى استيلاء الفاطميين عليها ، وجاء الفـــاطميون بنظـــام اقتصادي ساعد على الإفادة من هذه الإمكانيات وتنميتها ، فلقد قام الاقتصـــاد الفاطمي على الحرية الاقتصادية " إذ كانت كل قطاعات الحياة الاقتصاديـــة حرة : المهن والصناعة والتجارة " ، لا تتدخل الحكومة إلا عند الضـــرورة مثل تدخلها في تجارة المواد الغذائية عند الحاجة لتأمين المـــدن الكبرى بالقمح [١] ، وكان من العوامل التي أدت إلى ازدهـــار الاقتصـــاد الفـــاطمي حصول الفاطميين على كميات لا بأس بها من الذهب وبصورة منتظمة مـــن بلاد السودان فتمكنت من الحفاظ على احتياطي نقدي كبير من الدنانير نقيـــة العيار كاملة الوزن مما ساعد على إقامة المشاريع الجديدة ورفـــع مستوى المعيشة ورفع أسعار البضائع فدارت عجلة الإنتاج علـــى نحـــو أدى إلـــى الازدهار ، وفضلا عن ذلك فقد كان للتطور العظيم في التجـــارة العالميـــة ومكانة الفاطميين المرموقة فيها أثره في ازدهار الاقتصاد المصري ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك اهتمام الفاطميين بالنظام المالي وتنظيم شـــئون مصـــر المالية تنظيما دقيقا ضمن امتلاء خزانة الدولة من الموارد المتنوعة فمكنـــها من الإ ن في أوجه متعددة ومن ثم كان الاقتصاد المصري فـــي العصـــر

---

(١) أشتور : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ص ٢٤٢ .

الفاطمي على درجة كبيرة من الازدهار لم تخض من شأنها بعض الأزمات الاقتصادية التي حدثت في ذلك العصر وقد اشتمل الاقتصاد المصري في العصر الفاطمي على أنشطة عديدة منها :

(١) الزراعة :

كانت الزراعة دوما عصب الاقتصاد المصري وعماده ، ويميل معظم الباحثين إلى الاعتقاد بأن مصر كانت أسبق بلدان العالم إلى معرفة الزراعة ، وكان نجاح الزراعة في مصر عموما يتوقف على عاملين أساسيين . فيضان النيل ، وسياسة الحكومة الزراعية ومدى عنايتها بشئون الري ، ولقد وجد الفاتحون المسلمون في مصر حين فتحوها زراعة متقدمة فأبقوا على الأحوال الزراعية على ما هي عليه طالما أنها لم تتعارض مع الشريعة الإسلامية ، لكن الحكومات المتوالية من عصر لآخر في مصر الإسلامية لم يكن اهتمامها بالزراعة على وتيرة واحدة ، وإنما تفاوت اهتمامها من حكومة لأخرى تبعا لطموحاتها وقدراتها على ضبط أحوال البلاد وحفظ الأمن والاستقرار فيها.

وكان على الحكومات أن تهتم بنظام الري للإفادة القصوى من ماء النيل ، فتقيم السدود والجسور وتحفر الترع والخلجان وتمسح الأراضي الزراعية وتعني بالمقاييس لضبط مياه الفيضان ، وعلى الرغم من كثرة ما رددته المصادر عن ذلك ، فإننا نلاحظ تناقص مساحة الأراضي الزراعية تدريجيا حتى قدوم الفاطميين إلى مصر وإن كان بعض الباحثين يعتقد أن مساحة الأراضي الزراعية في مصر الإسلامية كانت نحو ثلاثة ملايين فدان ، إلا أن البيانات المستقاة من المصادر الأدبية غير دقيقة ولا يمكن

الاطمئنان إليها وإن كان من المؤكد أن الأرض الزراعية كانت في تناقص في العصر الفاطمي حتى أنها نقصت في نهايته عن بدايته.

كان نظام الري في مصر الإسلامية تطلبيا حوضيا تزرع فيه الأراضي الزراعية زرعة واحدة في العام ، ولما كانت هذه الزراعة تتم عادة بعد انتهاء موسم الفيضان الذي يأتي صيفا فقد كانت معظم الزراعة في مصر الإسلامية شتوية ، لكن ذلك لم يمنع وجود بعض الأراضي التي تزرع أكثر من مرة في السنة مثل الأراضي الواقعة على ضفة النيل مباشرة وتعتمد على الري الصناعي باستخدام الآلات كالسواقي والشواديف والطنابير وما إليها.

ولما كان الفيضان هو العامل الحاسم في نجاح الزراعة المصرية حينذاك ، فقد كانت الدولة في سبيل الاستفادة القصوى من مياهه ، تهتم أشد الاهتمام برعاية الجسور ، وتجند للعناية بها آلاف العمال سنويا ، وكانت ترصد أموالا طائلة من الميزانية العامة للعناية بالجسور العمومية – أو السلطانية – كي لا تتسرب مياه الفيضان ، أما إذا كانت الجسور محلية فيكلف الأهالي بصيانتها على أن تخصم نفقات الصيانة من مربوط الخراج.

لم تدخل تعديلات كثيرة على نظام الملكية الزراعية في مصر بعد الفتح الإسلامي إذ أبقى الفاتحون المسلمون على حق الملكية الخاصة للمصريين ولم يضعوا أيديهم إلا على الأراضي التي كانت بأيدي البيزنطيين وخلت منهم بعد خروجهم من مصر ، وقد اعتبرت هذه الأراضي ملكية عامة تؤجرها الدولة حينا أو تقطعها حينا آخر وكانت أراضي الملكية العامة تتزايد بما يضاف إليها من الأراضي التي ينحسر عنها مياه النيل والتي تسمى طرح النيل والأراضي المستصلحة مثل بركة الحبش بظاهر الفسطاط

فضلا عن أراضي المواريث التي يتوفى أصحابها دون وريث فتؤول ملكيتها إلى الدولة.

وبدأ ظهور الأراضي المقطعة في مصر الإسلامية عقب فتحها ، إذ أقطع عمرو بن العاص بتوجيه من الخليفة عمر بن الخطاب إقطاعا كبيرا في مصر لسندر – أو ابن سندر – مولى رسول الله ﷺ وهو الإقطاع الذي اشتراه فيما بعد الإصبغ بن عبد العزيز وصار يعرف بمنية الإصبغ، وكانت هذه الإقطاعات تمنح كما أشرنا من أراضي الدولة وكانت نوعين : **إقطاع التملك** الذي تتنازل فيه الدولة تنازلا مطلقا للمقطع ، و**إقطاع الاستغلال** وهو ما تمنحه الدولة للمقطع نظير دفع مبلغ معين من المال في وقت معلوم يعود بعده الإقطاع إلى الملكية العامة للدولة .

أدى استيلاء الفاطميين على مصر إلى تغيير في طبيعة الملكية الزراعية نظرا لأن الفاطميين كانوا يرون أن الأئمة هم ظل الله في الأرض وأن كل شئ ملك للإمام ومعنى هذا نظريا أن الأراضي كلها ملكية عامة للإمام ولا وجود للملكية الخاصة ، لكن الواقع يؤكد أن الملكية الخاصة ظل معمولا بها رغم ما يذهب إليه المذهب الفاطمي وزادت الإقطاعات في مصر الفاطمية زيادة كبيرة إذ أخذ الخلفاء يغدقون الإنعامات على أتباعهم من المغاربة الذين قدموا معهم إلى مصر ، ويعطون الهبات لأشياعهم الآخرين وكان الدافع إلى ذلك هو مكافأة الأتباع والأشياع وضمان استمرار ولائهم وإخلاصهم للدولة الفاطمية.

تنوعت الإقطاعات في مصر الفاطمية ويبدو أنها كانت على ثلاثة أنواع : إقطاع الاستغلال المؤقت ، وإقطاع التملك الدائم ، وإقطاع الارتفاع

البديل للرواتب التي يتقاضاها كبار الموظفين فيمنحون الإقطاعات بدلا من الرواتب الشهرية.

وقد وجد إقطاع الارتفاع الذي كان بديلا للرواتب منذ بداية العصر الفاطمي ، ولدينا مثال على ذلك في الإقطاع الذي أقطعه العزيز بالله لوزيره يعقوب بن كلس والذي كان دخله منه يتزايد تدريجيا. ومنح الحاكم بأمر الله الإقطاعات الإدارية - إن صح التعبير - للموظفين بدلا من الرواتب مثلما منح القاضي ابن أبي العوام إقطاعا بناحية تلبانة عدي وقام بمضاعفة إقطاعات القاضي حسين بن علي بن النعمان بن حيون. وعلى أي حال كان الإقطاع الإداري في مصر الفاطمية يتميز بأنه كان يمنح للموظفين الإداريين نظير خدماتهم الوظيفية أو مكافآت لهم على الإجادة وكان من نوع الاستغلال لا التملك ، يمكن للدولة استرجاعه إذا انتهى الغرض منه بالعزل أو الوفاة.

أما الإقطاع العسكري فقد تزايد في مصر بعد الشدة العظمى واستمالة المستنصر ببدر الجمالي مما أدى إلى استبداد الوزراء أرباب السيوف في الدولة الفاطمية ، ومن الملاحظ أن الإقطاع العسكري كان يتزايد كلما ضعفت الخلافة الفاطمية واقتربت من نهايتها. ولقد كان يشرف على الإقطاع في العصر الفاطمي ديوان خاص يعد من مفردات النظام المالي في مصر الفاطمية.

أما عن المزروعات في مصر الفاطمية فقد كانت المحاصيل الشتوية تزرع بعد انقضاء الفيضان وانحسار المياه عن الأراضي المغمورة (البياض) وتبدأ الزراعة الشتوية في شهر كيهك (ديسمبر) ومن أهمها : القمح والشعير والبرسيم والكتان أما المحاصيل الصيفية التي تزرع

في الأراضي التي تروى صناعيا فكان من أهمها قصب السكر والأرز والسمسم والفواكه والنيلة التي استخدمت في الصباغة والقطن. وقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر في العصر الفاطمي زمن المستنصر بالله أنه شاهد في مصر أناسا يتجرزون في الأشجار وأن المصريين كانوا يقيمون تكعيبات من النباتات المتسلقة على أسطح بيوتهم حتى تصير كأنها حدائق ويذكر أنه لم يشاهد مثل ذلك في مكان آخر غير مصر.

(٢) الصناعة :

ازدهرت الصناعة في مصر منذ القدم ، فعرفت صناعة البناء والورق والنسيج والزجاج والصناعات الخشبية والجلدية والحلي وغيرها ، فلما فتح العرب المسلمون مصر وجدوا فيها صناعة مصرية راقية فبدأت المصنوعات المصرية تأخذ طابعا إسلاميا يتسم بسمات خاصة جعلنا نتعرف عليه على الفور بأنه صناعة مصرية إسلامية ، ودخلت الصناعة المصرية الإسلامية في طور جديد منذ العصر الطولوني الذي حظيت فيه مصر باستقلال ذاتي وأصبحت أكثر مواردها تنفق فيها فازدادت المحصول وأقبل الأهالي والحكام على اقتناء المصنوعات المختلفة فكان على الصناع أن يجودوا فيها ويرتقوا بها ، ولذلك ازدهرت الصناعة المصرية ازدهارا ملحوظا ونشطت الصناعات القائمة كالنسيج والزجاج وغيرها مما سبق ذكره ، وأدخلت صناعات أخرى جديدة.

كانت صناعة النسيج أهم الصناعات المصرية على الإطلاق ، وكانت لها شهرة عالمية لا تبارى ، وكانت أهم مراكزها في تنيس

والإسكندرية ودمياط وتميرة وشطا ودبيق التي تنتسب إليها الثياب الدبيقية والبهنسا وأخميم وغيرها واستخدمت في صناعة المنسوجات المصرية خامات الكتان والصوف والحرير والقطن ، وبلغت درجة عالية من الدقة والذوق الرفيع ، وكانت دور الطراز موجودة في مصر منذ عصر الدولة المستقلة ، تنتج الملابس الرسمية عليها شعار الأمير ، وفي العصر الفاطمي كانت تطرز عليها شعار الخليفة الفاطمي ، وكانت الأنوال المنزلية ظاهرة منتشرة في الدور والمنازل لكنها كانت تخضع للإشراف الحكومي حتى تحافظ على جودة الإنتاج.

وقد ازدهرت صناعة النسيج في العصر الفاطمي وأصبحت القاهرة – حاضرة الفاطميين – من أهم مراكز الصناعات النسيجية ، ودأبت مصر منذ العصر الفاطمي على نسج كسوة الكعبة المشرفة التي كان الفاطميون يحرصون على العناية بها وإرسالها سنويا كرمز للسيادة على الحرمين الشريفين من جهة ودليلا على السبق في العالم الإسلامي من جهة أخرى ولدينا وصف للكسوة التي أمر المعز لدين الله الفاطمي بصنعها للكعبة المشرفة ، فكانت مربعة الشكل مصنوعة من ديباج أحمر ، سعتها مائة وأربعون شبرا ، وفي حافاتها إثنا عشر هلالا ذهبيا ، في كل هلال أترجة ذهبية ، بداخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر وكانت مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، ونقشت في حافاتها الآيات القرآنية التي تتناول الحج بحروف من الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة ، وعطرت هذه الكسوة بمسحوق المسك [١].

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ .

ونشطت في مصر صناعة السفن ، وكانت دار الصناعة في عصر الولاة في مدينة الإسكندرية وكان لها دور كبير في بناء الأسطول الإسلامي المصري والشامي الذي انتصر على الأسطول البيزنطي في موقعة ذات الصواري البحرية ، وكان للقبط المصريين مهارة رائعة في صناعة السفن حتى أنهم كانوا أساتذة هذا الفن في العالم الإسلامي ، وكانت توجد إلى جانب ترسانة الإسكندرية دار للصناعة في جزيرة الروضة لبناء السفن النيلية ، وقد زاد نشاط هذه الترسانة في العصر الطولوني لما كان من اهتمام أحمد بن طولون ببناء أسطول كبير يكون يده الطويلة في مشروعاته التوسعية ، ثم أقام محمد بن طغج الإخشيد دارا أخرى للصناعة على ساحل الفسطاط سميت بدار الصناعة الكبرى ، بنيت فيها مئات من السفن الكبيرة والصغيرة.

واهتم الفاطميون بصناعة السفن في مصر إهتماما شديدا لرغبتهم في بناء أسطول قوي يمكنه التصدي للأساطيل البيزنطية ، لذلك أقام الخليفة المعز لدين الله الفاطمي دارا للصناعة بالمقس بنى فيها ٦٠٠ مركب من مختلف الأنواع ، كما كانت دور الصناعة في جزيرة الروضة والإسكندرية ودمياط تعمل بنشاط كبير ، وكانت السفن تصنع من بعض الأخشاب المصرية مثل اللبخ وخشب السنط الذي اشتهرت به البهنسا لكن الأخشاب المصرية عموما كانت قليلة الجودة ، فلم يكتف الفاطميون بها وإنما جلبوا الأخشاب اللازمة لبناء السفن من الشام ومن الأناضول بل كانوا يستوردون الأخشاب أيضا من أوروبا بواسطة تجار البندقية وقد احتج على تلك

الإمبراطور البيزنطي لدى الدوج أمير البندقية فأمر بعدم بيع الأخشاب الصالحة للسفن إلى مصر [١].

وازدهرت في مصر الإسلامية صناعة البناء وفنون العمارة منذ القدم ومع أن العرب المسلمين كانوا حين فتحهم لمصر ينزعون إلى البساطة في المعيشة التي انعكست على أبنيتهم التي تميزت في البداية بالبساطة ، إلا أنهم ما لبثوا أن أقبلوا على نعم الحياة وترفها فاهتموا بالعمائر وفنون العمارة ، وتركوا لنا في مساجدهم ودورهم نماذج معمارية راقية ، وتقدمت المدن التي اختطوها واكتظت بالحمامات والدور العالية والقصور ، ولا أدل على ذلك من خطط الفسطاط والقطائع و القاهرة التي اختلطت فيها الأساليب المعمارية المختلفة متأثرة بالعقلية الإسلامية التي كان لها اشتراطاتها في العمارة والفنون. ويعتقد بعض الباحثين أن العمارة الإسلامية أخذت بعض العناصر المعمارية من الأساليب المعمارية القبطية ، فمحراب الجامع مأخوذ عن الحنية التي توجد في صدر الكنيسة إلى جهة الشرق والمآذن مأخوذة عن أبراج الكنائس ، واهتم الفنان المسلم السني بالرسوم الزخرفية الهندسية والنباتية ، إذ مال فقهاء أهل السنة إلى كراهية رسوم الكائنات الحية آدمية كانت أو حيوانية لكن فقهاء الشيعة لا يحفلون بذلك كثيرا ومن ثم ظهرت على الصناعات والفنون الفاطمية رسوم آدمية وحيوانية كثيرة [٢].

وازدهرت صناعة البناء في العصرين الطولوني والإخشيدي ، وظهر اتصال المعماريين المصريين بالأساليب المعمارية المعاصرة في بقية

---

(١) سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ١٧٠ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ٥٨٢ .

أرجاء العالم الإسلامي ، مثلما ظهر التأثر بالأسلوب العراقي والفارسي في عمائر القطائع خصوصا جامع ابن طولون الذي بنيت مئذنته على غرار مئذنة جامع سامراء. وبنى الطولونيون والإخشيديون القصور الفاخرة وتفننوا في تزيينها ، وقد ارتقت فنون العمارة في العصر الفاطمي على النحو الذي يظهر في عمائر القاهرة ومساجدها كالجامع الأزهر وجامع الحاكم بأمر الله وغير ذلك من المباني التي تدل على ما وصل إليه فن العمارة من رقي في ذلك العصر.

وارتبطت صناعة الحفر على الخشب بفنون العمارة المختلفة ، وقد مهر فيها المصريون منذ قديم تاريخهم على الرغم من قلة الأخشاب في مصر وعدم صلاحية الأنواع المصرية إلا لأعمال النجارة البسيطة فجميعها يفتقر إلى الصلابة وقابلية التشكيل مثل شجر الجميز والسنط وغيرها ، لذلك كان المصريون يستوردون الخشب من الخارج كأخشاب الأرز والصنوبر والأبنوس ، وكانت صناعة الحفر على الخشب قد قطعت شوطا بعيدا في مصر قبل أن يفتحها المسلمون ، فلما فتح المسلمون مصر تأثرت الأساليب الموجودة بالعقلية الوافدة لتخرج لنا أساليب فنية إسلامية متميزة أخذت ترتقي بمضي الزمن فتميز العصر الطولوني والإخشيدي بأساليب فنية أخذت في التطور حتى بلغت قمة تطورها في العصر الفاطمي ، وتجلى ذلك في التحف الخشبية التي ترجع إلى العصر الفاطمي والتي ازدانت بالرسوم النباتية والحيوانية والطيور ، ومما يشهد بتفوق صناعة الحفر على الخشب في تلك العصر الألواح الخشبيه التي عثر عليها بمارستان قلاوون الذي قام على أنقاض القصر الغربي الفاطمي ، هذه الألواح الخشبية غنية بزخارف فريدة

في صنعتها. ومن أهم التحف الخشبية التي ترجع إلى العصر الفاطمي منبر الحرم الخليلي بفلسطين الذي توجد عليه كتابات كوفية جميلة الخط وزخارف هندسية ونباتية بديعة ، لكن أروع التحف الخشبية التي ترجع إلى العصر الفاطمي المحاريب الثلاثة المحفوظة بمتحف الآثار الإسلامية ، وكان أقدمها بالجامع الأزهر والثاني بجامع السيدة نفيسة والثالث بجامع السيدة رقية [1].

واشتهرت مصر بصناعة الورق شهرة فائقة ، وكانت مصر تحتكر صناعة ورق البردي في العالم كله وظلت كذلك حتى نقل المسلمون صناعة الكاغد عن الصينيين في القرن الرابع الهجري فحلت الكواغد محل أوراق البردي حتى قيل إن كواغد سمرقند عطلت قراطيس مصر ولكن مصر لم تخرج من ميدان صناعة الورق بل طورت نفسها وأسهمت في صناعة الكاغد ، وكانت الفسطاط من أشهر مراكز صناعة الورق في مصر ، يصنع فيها واحد من أجود أنواع الورق يعرف بالورق المنصوري. ولم يكن الورق متوحد السعر ، بل كانت أسعاره متفاوتة بحسب جودته والمادة المستعمله في صناعته ، وقد راجت صناعة الورق والتجليد في مصر الفاطمية لاهتمام الفاطميين بالحركة العلمية والأدبية وانشائهم لدار الحكمة التي حملت إليها الكتب ، وكانت بمثابة مكتبة عامة سمح للناس بدخولها للقراءة والنسخ.وانتشرت الوراقة في مصر ، وكان الوراقون يعملون في تجارة الورق والأدوات الكتابية وفي الكتب والنسخ والتجليد.

ومن الصناعات التي راجت في مصر الإسلامية صناعة الخزف والزجاج والمعادن ، فقد كانت هذه الصناعات مزدهرة في مصر حين قدم

---

(١) حسن إبراهيم حسن : المصدر السابق ، ص ٥٨٢.

المسلمون لفتحها ، واحتفظت مصر بتفوقها في هذه الصناعات في عصر الولاة فقد دلت التحف الخزفية التي ترجع إلى عصر الولاة على أن طلاء الخزف بالدهان كان متقنا حينذاك وأن الخزف ذو البريق المعدني كان معروفا في مصر في [عصر] الولاة ، وكانت صناعة الزجاج من الصناعات التي ورثتها مصر الإسلامية عن مصر قبل الإسلام ، وأصبحت مدينة الفسطاط من أكبر مراكز صناعة الزجاج في مصر الإسلامية ، واشتهرت بهذه الصناعة مدن الفيوم والأشمونين والإسكندرية وغيرها ، وتقدمت هذه الصناعة في مصر حتى بلغت أوجها في العصر الفاطمي بسبب إقبال الفاطميين على اقتناء التحف الزجاجية والبلورية كالأقداح والقناديل وغيرها ، وقد ذكر المقريزي في خططه أن بعض هذه التحف الزجاجية قد بيعت بأثمان عالية جدا فقد بيع قدح من البلور المجرود كان في خزائن المستنصر بالله الفاطمي [بمائتين] وعشرين دينارا ، وارتقت في مصر الإسلامية صناعة الخزف ذي البريق المعدني والبلاطات الخزفية التي تعرف بالقيشاني ، وقد رأى الرحالة الفارسي ناصر خسرو في أسواق الفسطاط ما ليس له مثيل من الأقداح والصحاف الرقيقة التي بلغت من الدقة أن رأى من خارجها يده الموضوعة داخلها.

ونشطت في مصر الإسلامية كثير من الصناعات الغذائية كصناعة السكر التي قامت أساسا على قصب السكر الذي كان من أهم المحاصلات الزراعية في مصر الإسلامية ، وانتشرت مطابخ السكر في البلاد في الفسطاط والمنيا والفيوم وترنوط وأسيوط وقفط ، فضلا عن مصانع العسل التي انتشرت انتشارا كبيرا ، وكانت الزيوت صناعة هامة جدا في مصر

الإسلامية لحاجة المصريين للزيوت في طعامهم ووقودهم ، لذلك كانت عناية المصريين بزراعة النباتات الزيتية كبيرة ، فزرعوا الزيتون في الفيوم والأسكندرية ، وزرعوا السمسم في كافة أنحاء البلاد وكان زيت الزيتون أجود أنواع الزيوت يليه زيت السيرج المستخرج من السمسم ، وكانوا يستخرجون زيوت القناديل من الفجل والبنجر واللفت وكانت أهم معاصر الزيوت في صندفا بكورة البهنسا وفي الفيوم والفسطاط .

تلك كانت أهم الصناعات في مصر الإسلامية إلا أنه كانت توجد صناعات أخرى لا يتسع المجال لذكرها ، وجدير بالذكر أن الصناعة المصرية قد دخلت في نهضة كبيرة منذ الاستقلال الطولوني ووصلت أقصى رقيها في العصر الفاطمي ذلك أن رخاء البلاد وإقبال الموسرين على إنشاء الدور الفاخرة واقتناء المصنوعات الدقيقة جعل الصناع يقبلون على تجويد صناعاتهم ، وفضلا عن ذلك فقد لنشاط الحركة التجارية أثره في رقي المصنوعات المصرية إذ دخل الصناع المصريون مجال المنافسة العالمية وكان عليهم أن يجودوا في صناعاتهم ليحرزوا قصب السبق ، ولقد كانت مصر – على حد قول الجغرافيين المسلمين – فرضة الدنيا وتشعبت منها طرق التجارة البحرية والبرية إلى الصين شرقا وبيزنطة شمالا وإلى غرب أوروبا غربا والنوبة والحبشة جنوبا مما جعل أسواقها تمتلىء بكافة البضائع من مختلف الجهات ، فكان على الصناع المصريين أن يواجهوا منافسة شديدة وأن يظهروا فيها كفاءتهم وتفوقهم ولقد كان لهم ذلك في أحيان كثيرة حتى كانت شهرة المصنوعات المصرية تطبق الآفاق.

(٣) التجارة :

لعبت مصر بحكم موقعها الجغرافي وإمكانياتها البشرية والاقتصادية دورا كبيرا في التجارة العالمية منذ العصور القديمة ، ولم يقلل الفتح العربي الإسلامي من أهمية مصر التجارية بل زاد فيها ، فقد تزايد النشاط التجاري لمصر بعد فتح العرب المسلمين لها بسبب ظروفها وإمكانياتها الخاصة من جهة وللتسهيلات التي أتيحت لتجارتها في أمصار الدولة الإسلامية من جهة أخرى ، فضلا عن اهتمام العرب بالتجارة على وجه الخصوص لعنايتهم بها قبل الإسلام وتشريف الرسول ﷺ لها باشتغاله بها قبل البعثة النبوية ، واشتغال كثير من الصحابة بها في الإسلام بالإضافة إلى تقنين القرآن والسنة لبعض شئونها.

والواقع أنه كان من الطبيعي أن تزدهر التجارة في مصر الإسلامية وذلك لتوفر عدة عوامل منها : الموقع الجغرافي ، الذي جعل مصر مهيمنة على أهم الطرق البحرية في العالم حينذاك وهو طريق البحر الأحمر ـ البحر المتوسط والذي كان يتحكم في التجارة بين الشرق والغرب فشهدت مصر تجارة زاهرة للترانزيت لعبت فيها موانيها على البحرين الأحمر والمتوسط دورا بارزا ، لذلك لم يكن بغريب أن يعتبرها الجغرافيون المسلمون (فرضة الدنيا).

وكان من عوامل ازدهار التجارة في مصر الإسلامية إنتعاش الزراعة والصناعة على النحو الذي أمد التجار بكثير من البضائع للتجارة فيها في الأسواق المحلية من جانب ويحملونها إلى الآفاق ليغزون بها الأسواق العالمية من جانب آخر . وكان اكتظاظ مصر بالسكان عاملا من

العوامل الهامة في رواج التجارة خصوصا بعد تحسن أحوالهم المعيشية في عصور الطولونيين والإخشيديين والفاطميين فارتفعت قدراتهم الشرائية واتسعت الأسواق لتصريف المنتجات المحلية والوافدة.

وكان من عوامل ازدهار التجارة في مصر الإسلامية تلك السياسة التجارية التي كانت تسير عليها الحكومة الإسلامية والتي تقوم على حرية العمل وحرية المرور إلى حد كبير ، فلم تكن المكوس التي تفرضها الدولة على التجارة باهظة بل كانت قليلة بالنسبة للأرباح التي كان يجنيها التجار من تجاراتهم ، ونادرا ما كانت الدولة تلجأ إلى الاحتكار بل كانت تقدم التسهيلات للتجار وتقيم لهم الفنادق والقيساريات وأحيانا كانت تلغي المكوس إذا كانت البضائع ضرورية يخشى من اختفائها أن تحدث أزمات اقتصادية.

وكانت المراكز التجارية في مصر الإسلامية عديدة تتبوأ مكانتها تبعا لموقعها وعدد سكانها ، وكانت هذه المراكز نوعين : أولها المراكز الساحلية التي يقع بعضها على ساحل البحر المتوسط كالإسكندرية ودمياط والفرما وبعضها الآخر على ساحل البحر الأحمر كالقلزم وعيذاب ، وثانيها المراكز التجارية الداخلية كالفسطاط التي كانت حاضرة مصر التجارية في العصر الفاطمي والمحلة الكبرى وقوص وأسوان وغيرها.

وكان أيضا من عوامل ازدهار التجارة في العصر الفاطمي عناية الفاطميين بطرق المواصلات وتأمينها ، وكان النيل دوما أهم طرق المواصلات في مصر الإسلامية ولذلك كانت الفسطاط أهم الموانئ التجارية وكانت بها سواحل أو مراسي عديدة يختص كل منها بسلعة معينة ، فهناك ساحل القمح وساحل السنط وغيرها ، وبلغ من كثرة السفن بالفسطاط أن قيل

رحل من أهلها للجغرافي المقدسي " إن على هذا الساحل وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت إلى بلدك – بيت المقدس – لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها " (١) .

واعتنى الفاطميون بطرق المواصلات البرية التي تسلكها القوافل التجارية ، فهناك طريق للقوافل بين مصر وبلاد المغرب وآخر بين مصر وبلاد الشام والعراق ، وكانت القوافل تسلك درب الأربعين إلى بلاد السودان وقد فكر أولو الأمر في الدولة الإسلامية في توصيل البحرين الأحمر بالمتوسط على النحو الذي تحقق في العصر الحديث ، إلا أنهم اكتفوا بإعادة حفر القناة النيلية التي كانت تصل ما بين نهر النيل والبحر الأحمر ، وكانت أولية تلك القناة ترجع إلى العصر الفرعوني لكنها انطمرت وتجدد حفرها أكثر من مرة وكان آخر تجديد لحفرها قبل الإسلام في عهد الإمبراطور الروماني تراجان فعرفت باسم قناة تراجان ثم انطمرت في العصر البيزنطي مرة أخرى حتى جدد حفرها عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب وأسماها خليج أمير المؤمنين لتحمل فيها المؤن والميرة إلى بلاد الحجاز إبان الأزمة الاقتصادية التي عرفت باسم عام الرمادة وتستغرق رحلة المراكب النيلية في خليج أمير المؤمنين من الفسطاط إلى القلزم نحو خمسة أيام ثم تنقل البضائع إلى السفن البحرية الكبار الملائمة لطبيعة الملاحة في البحر الأحمر وقد أسهمت هذه القناة في تنشيط حركة الملاحة والتجارة البحرية نشاطا كبيرا. ويمكن تقسيم التجارة في مصر الإسلامية إلى ثلاثة أنواع هي :

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٩٨ .

(أ) التجارة العالمية : يقصد بالتجارة العالمية تجارة العبور (الترانزيت) بين الشرق والغرب ، وكانت هذه التجارة تحمل في السفن عبر البحر الأحمر لتحط عند القلزم ثم تحملها القوافل إلى الفرما على البحر المتوسط ثم تحملها السفن مرة أخرى في البحر المتوسط إلى الغرب وكان طريق البحر الأحمر ومصر أهم طرق الترانزيت قاطبة في العصور الوسطى وقد نافسه طريق آخر يمر ببلاد الشام والعراق إلى ساحل الخليج العربي لكن ظروف كل من الدولة العباسية والدولة الفاطمية أدت إلى اضمحلال الطريق الآخر وازدياد الاهتمام بطريق مصر والبحر الأحمر ، وقد كان يقوم على هذه التجارة العالمية قبل العصر الفاطمي تجار من اليهود يدعوهم ابن خرداذبة باسم التجار اليهود الراذانية أو الرهدانية وكانوا يتكلمون عدة لغات كالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية وظلوا يهيمنون وحدهم على هذه التجارة العالمية حتى القرن الثالث الهجري فبدأ العرب بعد أن أصبحت لهم خبرة بالتجارة البحرية يشاركون في تلك التجارة العالمية ، وإن ظلت السيادة فيها لليهود الراذانية ، لكن العصر الفاطمي شهد تغييرات في تلك التجارة العالمية فاختفى التجار الراذانية وحل محلهم تجار آخرون : الكارمية في البحر الأحمر وتجار المدن الإيطالية البحرية كالبندقية وجنوه في البحر المتوسط.

الكارمية : أطلق اسم التجارة الكارمية على جزء من التجارة العالمية هي تجارة الشرق عبر البحر الأحمر ، وقد اختلف الباحثون في اسم الكارم[١]

---

(١) انظر [illegible] : بداية الكارم ومعناه في العصر الفاطمي ، المؤرخ المصري عدد ١٣ (يوليه ١٩٩٤) ص ص ٨٦ - ١٢٣ .

فمنهم من قال أنه مأخوذ عن الكانم وهي منطقة من السودان الغربي تقع بين بحر الغزال وتشاد ثم تحرف الاسم إلى كارم ، ومنهم من يرى أن اسم الكارم مأخوذ من كلمة كوارريما **Kaurarima** الأمهرية ، بمعنى الحبهان الـذي كان ذبلاً من التوابل التي تاجر فيها الكارمية ثم تصحفت الكلمة إلى كـارم ومنهم من يرى أن الكلمة مأخوذة من كاريام وهي كلمة فـي لغـة التاميل بجنوب الهند بمعنى الأعمال أو الأشغال أما الشاطر بصبلي – وهو سـوداني - فقد فسر كلمة كارم بأنها مكونة من مقطعين كار بمعنى حرفة ويم بمعنـى المحيط أو البحر أو النهر الكبير ثم سقط حرف الياء من كـاريم فـأصبحت كارم بمعنى - على حد قوله - حرفة التجارة في البحار لكنه كان ينبغـي أن يستقي الدلالة اللفظية الصحيحة للمقطعين والتي هي " كار البحر " وهو معنى يدل على المشتغلين بالملاحة من نواتية وربابنة أكثر مما يدل على التجـار الذين يركبون البحر. لكننا وجدنا أن كلمة كار تعني في اللغة العربية سـفن منحدرة - أي قادمة من جنوب مصر (مصر العليا) إلى شمالها (مصـر السفلى) وكلمة اليم تعني البحر أو النهر الكبير ولكن ابن منظور خص نـهر النيل باسم اليم من دون سائر الأنهار وعلى ذلك فسرنا كلمة كارم بأنها تعني السفن التي تسير في النيل أو البحر الأحمر من الجنوب إلى الشـمال أي أن اسم الكارم كان اسما مصريا محليا أطلق على نوع من السفن النيلية والسـفن القادمة في البحر الأحمر ثم اتسع مدلوله ليطلق على التجارة المحمولة علـى تلك السفن بجانب السفن والعاملين عليها من بحارة وربابنة ونواتية.

وقد بدأ الكارم في مصر في العصر الفاطمي كنشاط محلي ثم أصبـح بعد ذلك يطلق على جزء من التجارة العالمية هي التجارة الشرقية عبر البحر

الأحمر كما سبق أن ذكرنا. ولقد حل التجار الكارمية محل التجار الراذانية في الجزء الخاص بالبحر الأحمر بينما اختص التجار الإيطاليون بالجزء الخاص بالبحر المتوسط واختفى التجار الراذانية من التجارة العالمية منذ أواخر القرن الرابع الهجري ساعد على ذلك أن الخطر الصليبي الذي قبع في بلاد الشام منذ القرن الخامس الهجري جعل التجارة الشرقية تغير مجراها بعض الشيء فبدلا من أن تبحر المراكب من عدن إلى القلزم غيرت مسارها فأصبح من عدن إلى عيذاب في جنوب مصر ثم تحمل الإبل البضائع إلى أحد المدن المصرية الجنوبية على النيل خاصة قوص لتحملها المراكب من قوص وتنحدر شمالا إلى الإسكندرية لتحملها سفن التجار الإيطاليين إلى الغرب الأوروبي.

لم يكن العاملون في التجارة الكارمية من المصريين وحدهم ولم تقتصر على المصريين دون غيرهم وإنما كان التجار الكارمية من المسلمين وغير المسلمين من أهل الذمة ولكنهم كانوا جميعاً من رعايا الدولة الإسلامية ولم تكن التجارة الكارمية خاصة بالكماليات وحدها وإنما كانت فيها أيضا سلعا ضرورية كالغلال ولذلك كان تأخر الكارم - على حد قول ابن أيبك الداودار ي - في الوصول عن موعده من العوامل التي تؤدي إلى تفاقم الأزمات الاقتصادية ، ومع ذلك فقد كانت التوابل أهم السلع التي يتاجر فيها الكارمية وكانت هذه التجارة تدر أرباحا طائلة حتى كان التجار الكارمية من أثرياء المجتمع المصري وأسهم كثير منهم بسخاء في الأنشطة الاجتماعية المختلفة . إذا كان التجار الكارمية - كما رأينا - هم المختصون بالشق الجنوبي من التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر فقد كان التجار الأجانب من

الإيطاليين وغيرهم يقومون بالشق الآخر من هذه التجارة عبر البحر المتوسط فقد كان للمدن البحرية التجارية الإيطالية نشاطها التجاري مع المراكز الإسلامية على الشواطيء الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط فكانوا يصلون إلى الإسكندرية ودمياط وتنيس وربما يتوغلون إلى الفسطاط.

كان الملفطانيون – أي أهل مدينة أمالفي – من أسبق الإيطاليين اتصالا بالعالم الإسلامي خاصة مع مصر الفاطمية وذكر كل من المسبحي ويحي بن سعيد الأنطاكي أن الملفطانيين أو الأمالفيين كانوا يقيمون مع بضائعهم في الفسطاط في دار مانك بحي الرفانين، وتلا أهل أمالفي أهل المدن الإيطالية الأخرى مثل جنوة والبندقية، ولم تؤثر الحروب الصليبية بالسلب على نشاط هؤلاء التجار الإيطاليين بل إنها فتحت أمامهم أبوابا أوسع للتجارة مع الشرق الإسلامي.

(ب) التجارة الخارجية : النوع الثاني من التجارة في مصر الفاطمية كان هو التجارة الخارجية ونعني بها التجارة بين مصر وغيرها من البلدان، وإذا كانت هذه التجارة – أو جزء منها – متداخلة مع التجارة العالمية بين الشرق والغرب فإن تجارة مصر الخارجية كانت تختص بالبضائع التي ترد إلى مصر أو تخرج منها إذ كانت لمصر علاقاتها التجارية مع بلاد الشام والحجاز والنوبة وبلاد المغرب ومع الغرب الأوروبي وكانت مراكز هذه التجارة الفسطاط والموانيء المصرية على البحرين الأحمر والمتوسط، وكانت مصر تصدر إلى بلدان العالم المنسوجات المصرية الشهيرة والبردي والكتان والزيوت والنطرون والقمح، وكانت تستورد فاكهة الشام وفضة كرمان وقطن خراسان وسجاد إيران فضلا عن

الأخشاب والجلود والفراء والسيوف والمعادن والجواهر والعطور ، وكانت الدولة تفرض على كل من التجارة العالمية والتجارة الخارجية مكوساً تجبى في الثغور المصرية المختصة وكانت تدر على الدولة الفاطمية دخلاً وفيراً.

(جـ) **التجارة الداخلية** : أما النوع الثالث من التجارة في مصر الفاطمية فهي التجارة الداخلية ومقرها الأسواق المحلية خاصة في المدن الكبرى كالفسطاط والإسكندرية وغيرها. والواقع أن السوق كان مؤسسة هامة من مؤسسات المدينة الإسلامية ويمثل الرئة الاقتصادية للمدينة الإسلامية ويقع في القلب منها بجوار الجامع ودار الإمارة.

وكانت الدولة تشرف على الأسواق وتضبط إيقاع الحركة التجارية لتمنع الغش والاحتكار والتلاعب بالأسعار وافتعال الأزمات الاقتصادية ، وكان يقوم بهذه المهمة المحتسب وأعوانه وقد انتعشت التجارة الداخلية في مصر الإسلامية تبعاً لازدهار الأحوال الاقتصادية منذ العصر الطولوني بسبب احتفاظ مصر بمواردها لنفسها وقلة ما يخرج منها من جباية بعد الاستقلال وارتفاع الأحوال المعيشية للأهالي بعد الرخاء وما قامت به الدولة من جهود لتمهيد السبل وتأمين الطرق ، وبلغت التجارة الداخلية أقصى ازدهارها في العصر الفاطمي بسبب ما توافر لها من عوامل الازدهار في ذلك العصر.

وكانت الحركة التجارية في الأسواق وفقاً لقانون العرض والطلب وحرية التجارة لا تتدخل الدولة إلا في حالات الضرورة القصوى لتجنب حدوث أزمات لكنها كانت تستخدم سياسة الوعد والوعيد أي تحث التجار على جلب السلع الضرورية اللازمة لتفادي الأزمة وتشجعهم على ذلك

بالإعفاء من المكوس وما إلى ذلك ، ولكنها في نفس الوقت تضرب على أيدي المتلاعبين من التجار ويقوم المحتسب بتوجيههم وتعزيرهم إذا لزم الأمر . وكانت تستخدم في الأسواق المكاييل والموازين التي يراقب المحتسب عيارها ويضبطه وفقاً للمعايير الصحيحة ، وكانت المكاييل تقدر بالأردب والويبة والمد وما إلى ذلك بينما تقدر الموازين بالقنطار والرطل والأوقية والدرهم.

وكانت المعاملات التجارية في مصر الفاطمية تتم بواسطة النقود ، وقلت المعاملات البدائية عن طريق المقايضة إلى حد بعيد والنقود الفاطمية كانت لها شهرة عالمية طيبة خاصة الدينار المعزي الذي كان جيد الوزن والعيار نظراً لما كان لدى الفاطميين من احتياطي ذهبي كبير ولاستمرار حصولهم على موارد ذهبية من بلاد السودان حتى بعد انتقالهم إلى مصر وقد أنفق جوهر الصقلي في مصر بعد استيلائه عليها أحمالاً من الدنانير الفاطمية أما المعز فقد حمل إلى مصر حين انتقاله إليها مئات من الجمال المحملة بالذهب وفي رأي أشتور [١] أنه ليس هناك أي سبب للشك في صحة أقوال الكتاب عن كميات الذهب الكبيرة التي جلبها الفاطميون إلى مصر ، ونظراً لسيطرة الفاطميين الأوائل على كل الطرق التجارية إلى مصادر الذهب في بلاد السودان فيمكن أن يصدق القول بأن المعز حمل معه إلى مصر ٥٠٠ جمل محملة بالذهب والثروات الأخرى ، ولذلك تمكن الفاطميون في مصر من سك دنانير بلغت درجة نقاوتها ١٠٠ % تقريباً لكن الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر – وبعضها كان أزمات نقدية – أدت إلى انخفاض

---

(١) أشتور : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

قيمة العملة الذهبية الفاطمية حتى استعادت نفاوتها مرة أخرى في خلافة الأمر بأحكام الله وكان تدوال الدنانير الفاطمية يتم عددا بلا وزن لثقة المتداولين فيها وإن أشارت وثائق الجنيزة إلى بعض حالات التداول بالوزن ربما لأن المتداولين كانوا من اليهود بطبعهم المعروف.

كان النظام النقدي في مصر الفاطمية - كغيرها من البلدان الإسلامية ثنائي المعدن يقدر فيه الدينار الذهبي بعدد من الدراهم الفضية تزيد أو تقل تبعا لجودة كل من الدينار ونفاوته وعياره أي ارتفاع نسبة الذهب فيه وجودة الدراهم ونقاوتها وعيارها أي نسبة الفضة فيها [١].

وكانت النقود تضرب أو تسك فيما يعرف بدور الضرب وكانت دور الضرب في مصر الفاطمية في كل من الفسطاط والإسكندرية ، ويبين على السكة مكان الضرب وتاريخه واسم الخليفة الذي ضربت في عهده ، وتنقش عليها عبارات توضح هوية الدولة ومذهبها . ولذلك كان للسكة وظيفة سياسية. وجملة القول إن النشاط الاقتصادي في مصر الفاطمية كان مزدهرا وقد أدى الازدهار الاقتصادي إلى تطور النظام المالي.

(٤) النظام المالي :

اهتم الفاطميون اهتماما شديدا بالشئون المالية في مصر بعد استيلائهم عليها وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى الحصول على موارد مالية وفيرة تعينهم على النفقات الواسعة التي ينفقونها ، والواقع أن الموارد المالية التي كان الفاطميون يحصلون عليها كان بعضها [illegible] كالخراج والجزية وما يفرض [illegible] التجار الأجانب من خارج دار الإسلام والزكاة والأخماس

[١] انظر [illegible] عن ذلك في كتابنا عن الأزمات الاقتصادية

وكان بعضها الآخر غير شرعي كالمكوس والرسوم التي لم يكن لها سند شرعي في نظر الفقهاء.

كانت الموارد الشرعية التي يحصل عليها الفاطميون تنقسم – كما أوضحها أبو الحسن علي المخزومي في كتابه " المنهاج في علم خراج مصر " – إلى ثلاثة أقسام رئيسية : المال الخراجي ، والمال الهلالي ، ومال عام مفرد يخالف شهور الهلالي والخراجي ، وواضح أن هذا التقسيم كان مستندا إلى وقت الأداء والتحصيل.

كان المال الخراجي مسانهة نوعين : خراجي الزراعي وأول عامه توت وآخره مسرى ، وخراجي البساتين وما شاكلها مما يروى بالسواقي وما يجري مجراها وأول عامه أمشير وآخره طوبة ، والمال الهلالي مشاهرة وهو أربعة أنواع : الجوالي والزكاة والرباع والعشور أما المال العام المفرد فهو ثلاثة أنواع : المراكب النيلية وأبقار الخيس وأبقار الجاموس.

يأتي الخراج على رأس الموارد المالية للدولة في مصر باعتبارها بلد زراعي بالدرجة الأولى ، والخراج في الاصطلاح ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها وهو مقدر بالاجتهاد ، وكان الخراج في مصر يتأثر بعدة عوامل منها جودة الأرض وخصوبتها ، وأنواع المحاصيل وكميتها لكن أهم العوامل قاطبة في تقدير الخراج هو ماء الفيضان ، يزيد إذا أوفى ويقل كلما نقص ولذلك اهتمت الدولة بمقاييس النيل اهتماما كبيرا وكان حد الوفاء الإعتباري في العصر الفاطمي ١٦ ذراعا لكنه كان فعليا أكثر من ذلك [١] وكان نوع المحاصيل مؤثرا في تقدير الخراج زيادة أو نقصا بل كان

---

(١) انظر كتابنا في الأزمات الاقتصادية.

خراج بعضها يؤدى عينا كالحبوب والبقول أما الأشجار المثمرة والغلات
الصناعية كالقطن والكتان فيؤدى الخراج عنها نقدا [١].

خراج بعضها يؤدى عينا كالحبوب والبقول أما الأشجار المثمرة والغـــلات الصناعية كالقطن والكتان فيؤدى الخراج عنها نقدا [١].

وكان الفاطميون يجبون الخراج بواسطة نظام القبالة ، فكان متولـــي الخراج يجلس لتوزيع القبالات في جامع عمرو بن العاص ثم انتقل إلـــى دار الوزير ، وكانت القبالات توزع لمدة أربع سنوات مراعاة للتذبذب والتفـــاوت في الأحوال بين الظمأ والاستبحار وبين وفرة المحصول ونقصانه.

أما المال الهلالي فيأتي في مقدمته الجزية التي عرفت في العصـــــر الفاطمي باسم الجوالي وهي ضريبة تؤخذ على أهل الذمة الأحرار البـــالغين القادرين على الكسب ويعفى منها النســـاء والصبيـــان والرهبـــان والعبيـــد والمجانين، وكانت الجوالي في مصر الفاطمية ثلاث طبقـــات تبعـــا للقـــدرة المالية للذميين ، فالمياسير يؤدونها أربعة دنانير وسدس والمستورين يؤدونها دينارين وقيراطين والفقراء يؤدونها نحو دينار ونصف دينـــار ، ويبـــدو أن كسور الدنانير كانت برسم المشد والمستخدمين على نحو مـــا يسـمى الآن مصاريف إدارية.

ومن المال الهلالي الزكاة وهي واجبة على المسلم كركن من أركـــان الإسلام ولم يكن الفاطميون الإسماعيلية يعينون متولي للزكاة وإنما كان علـــى الإسماعيلية أن يؤدوا من تلقاء أنفسهم إلى الحكومة الفاطمية ما يسمى الفطرة أو النجوى. أما الرباع - مفردها ربع - فهي المساكن المشتركة التي تقطنـــها أكثر من أسرة (العمارات الآن) وهي عكس الدور - مفردها دار - وهـــي

---

(١) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٢٦٩ وما بعدها.

المساكن التي تسكنها أسرة واحدة بمفردها أي أن الربـــاع كـــانت مســـاكن مؤجرة ولذلك تؤدى عنها ضرائب تعين الحكومة الفاطمية من يتولى جمعها.

أما عشور التجارة فكانت تؤخذ من التجار المسلمين بينما كان التجار الأجانب من الروم يؤدون الخمس الذي كان يسمى فـــي العصـــر الفـــاطمي بالخمس الرومي، وكان يؤخذ مرة واحدة في السنة حتى لو تكرر قدوم التاجر الرومي إلى مصر أكثر من مرة في تلك السنة.

وكان للدولة الفاطمية غير ذلك موارد مالية كثيرة يضيق المجال عن استذكارها ويمكن الرجوع فيها إلى ما كتبه المخزومي في كتابه المنهاج الـــذي أشرنا إليه ، أما نفقات الدولة الفاطمية فكانت لها أوجه عديدة منها :

(١) **نفقات البلاط والقصر الفاطمي** : مثل النفقات علـــى مطـــابخ القصـــر وكانت مالا عظيمـــا في كل يوم – على حد قول المقريزي – ومثل النفقات على الاحتفالات السلطانية كالاحتفال بشهر رمضان المبـــارك الـــذي توزع فيه الحلوى والكسوات وتقام فيه الولائم وتمد الأسمطة ، أما سماط عيـــد الفطر وعيد الأضحى والاحتفالات فكانت تتكلف نفقات طائلة ، وفضلا عـــن ذلك فقد كان للمناسبات الخاصة بالقصر الفاطمي كالزواج والختان وغير ذلك نفقات سخية ، فقد أنفق المعز على زواج أخته مليون دينار مغربـــي وأنفـــق على جنازة أمه مائة ألف دينار ويمكن القياس على ذلك في ســـائر العصـــر الفاطمي. ويمكن أن نضيف إلى ذلك ما كان ينفق على الطـــراز وملابـــس الخلفاء الفاطميين ورجال البلاط.

(٢) الرواتب : كانت الرواتب التي تعطى لموظفي الدولـــة علـــى اختلاف مراتبهم بندا هاما من نفقات الدولة الفاطمية التي كانت تعنق الأموال

على موظفيها - وكان أكثرهم من الشيعة والموالين - مكافأة لهم على موالاتهم للدولة وتشجيعا للمصريين السنة على التحول عن سنيتهم إلى التشيع وقد أمدنا القلقشندي ببعض التفاصيل عن الرواتب الكبيرة التي كانت تمنح للموظفين فكان راتب الوزير - على سبيل المثال - خمسة آلاف دينار نقدا في الشهر غير المقررات العينية وكانت رواتب رجال البلاط والقضاة والدعاة كبيرة جدا.

(٣) **الهبات والأعطيات** : كان هذا البند من المصروفات هاما في العصر الفاطمي فقد أسرف الفاطميون في إغداق الهدايا والهبات والأعطيات على الناس في كل مناسبة ليستميلوهم إلى المذهب الاسماعيلي الفاطمي ، وكان الفاطميون يمنحون الشعراء والمغنيين العطايا والصلات الجزيلة ، كما تبادل الخلفاء الفاطميون الهدايا مع حكام البلدان الأخرى مسلمين وغير مسلمين ، ولدينا أمثلة كثيرة في ذلك توضح إسراف الفاطميين الذي كان له أسوأ الأثر على الدولة في النهاية ، إذ تعود المصريون على عطايا الفاطميين ، فلما قلت عطاياهم في أواخر دولتهم قل حماس المصريين لهم وأدرك ذلك صلاح الدين الأيوبي ، فأغدق الأموال على المصريين لاستمالتهم حينما فكر في إسقاط الخلافة الفاطمية وكان لذلك بعض الأثر في أن المصريين لم يعارضوا إسقاط الخلافة الفاطمية ورحبوا بالعهد الجديد.

(٤) **نفقات الجيش والأسطول** : إهتم الفاطميون بالجيش وأغدقوا عليه الأموال نظرا لتعدد طوائف الجند وتعارض مصالحهم فكان السبيل إلى الحفاظ على ولائهم هو إغداق الأموال عليهم إذ كانوا أشبه بالجند المرتزقة ولم يعتمد الفاطميون على أهل البلاد المصريين في جيشهم إلا بعد التجنيد

الصليبي ، وقد كانت النفقات على الجيش تشمل رواتب الجند وأعطياتهم ونفقات التسليح وتكاليف الحملات والحروب التي شنها الفاطميون لفرض نفوذهم في مصر والشام ولردع الثوار والمتمردين وعلى ثورة البساسيري ضد الخلافة العباسية وفي مواجهة الخطر الصليبي الذي لم يقتصر على بلاد الشام وإنما هدد الفاطميين في مصر نفسها.

واهتم الفاطميون بالأسطول لحفظ السواحل المصرية من إغارات الأعداء وحماية التجارة وكانوا يحرصون على توفير إحتياجات الأسطول من السفن ومعداتها واستيراد الأخشاب اللازمة لبناء تلك السفن من الشام وأوروبا وقد بلغت السفن الفاطمية أعدادا كبيرة قدرت بالمئات.

(٥) **نفقات على العمائر الدينية والمدنية** : كبناء الجوامع مثل الجامع الأزهر ، الجامع الأنور وغيرها من جوامع وإيقاف الأحباس عليها ،وقد بلغت عناية الفاطميين بالمساجد والاكثار منها أن اشتهرت القاهرة بكثرة مساجدها حتى أنها تسمى مدينة الألف مئذنة ، وقد اهتم الفاطميون بالمنشآت الخيرية والمساجد والأسبلة والمزارات وغيرها ، كما هتم الفاطميون ببناء القصور والمناظر التي بلغت أعلى مستوى من الفن الرفيع.

وهكذا كانت النفقات الفاطمية طائلة وفي أوجه عديدة وتظهر بذخ الفاطميين وترفهم وإسرافهم الذي لم يكن مسبوقا في تاريخ مصر الإسلامية.

۞ الأزمات الاقتصادية :

كان الاقتصاد الفاطمي على درجة كبيرة من الازدهار ومع ذلك تعرضت مصر الفاطمية لكثير من الأزمات الاقتصادية التي ساء تأثيرها على النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقد صدق المقسي حينما

قال عن مصر " هذا إقليم إذا أقبل فلا تسأل عن خصبه ورخصه وإذا أجدب فنعوذ بالله من قحطه " [١].

ومع أن الأزمات الاقتصادية في العصر الفاطمي لم تكن شيئا جديدا على مصر وإنما عرفت مصر مثيلا لها في كل ال[illegible]ور ، إلا أن الأزمات الاقتصادية في مصر الفاطمية قد ذاع صيتها أكثر [illegible]ن غيرها ربما لأن حدوثها في عصر مزدهر كالعصر الفاطمي كان لافتا للنظر فكتب عنها المؤرخون أكثر مما كتبوا عن مثيلاتها في العصور الأخرى.

وكانت الأزمات الاقتصادية تحدث في مصر الإسلامية عامة وفي مصر الفاطمية خاصة نتيجة عدة عوامل أو أسباب تنقسم بطبيعتها إلى قسمين رئيسيين : عوامل طبيعية وعوامل بشرية ويمكن إيجازها على النحو التالي :

(أ) العوامل الطبيعية :

يقصد بها تلك العوامل التي لم تكن من صنع البشر وإنما هي محصلة ظروف البيئة الطبيعية التي لا دخل للبشر بها وأهمها :

١ - النيل : يأتي قصور فيضان النيل وعدم وفائه في مقدمة العوامل الطبيعية المسببة للأزمات الاقتصادية ، فالنيل هو أساس الزراعة في مصر ، ولقد عني المصريون منذ القدم بتنظيم الإفادة من مياه النيل وأقاموا المقاييس [٢] لمعرفة مقدار الزيادة أو النقصان في مياه الفيضان ، وقد وجدت

---

(١) المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٠٢.

(٢) المقياس : عمود من رخام أبيض قائم مقسم إلى أذرع وأصابع ، ويصف الإدريسي مقياس الروضة بأنه " دار المقياس هو في الرأس العريض من الجهة الشرقية مما يلي الفسطاط وهي دار كبيرة يحيط بها من داخلها من كل جهة أقبية دائرة على عمد وفي وسط الفسقية عمود رخام قائم وفيه رسوم أعداد أذرع وأصابع بينها وعلى رأس العمود بنيان متقن من الحجر وهو ملون مرسوم بالذهب واللازورد وأنواع

في مصر قبل الفتح الإسلامي عدة مقاييس في منف وأخميم وأنصنا ثم أقام المسلمون مقاييس جديدة كالمقياس الذي أقامه عبد العزيز بن مروان في حلوان والمقياس الذي أقامه أسامة بن زيد التنوخي في جزيرة الروضة بأمر من سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧هـ ثم المقياس الهاشمي الذي أقيم في جزيرة الروضة سنة ٢٤٧هـ بأمر من المتوكل العباسي في ولاية يزيد بن عبد الله التركي. وبواسطة المقاييس يتم تعيين حد الوفاء الذي إذا بلغه فيضان النيل يكون قد أوفى بحاجة البلاد من ماء الري وقد اعتاد المصريون في العصر الإسلامي على اعتبار حد الوفاء ستة عشر ذراعا تصح عندها جباية الخراج ولذلك كانوا يسمونه ماء السلطان لكن هذا كان مجرد حد وفاء إعتباري أو نظري ففي العصر الفاطمي إذ تزايد حد الوفاء الفعلي في هذا العصر إلى ثمانية عشر ذراعا بسبب ارتفاع قاع النيل ومجاري المياه نتيجة ترسيب الطمي وإهمال تطهير المجاري المائية عبر السنين.

كان يوجد حد أقل من ذلك يسمى حد الكفاية وهو أقل من حد الوفاء بذراعين يمكن أن تروى الأرض منه وتزرع محصولا يكفي السنة التي تمر دون قحط أو مجاعة لكن إذا قل الماء عن ذلك فإن خطر القحط كان يتهدد البلاد فيصيبها الجدب الذي يؤدي إلى الغلاء الذي قد يتفاقم إلى المجاعة ، ومن ثم كان قصور فيضان النيل هو العامل الرئيسي وراء حدوث الأزمات الاقتصادية ليس فقط لتوقف الزراعة وإنما أيضا لأن نقصان ماء النيل كان

الأصابع المحكمة والماء يصل إلى هذه الفسقية على قناة عريضة تصل بينها وبين ماء النيل ولا يدخل في هذه الفسقية إلا عند زيادة ماء النيل

يعوق سير المراكب التي تنقل الحاصلات في النيل وفروعه فلا تجد المدن ما يكفيها من مؤن وغلال.

٢ – **طاعون الماشية** : كان طاعون الماشية يؤدي إلى نفوق كثير من الحيوانات الحقلية التي كانت تعتمد على الماشية اعتمادا رئيسيا فضلا عن تناقص اللحوم الحمراء التي كانت الماشية أهم مصادرها.

٣ – **الآفات الزراعية** : كانت من العوامل المسببة للأزمات الاقتصادية كالفئران والجراد وأمراض النباتات مما يؤثر على المحاصيل تأثيرا ضارا.

٤ – **الأوبئة والطواعين** : هي من العوامل الطبيعية المسببة للأزمات الاقتصادية وكانت على درجة عالية من الخطورة إذ تؤدي إلى إهلاك الناس وإهدار القوى البشرية المنتجة مثلما حدث في سنة ٤٥٦هـ من وباء عظيم أدى إلى إهلاك ثلثي أهل مصر فبارت الأرض ولم تجد من يزرعها [1].

(ب) العوامل البشرية :

يقصد بها العوامل من صنع البشر أنفسهم كالقلق النفسي من تأخر وفاء النيل مما يؤدي إلى تخزين المؤن والطعام وغلاء الأسعار الذي قد يتفاقم إلى المجاعة. وكان من العوامل البشرية الفتن والثورات مثل ثورة أبي ركوة الأموي وكذلك الحروب التي خاض الفاطميون كثيرا منها ضد القرامطة وضد الصليبيين وغيرهم بالإضافة إلى تلاعب التجار والأزمات النقدية مثل الأزمة النقدية التي حدثت في خلافة الحاكم بأمر الله ٣٩٥هـ.

لقد شهدت مصر في العصر الفاطمي أزمات اقتصادية عديدة كان أولها تلك الأزمة التي تسببت في إضعاف الدولة الإخشيدية وساعدت على

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ص ٦١

دخول الفاطميين مصر سنة ٣٥٨هـ وقد تعهد جوهر الصقلي بمعالجة هذه الأزمة إلا أن آثارها استمرت بضع سنين حتى سنة ٣٦١هـ مما أخر قدوم المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر حتى لا يرتبط ذكر قدومه إلى مصر بهذه الأزمة الاقتصادية ، ولم تشهد مصر أزمات اقتصادية في السنوات القلائل التي حكم فيها المعز مصر.

أما في خلافة العزيز بالله وعلى الرغم من أنها كانت من أزهى أيام الفاطميين في مصر إلا أنها لم تخل من أزمات اقتصادية مثلما حدثت في السنوات من ٣٧٢هـ إلى ٣٧٤هـ وفي عام ٣٨٢هـ وغيرها.

وفي خلافة الحاكم بأمر الله تزايدت الأزمات الاقتصادية عن ذي قبل مثلما حدث في سنة ٣٧٨هـ بعد عام واحد فقط من تولي الحاكم الخلافة وكانت أزمة خطيرة وصفها المقريزي في كتابه إغاثة الأمة وكانت لأسباب بشرية وفيها طلب القمح فلم يقدر عليه حتى وصل سعر الكيس إلى أربعة دنانير ، وحدثت أزمة اقتصادية خطيرة في سنة ٣٩٥هـ وفيها ارتفعت الأسعار واضطربت الأحوال بسبب الأزمة النقدية. واستمرت الأزمات الاقتصادية في خلافة الحاكم لكنه ما لبث بعد أن تصدى لها في شدة وحزم.

وازدادت الأزمات الاقتصادية في خلافة المستنصر بالله الفاطمي ، وكان أشهرها على الإطلاق تلك الأزمة المعروفة بالشدة المستنصرية والتي امتدت لسنوات طويلة ، وقد شبهها المؤرخون بالشدة اليوسفية التي كانت على أيام النبي يوسف عليه السلام ، ولكنا نرى أن الشدة المستنصرية كانت أشد وأنكى من الشدة اليوسفية بكثير ليس فقط لأنها امتدت لسنوات أطول – نحو تسع سنوات – وإنما أيضا لأن الشدة اليوسفية كانت متوقعة وأشار

يوسف عليه السلام بضرورة تخزين الغلال لمواجهة السنوات العجاف كما أنه أشرف بنفسه على توزيع المخزون في تلك السنوات العجاف مما خفف من غائلة تلك الشدة اليوسفية وقسوتها وهو الأمر الذي لم يتيسر مثله للشدة المستنصرية التي نجمت عن عدة عوامل طبيعية وبشرية لتجعل منها أقسى الأزمات الاقتصادية في تاريخ مصر بوجه عام.

وإذا كانت الأزمات الاقتصادية قد بلغت هذه الدرجة من الكثرة في العصر الفاطمي الأول الذي يعد عصر قوة الفاطميين فقد استمرت تلك الأزمات الاقتصادية في العصر الفاطمي الثاني حتى أدت إلى إضعاف الدولة الفاطمية وكانت من عوامل سقوطها.

بعض
المصادر والمراجع

أولا – المصادر

١- ابن الأثير : عز الدين بن الحسين علي بن أبي الكرم.

الكامل في التاريخ.

٢- الإدريسي : الشريف محمد بن عبد الله بن إدريس.

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

٣- إدريس : الداعي المطلق إدريس عماد الدين.

عيون الأخبار.

٤- الإسحاقي : محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح المنوفي.

أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول.

٥- ابن إياس : محمد بن أحمد الحنفي المصري.

بدائع الزهور في وقائع الدهور. جـ ١ .

٦- ابن أيبك الدواداري :

الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية

(من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر)

٧- أوتيخا : سعيد بن البطريق

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق.

٨- البغدادي : موفق الدين عبد اللطيف.

الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة

بأرض مصر.

٩- جعفر الحاجب :

سيرة جعفر الحاجب

١٠- ابن حيون المغربي : القاضي النعمان بن محمد.

- افتتاح الدعوة .

- المجالس والمسايرات .

١١- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد .

العبر وديوان المبتدأو الخبر .

١٢- ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم.

وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان.

١٣- ابن سعيد الأندلسي : أبو الحسن علي بن موسى.

- العيون الدعج في حلى دولة بني طغج.

- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة.

١٤- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .

١٥- الشيرازي : المؤيد في الدين هبة الله داعي الدعاة.

سيرة المؤيد في الدين .

١٦- ابن الصيرفي : أبو القاسم علي بن منجب.

الإشارة إلى من نال الوزارة.

١٧- ابن الطوير : أبو محمد المرتضى عبد السلام.

نزهة المقلتين في أخبار الدولتين.

١٨- ابن ظافر الأزدي : جمال الدين أبو الحسن علي الأزدي.

أخبار الدول المنقطعة.

١٩- ابن ظهيرة :

الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة.

٢٠- القلقشندي : أحمد بن علي.

صبح الأعشا في صناعة الإنشا.

٢١- ابن القلانسي :

ذيل تاريخ دمشق.

٢٢- الكندي : أبو عمرو محمد بن يوسف المصري.

كتاب ولاة مصر وقضاتها.

٢٣- أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغري بردي.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

٢٤- المخزومي : أبو الحسن علي بن عثمان.

كتاب المنهاج في علم خراج مصر.

٢٥- المسبحي : عز الملك أبو عبيد الله محمد.

أخبار مصر.

٢٦- المقريزي : تقي الدين علي.

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.
- المقفى الكبير.
- إغاثة الأمة بكشف الغمة.

٢٧- ابن مماتي : أسعد بن المهذب بن أبي مليح.

كتاب قوانين الدواوين.

٢٨- ابن ميسر : محمد بن علي بن يوسف بن حبيب.

أخبار مصر.

٢٩- ناصر خسرو :

سفر نامة - ترجمة يحي الخشاب.

٣٠- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب.

نهاية الأرب في فنون الدب.

٣١- ياقوت الحموي :

معجم البلدان.

ثانيا – المراجع

١- أشتور :

التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى

٢- أمينة بيطار :

موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين.

٣- أيمن فؤاد سيد :

الدولة الفاطمية في مصر.

٤- جمال الدين الشيال :

تاريخ مصر الإسلامية.

٥- حسن إبراهيم حسن :

- تاريخ الإسلام السياسي.

- تاريخ الدولة الفاطمية.

٦- راشد البراوي :

حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين.

٧- زكي محمد حسن :

كنوز الفاطميين.

٨- سعاد ماهر :

البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية.

٩- سلام شافعي محمود :

أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول.

١٠- سهيل زكار :

الفكر الإسماعيلي.

١١- عبد المنعم ماجد :

- ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر.

- نظم الفاطميين ورسومهم.

١٢- عزيز أحمد :

تاريخ صقلية الإسلامية.

١٣- محمد بركات البيلي :

- الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر الإسلامية.

- التشيع في بلاد المغرب حتى القرن الخامس الهجري.

- بداية الكارم ومعناه في العصر الفاطمي ، المؤرخ المصري عدد ١٣ / يوليه ١٩٩٤ .

١٤- محمد جمال الدين سرور :

مصر في عصر الدولة الفاطمية.

١٥- محمد حمدي المناوي :

الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي.

١٦- محمد الطالبي :

الدولة الأغلبية.

١٧- لين بول : ستانلي.

سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين.

فهرس الموضوعات